# نعش دمشق

حنين بوظو





دار حنين بوظو للنشر، لندن، المملكة المتحدة

# نقش دمشق

حنين بوظو

الطبعة الأولى: ديسمبر، 2018

الطبعة الثانية: ابريل، 2020

Designed by: Ammar Hreib, ammar.hreib@gmail.com

ISBN: 978-1-9993758-1-2

## حنين بوظو

**www.haneenbouzo.com**

haneen.bouzo@icloud.com

hanin.bouzo

@haneen_bouzo

**الناشر:**

**دار حنين بوظو للنشر، لندن، المملكة المتحدة**

HANEEN BOUZO PUBLISHING LLP, Partnership No. OC419541

**العنوان:**

Old Gloucester Street, London, United Kingdom, WC1N 3AX 27

# نعش دمشق

حنين بوظو

دار حنين بوظو للنشر، لندن، المملكة المتحدة

# تقديم

رواية **«نعش دمشق»** للروائية السورية **حنين بوظو** تحكي قصصاً دمشقية، لكنها ليست قصصاً كما تعودنا سماعها عن تاريخ دمشق العريق، وليست عن الياسمين ولا عن الحارات العتيقة والمساجد والكنائس التي عمرت سنوات طويلة إنما تلك القصص الفظيعة التي حدثت أثناء اندلاع الثورة السورية وغيرت خارطة وتاريخ تلك المدينة العريقة، تروي لنا قصصاً عن الأمل وعن المعاناة الشديدة التي حلّت بالشعب السوري مؤكدة في تفاصيل الرواية أن لا سبيل للتغيير إلا بتغيير أخلاقيات الشعوب ولا بد بقدر ما نتمنى زوال تلك الأنظمة المستبدة القائمة على البطش والتنكيل واعتقال الأبرياء وإجبار الناس على أن يشوا بأقاربهم وأن يفعلوا الفظائع فقط لأنها رغبة الحاكم المستبد أن يكون ذلك التغيير أيضاً حاصلا لدى الشعوب.

كأنها في سطور الرواية تشرح لك أسباب فشل الثورة، رغم أنها تبارك الثورة وتحرض لها لكنها تشرح تلك الأسباب التي أدّت لفشل الثورة.

وما يهمّها هو ليس تلك المؤامرات الدولية التي قيدت الثورة وخذلت الشعب السوري لكن ما يهمّها هي الأسباب التي كانت لدى الشعب نفسه، من غياب للثقافة السياسية والوعي التاريخي وعدم دراسة التاريخ وتسليم العقل لرموز ثورية كانوا يؤدون دور الشيطان في الوقت الذي كان الشعب يظنهم أنهم ملائكة الأرض وهم المخلصون وهم الأبطال.

في روايتها تحاول إيضاح أسباب فشل البعض في امتحان الثورة وامتحان الحرب.

كما تقول: (جميعنا رسبنا في الامتحان) والمنتصر الوحيد في نظر الروائية هو الذي لم يخسر إنسانيته بعد انتهاء الحرب.

استطاعت الروائية أيضا تقديم فلسفتها الأخلاقية ودعت إلى التمسك بالجذور والتاريخ الدمشقي وانتقدت تصرفات موجودة لدى الشعوب المقهورة وكأنها تقول: تلك الأرواح إن لم تطهر نفسها وتهذب روحها في أبسط أمور الحياة فلا خير يُرجى منها، فهؤلاء هم السوريون في أوربا لم تختلف أوضاعهم كثيراً في التعامل فيما بينهم، بل إن بعضهم تمادى وانسلخ من هويته وتأثر سريعا برياح الديمقراطية الكاذبة في أوربا وأكدّت من خلال أحداث الرواية أن لا ينصهر المجتمع السوري في أوربا لدرجة أن ينسى هويته، هويته التي هي أكبر من تاريخ أوربا فتاريخ دمشق وتاريخ الشام عريق جدا وهذه الهزيمة الحضارية والأخلاقية ما هي إلا نتاج التخلي عن الدين والأخلاق..

في رواية «نعش دمشق» تمكّنت الروائية الدخول في عقلية المضطهد وعقلية السجّان وعقلية اللاجئ وعقلية رجل الدين وعقلية رجل السياسة وعقلية المنتفعين وعقلية القائمين على المؤسسة التعليمية والدينية ورجالات القضاء والشرطة وأيضا الضحايا المهمشين الذين أثرت بهم سياسة الفساد المتفشية في النظام الحاكم سياسة (فرق تسد) وسياسة

التخوين وسياسة المحسوبيات وسياسة التسبيح بحمد الحاكم صباح مساء.

الشخصيات الرئيسية كانت من النساء ومن عدة طبقات ومن عدة ظروف مختلفة سواء الساكنات في (فم الضبع) كما يقال كشخصية (زيزي) أو السجينات أو اللاجئات مثل شخصية (مهجة).

الرجال لم يكونوا سوى شخصيات مساعدة للشخصيات الرئيسية معظهم مغلوب على أمره كالوالد الذي يتعرض للخيانة من زوجته، الزوج الذي لم يستطع توفير الحياة الكريمة لأسرته بسبب ضعف الحالة الاقتصادية وتفشي الفساد المالي والإداري في أنظمة الحكم وهو الرجل الذي يُطالب بتأدية مهامه مهما تطلب الأمر دون مكافأته بكلمة شكر أو معذرته في حال تقصيره، وفي حال عدم توفير تلك الحياة فهو بنظر المرأة يغدو عاجزًا غير مفيد، ولا يستحق لقب رجل ويحق للمرأة ان تخونه جسدياً وروحياً مع رجل آخر، وأيضاً هناك شخصية (رضا) الذي كان لصاً ومع اندلاع الثورة تمّ أو كاد أن يُغسل دماغه حتى انضم للتنظيمات الإرهابية وتركها بعدما اكتشف فسادها وارتباطها مع النظام الفاسد بخلاف الشخصية الأساسية الوحيدة (مهيوب) الذي كان يرمز صراحةً للفساد والنفعية والانتهازية والجشع والسيطرة من أجل السيطرة وحب تملك العباد والبلاد و النساء رغم عدم قدرته على..!!

اعتمدت الروائية كثيرا في روايتها في سرد القصص على الصوت الداخلي للشخصيات، إما عن طريق الأحلام والرؤى أو عن طريق الوساوس والخيالات التي تعتري الشخصيات كي تستطيع الروائية شرح ما يعتمل داخل نفس كل شخصية، تلك الشخصيات التي تمثل وجهة نظر الشعب المقهور وقد نجحت في ذلك ومكنتها تلك التقنية للإسهاب والتعمق أكثر وأكثر في توصيف وشرح حالة الإنسان السوري سواء كان لاجئا او سجيناَ أو سجّاناَ أو ضابطاَ أو مسؤولاَ أو محاصراً في جبهات القتال أو

مموهاً بعد انضمامه لجبهات القتال الوهمية.

رواية « نعش دمشق» هي انتصار لدمشق العريقة، ليس انتصاراً لدمشق التي احتلت وصارت الآن بقبضة أشخاص لم يكونوا أهلها، وهي أيضا ليست انتصاراً لأهل دمشق الأصليين المعاصرين الذين هجّروا بل هي انتصار للمجد والحضارة القديمة التي مرّ عليها سلاطين وحكام وأمراء وخلفاء وعظماء وشعراء وفلاسفة وعلماء وفنانون ومبدعون وأناس حقيقيون جاؤوا من عرقيات ومن مذاهب مختلفة عمروا دمشق وأحيوا حضارتها وتاريخها.

شخصيا استمتعت بقراءة فصول الرواية وأتمنى أن يستمتع بها غيري آخذاً بعين الاعتبار الوضع الذي تمر به سوريا في السنوات الأخيرة فهذه الرواية كانت محايدة في سردها للأحداث وانتقدت ضمير وأخلاق الشعب كما انتقدت النظام وقدّمت الحلول الأساسية لنجاح أي مجتمع وهو الضمير السياسي النقي وأخلاقيات كل فرد وأن يهتمّ كل إنسان بتطهير نفسه وترقيتها فكريا وروحيا دون الانشغال بأخطاء الآخرين وتخوينهم أو الحكم عليهم.

**صالح طه (ظميان غدير)**

شاعر وأديب إرتري

26 مارس 2020

# حروف مخبوءة

أنشـودة التغييـر التـي ضاعـت أصواتهـا فـي زمـن النشـاز حيـن رفضنـا عـزف موسـيقى التغيُّـر.

التغيير من داخل النفس بضبط أنفسنا وتوجيهها للانضباط والنظام دون الحاجـة إلى أوامر خارجية تجبرنا على ذلك.

والتغيير هـو ما ينتقل إلـى الخـارج نتيجـة تغيرنا لينتشـر من فـرد إلى مجموعة أفراد ثم إلى مجتمع بأكمله، ولكن كيف ننتظم ونتغير برغبة منا ونحن قد تجـذَّر فينا الخوف؟

كيـف نتغيـر وكيـف نسـعى للتغيُّـر حيـن لا نملـك أدوات رسـم نحـدد بهـا الخطـوط والاتجاهـات؟

كيف ونحن عاشقون للتخريب؟ ربما دون قصد منا، ألم نستبدل مساحات خضـراء مـن الأراضـي لنحولهـا إلـى بيـوت ومسـاكن؟ دون أن نعـي بأنـه كان يجـب علينا استغلال مساحات متصحرة ولو كانت بعيدة نسبياً ونعمر هناك دون أن نضطر لقطـع شـجرة أو لذبـح سـاقية أو لطعن نهـر!

تماماً كما يسعى البعض إلى تقليد جاره الذي افتتح متجراً، فأصبح كل من يريد افتتاح متجر يقلده بالبضاعة ذاتها والصناعة ذاتها.

هذا يندرج تحت مسمى التخريب لا التقليد ولا المنافسة، ولو سألت أحدهم لم فعلت ذلك؟ لأجاب وما المانع فالرازق واحد والرزقة مقسومة؟!

بماذا يفيد العناق الطويل لشخص مصاب بضيق تنفس؟

والحال ذاته ينطبق على من يصر على السكن مثلاً بالقرب من عائلته، لتجده بعد وقت قصير يمتعض ويندم حين لم يختر سكناً يبعد به عن المشاكل والصداع.

والمسألة لم تكن تحتاج إلا قليلا من التفكير والتخطيط الملائمين للظروف النفسية والاجتماعية، لكن الاندفاع العاطفي غالباً ما يودي إلى منزلقات غير محمودة العواقب.

التفكير فقط.. قليلٌ من التفكير.... والتفكرا!

التغيير هو ما يجب علينا عمله بأوامر صادرة من داخلنا لا تنفيذه بأوامر خارجية نتلقاها مقابل أجر كمسئولين، أو خائفين من عقاب كمعلم يزجر طلابه ومعاقبتهم عند إهمال كتابة واجباتهم، هنا يأتي دور المعلم وواجبه بدفعهم لترتيبها أخلاقياً كما هو واجب الأهالي تربويا وحين نصل إلى مرحلة يصبح بها الطفل منظماً وغير فوضوي من تلقاء نفسه علينا أن نصرح عندها بأننا سائرون بالطريق الصحيح.

من المتسبب في الفوضى والسلبيات القابعة فينا، نحن؟.. هم؟؟.. المجتمع؟.. البيئة؟..

كل هؤلاء مجتمعون هم سبب في تلك الفجوة التي ألقينا بأنفسنا فيها دون أن نفكر كيف نفكر.

وبدلا من طرح الأسئلة قمنا بطرح فشلنا وأجلسناه على طاولة حوار غير مجدي واتهمناه بأنه هو المتسبب بما يحصل لنا وتركنا دموعنا تجري على حظنا الخائب ونسينا بأن تلك القوة التي نملكها كان يمكن لها أن تتصالح مع النجاح والإمساك بذلك الفاشل الذي يسكننا وطرده خارج حدود ذاتنا، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

لقد أسأنا لأنفسنا بما فيه الكفاية حين أشرنا بأصابع اتهاماتنا للجميع ونسينا توجيه أصابع الاتهام إلى داخلنا المهزوم وإلى عقولنا التي لا تفكر وإلى عيوننا التي لا تقرأ وإلى أيادينا التي لا تنتج.

أولى الخطوات الايجابية التي يجب علينا البحث عنها هي الحقيقة، والحقيقة يجب ممارستها وتسييرها بالاتجاه السليم بالعلم والنهج الصحيحين.

ألم يُخذل النبي محمد عليه الصلاة والسلام من قومه؟ ماذا فعل؟ لقد هاجر لينشر الإنسانية والإيمان والعدل وهذا ماجعله ينتصر أخيراً.. هل نحن قادرون على ذلك حين أصبحنا مهاجرين؟

محكومون نحن بالحكومات التي تحرمنا من ضمانات عيشنا؟؟

وهل بالمقابل نحن مستعدون للإصلاح كي نقوى على القانون؟

# الفصل الأول

اجتثاث الجذور الممنهج..
يتطلب منا الحفر عميقاً
للقضاء على السوس
المتسلل إليه..

# نعش دمشق

عندم توفيت أمي بين يدي.. استجمعتُ قواي وابتلعتُ دموعي لقاع القلب، توضأت ووقفت عند رأسها وقرأت سورة ياسين ثم قبلت قدميها وطلبت من المسؤولين في المشفى القيام بواجبهم.. ومضيت.

أقسمت من يومها ألا أجعل من اسمها قسماً مهما حاق بي من ظلم. لقد حولتها بداخلي إلى رمزٍ مقدس لا يمسه كلام بشرٍ بسوء.

انتقلت روح أمي إلى بارئها.. وبنيت لها بداخلي مقاماً أعود لزيارته كلما خذلني شيء ما، وكنت أحرص ألا أشكو لها خذلاني من الناس والأشياء. بل كنت أروي لها حوادث طريفة، فلطالما اقتنعت بأن الأموات يصمتون، لتبدأ رحلتهم بالإنصات لمن حولهم.. لذا حرصت على ألا أجعلها تحزن في عالمها الآخر وهي غير قادرة على الإجابة.

كيف سأخبرها بأن حفيدها وصهرها قُتِلا من غير ذنب؟

ماتت أمي وعشت ذكرى طفلة كانت تركض من مدرستها نازعةً حقيبتها

عن ظهرها لترمي نفسها في حضن أمها وتغمض عينيها كي تهنأ بتلك اللحظات المباركة الآمنة المسلوبة من معلمة الصف القاسية.

**ماتتْ أمي.. وتبدلت أشياءٌ كثيرة بموتها وموت طفلي وزوجي. تبدلت أنا، وتبدلت حتى السماء التي كانت تُمطر حباً وزهراً وياسمين.. وأصبحت تمطر حرباً وقذائف وبراميل.**

تحولت البلد إلى ما يشبه جنوناً أصاب العالم كله، تبدلت نظرات العيون الرقيقة وحلَّ محلها توعد وخيبات.

أصبح كل شيء شرساً وتبدلت الأصوات الجميلة وحلَّ محل الرخامة عواء.

لم يعد للمجاملات مكان، لقد أصبح الواقع سيئاً لدرجة أننا بتنا عاجزين عن تخدير أرواحنا وحواسنا بخضم الحاصل، وكأننا اكتشفنا في داخلنا وحشاً قادرًا على الاستيقاظ في لحظة مباغتة غير متوقعة، وصار التعبير الصادق الوحيد والممكن هو ابتلاع أنفسنا لداخلنا وسلخ أنفسنا عمن كنَّا نعرفهم حين اكتشفنا بأنهم ليسوا هم أنفسهم أصحاب البارحة الودودين الذين كنا نتبادل معهم التظارف والنكات وحتى الهموم..

تحول كل شيء إلى ما يشبه السيرك، نمشي به على حبائل أعصابنا المشدودة، مستنفرين لكل حدثٍ جائزٍ وقوعه في أية لحظة، وكان لا بد من الاعتراف بالحقيقة، **فإما أن نكون لاعبين محترفين أو أن نكون مهرجين نبكي خلف أقنعتنا..**

وأنا اخترت ألا أكون أياً منهم، فقد حكمت على نفسي بالهجرة قبل أن أُقتل، بعدما أصبح القتل لعبةً ممتعةً يتسلى بها قناصٌ معتوهٌ يختار ضحاياه بحسب مزاجه صانعاً الموت أو العذاب بالشكل الذي يراه مناسباً، فبيده يجعل من ضحيته ضحيةً تعاني من إعاقة دائمة، وهذا لا يكلفه سوى التصويب أسفل الظهر، أو يصيبها في مقتل فوراً حين يزعجه منظرها.

لا بد من الهجرة فأنا لا أقوى على التحرك بأمر، والنطق بأمر، ليس بمقدوري التحول لآلةٍ تعمل عن بعد بجهاز إنذار.

لا بد من الهجرة.. فالتداعي وراء التداعي يعني نهاية كل شيء، وأنا لا أريد أن أنتهي رغم كل ما عانيت منه بجروح غرزت أنيابَها بقاع روحي.

ما زالت لدي طموحاتٌ كثيرة وأحلام لم أحققها بعد، لا أريد لآمالي وأيامي وعمري المسكوب في آنيةٍ قابلةٍ للكسر أن تُسفح في لحظة طيشٍ واستهتارٍ من أناس يعتبرون أمثالي مجرد اسمٍ إضافي في دائرة النفوس يمكن محوه برصاصة لا يتعدى ثمنها الدولارين.

بدولارين فقط قُتل زوجي وابني وحيدي وحلمي الذي عشت عشر سنوات أحلم برؤيته بعد علاجٍ مضني وصبر، وحين ضحك لي القدر وأتى كشمس ربيع بعد شتاءٍ قارس، جاء رجلٌ معتوه لينهي براءته في لحظة مزاجٍ كانت تريد أن تتسلى، وقُتل معه زوجي الذي ركض لإسعافه لكنه سقط أمامه برصاصة أخرى من فوهة القناص نفسه دونما رحمة.

لم يعد للحياة هنا بعدهم أي طعم فالتفاصيل الصغيرة تؤلمني حين أراها في كل مكان وزاوية وجدار.

أمي! لماذا أصبحت الحارات لا تفتح لي ذراعيها ممدودتين بعد أن رحلتِ، ولماذا أصبح الأفق ضيقاً رغم المساحات الشاسعة؟ لماذا لم تعد اللقاءات في المدينة تحمل ذلك التوهج؟ لماذا أصبحنا كالنمل نعمل ونعمل منتظرين جنود سليمان ليدهسونا دون أن نخاف حين لم تحولنا ابتسامته إلى أحجام أكبر نستطيع من خلالها الصراخ بدلاً من التبسم لخفة ظلنا وصغر أحجامنا؟

أسئلة كثيرة يا أمي لا أجد لها إجابات لكن أريد أن أسأل سؤالاً أخيراً.

هل سيأتي اليوم الذي تُوَقّعُ به آلهة موجودة على الأرض معلنة وقف الحرب والسماح لنا بالعودة بقرار جمهوري؟

تنبهت سيرين من شرودها على السائق بصوته الأجش معلناً أنهم اقتربوا من مطار بيروت وعليهم أن يتفحصوا أوراقهم جيداً، مخلياً مسؤوليته عن إضاعة أي شيء يخصهم، فهو بالتأكيد لا يملك الوقت الكافي للعودة مرةً أخرى.

# الفصل الثاني

لم تكن ثورة فحسب..

بل كانت هزيمة أخلاقية
للجميع دون استثناء..

هزيمة للأقنعة التي سقطت..

وقد توهم أصحابها
أن اللاصق نخب أول.

يغلق مهيوب سماعة الهاتف.. مهيوب إمبراطور المال ورجل المجتمع المعروف والذي فاقت ثروته أرقاماً تعدت العشرة أصفار أمريكية بقدرة قادر دون أن يسأله أحدٌ من أين لك هذا؟ شبك أصابعه ورمى برأسه إلى الوراء محركاً كرسيه الدوار مرسلاً نظراته إلى اللوحة التي اشتراها دون أن يفهم منها شيئاً، جاء اختياره لها لأنها كانت أغلى اللوحات في معرض أُقيم بإحدى الصالات التي دُعي إليها منذ شهور واختار أن يضعها في المكتب الفخم الذي أسسه حديثاً في قلب العاصمة التي لا يتحرك بها إلا بمرافقين كان قد اختارهم بعناية من أحد النوادي الرياضية الذي يُعرف بأنه نادي لكمال الأجسام، لكنه في الحقيقة نادٍ متخصص للتدريب على السلاح وقتال الشوارع!!

تدخل زيزي بالتصريح المفوض لها منه، يزيح اللوحة بعينيه عند دخولها دون أن يتحرك من مكانه موجهاً سؤاله لها:

- هل جهزتِ المطلوب؟

تجيبه:

طبعاً، ومتى تأخرت عن تنفيذ أوامرك؟

ينهض عن كرسيه ممسكاً بأوراق كان يرتبها وناولها لزيزي وقبل خروجه التفت إليها قائلاً:

عظيم.. إذن سنلتقي على العشاء، فلقاء اليوم يختلف عما سبقه من لقاءات، ركزي جيداً ولا تسرفي في الشراب. إنه مشروع حياتي وتعلمين تماماً ماذا يعني هذا الكلام بالنسبة لي، هو ليس فقط حلماً ببناء برج يتحدث عنه العالم.. بل هو لذة طالما بحثت عنها ولم أجدها. إنه المجد الذي سيخلّد اسمي في عالم العقارات والمال، هو ليس الحلم بالبرج بقدر ما هو وصول أحلامي واسمي إلى ذروته كنجمٍ يعلو أضخم شجرة ميلاد في العالم.. تنبهي جيداً لكل صغيرة وكبيرة.

وأشار إليها بسبابته في إشارة للتهديد.. وإلا!!

خرج وعينا زيزي تلاحقانه باحتقار حتى غاب تماماً، وفي نظراتها ألف حقد ووعيد واشمئزاز، تسحب نفساً من سيجارتها مرددة بهمس ساخرة.. وإلا.. هه.. وإلا!!

قبل أربعة عشر عاماً كنت راكضةً إلى البيت حاملة لأمي شهادة الإبتدائية بدرجة متوسط، ومعها كرهي للدراسة وللمدرسة معاً، سعادتي لم تكن توصف فأمّي ستنفذ وعدها لي بترك المدرسة فور حصولي على تلك الشهادة وإرسالي إلى صديقتها مدام فيوليت صاحبة صالون التجميل في الحي لأكتسب منها مهارة تلك المهنة التي تدر أرباحاً لا بأس بها، صادفت يومها والدي في منتصف الطريق المؤدي للبيت مبكراً على غير عادته.

- أراك مبكراً بالعودة يا أبي؟

أجـاب بأنـه شـعر بتعـب مفاجـئ وضيـق فـي صـدره وأنـه بحاجـة للنـوم والراحـة.

لـم ينس أن يعانقنـي ويبارك لـي, لكنه كان حزيناً لتلك النتيجة فوالـدي كان يحلـم أن أكـون طبيبـة كما يحلـم كل الآباء والأمهات وكأنه لا توجـد مهنـة غيرهـا تدعـو للافتخـار، تحـدث أبـي يومهـا علـى غيـر عادتـه وأنـا قـد عهدته صامتاً لا يتحـدث إلا ما نـدر، فأمـي هـي المسؤولة عـن كل شـيء، عـن الحديـث والـكلام والتصـرف, حتـى باختيارهـا وجبـات الطعـام دون أن تسـأل أحـداً منا عمـا يحبـه مـن طعـام أو يرفضـه، باختصـار كانـت أمـي هـي المسـيطرة علـى جميـع الأمـور بدايـةً مـن أخذهـا لراتبـه الشـهري والـذي لا بـد أن يمر بسيل من الشـتائم لثقتها بتبخـره فـي أقل من عشرة أيام, مروراً بتنظيـم أمور البيـت، انتهاء بطريقـة تربيتـي.. فأمـي لـم تكـن تسـمح لوالـدي بالتدخـل فـي شـؤون العائلـة معتبـرة أنـه لا يصلـح لشـيء غيـر الوظيفـة والنـوم، وعندمـا تـزداد الأمـور عـن حدهـا كان يخـرج مـن البيـت دون التفـوه بكلمـة ولا يعـود إلا وقـد تأكـد مـن أنهـا قـد هـدأت أو نامـت. كـم كنـت أشـفق عليـه مـن سـيطرتها ومعاملتهـا السـيئة، ومـن الصـراخ بوجهـه. كان أبـي حنونـاً ومسـكيناً فـي ذات الوقـت.

دخلنـا إلـى البيـت وتوجّـه والـدي لغرفـة النـوم كـي يسـتريح، وتوجهـت أنـا بـدوري للمطبـخ باحثـة عـن أمـي كـي أعطيهـا الشـهادة وأذكرهـا بوعدهـا لـي. سـمعت صراخ أبـي قادمـاً مـن الغرفـة كصـوت ابـن آوى جريـح، ركضـت لأجـدَ أبـي الـذي لـم يتحمـل هـول الصدمـة فسـقط ميتـاً حيـن شـاهد أمـي مـع مهيـوب علـى السـرير.

توقـف فـيَّ كل نبـض يمكـن لـه أن يحيـي أي شـعور، تجمـدت فـي مكانـي أنظـر لأبـي المخـدوع بفمـه الفاغـر وعينيـه الجاحظتيـن ويـده المسـتلقية بموضـع قلبـه.

سقط أبي, وسقطت فوق جثته أجزاء مني ماتت بموته، الملجأ والأمان.

تجمّد كل شيء حولي وتوقف الزمن معلناً الحداد..

دقيقة صمت؟ دقيقتان؟ دهور؟ لا أدري. لكن ما أدريه هو أني كنت محتاجة أن أقول له:

بغطاء من سأخفي وجهي بعد اليوم خوفاً من شياطين أمي، من سيحميني بعد الآن؟

كنت أريد أن أقول له أيضاً:

أبي لا تمت، أفقْ من أجلي فأنا ما زلت صغيرة جداً على الحزن والفقد وبعيدة جداً عن تصديق معنى الرحيل..

لا تمت، قدِّم ورقة تأجيل للموت ريثما أكبر قليلاً فأنا ليس بوسعي مجابهة أمي ولا أقوى على صد ضرباتها المؤلمة على جسدي البض.

كنت محتاجة أن أهزه بعنف، لكنني تراجعت حين قرأت كلاماً مخبوءاً في عينيه الشاخصتين بالسقف.

كلام لن يفهمه سوانا.. أنا وهو.. كلام يحرق وتحترق معه كل المشاعر المتمردة على الموت.. قرأت في عينيه ما عجز عن البوح به وكأني بي أسمعه يقول:

**الآن سقطت مقاومتي صريعة.. انتهت.. قلبي لم يعد قادراً على مداراة الذلّ ولا على مواجهة الفقر ولا على انكساراتي ولا انكماشي على نفسي كثوب رديء رماه أصحابه على قارعة الطريق.. سقطت مقاومتي وانتهت مهمة الحياة من العبث بي وسخرية الناس مني.. أنا لست جباناً، لكني لم أجرؤ على فك أغلال قيودي التي منعتني عن أذى الآخرين، ولم أجرؤ على فك**

**أغلال فمي حين رفضت أن أكون مرتشياً ومحتالاً، ليهرب كل ما يسكن بداخلي ممن يسخرون مني.. وبقيت هارباً.. أنا لم أكن جباناً بل ضعفت أمام قوة حبي لأمك التي توهمت هي الأخرى أن ضعفي أمام حبها جبن.**

انتهت رحلة مقاومتي وأنا أجرّ ذيول خيباتي وعجزي حين لم أستطع تقديم ما حلمت به.. العجز مؤلم يا ابنتي لا يشعر بهِ إلا صاحبه.

لقد سقطتْ مقاومتي وسقط قناع ابتساماتي التي استخدمتها لاصقاً فوق كل جرح.. ابتسامات كانت دموعاً تماسكت وابتلعتها علقماً مرًّا إلى قاع القلب.

لطالما تخيلتُ يا ابنتي هذا البيت يسكنه الفرح ولكن ماذا تفيد الصلاة مع الجنابة! لقد رفضتْ أمّك الحب وفضّلت المال على الرجولة وعلى الحب واعتبرتهم أعداءً لأنوثتها إذ تراهم على شكل جيوب فارغة.

ما الفائدة يا ابنتي من العشق، حين يتحول الرجل في نظر المرأة إلى دفتر شيكات ينتهي معه الحب مع سحب آخر رصيد معلناً إفلاسه.

ولماذا أقبل أن أتحول إلى محتال ولص لأرضيها.. وقد رأيت من سقطوا صرعى لمجرد غلطة.

أنا لم أكن ضعيفاً بل آثرت الصمت دائماً حين وجدت أن الخيانة تحل محل الأمانة، والعهر مكان الشرف، والخبث مكان البراءة.. وأنا! من أنا؟

أنا مجرد رقم في هذه البلد يشطبونه بعلامة إكس حين تنتهي مهمتي بالعيش.

لقد سقطت مقاومتي بعدما أنهكتني مبادئي ومثلي العليا، ورفضت أن أكون مسعوراً يلهث وراء مكاسبه.. ومن هنا كان مقتلي، فإما أن أبيع نفسي لأشتري قلب امرأة أحببتها.. أو أن أمضي باقي عمري راقصاً فوق

حبال صبر لأعيش حياة تؤرجحني بتجاربها يمنة ويسرة إلى أن أسقطتني اليوم صريعاً منهية مأساتي من شمِّ عطر أمك وأنفاسها الذي امتص رحيقهم رجل آخر غيري.. رجل لن يعي بأنها لن تكون عاشقة له وبأنه أهان نفسه حين رضي بأن يكون رسولاً لغريزتها وجشعها... لقد سقطت مقاومتي اليوم.

صحوت من صدمتي على صفعة من يد أمي.. لا أذكر بأني بكيت يومها أو صرخت لكن ما أذكره جيداً هو أنني اختبأت داخل خزانة الثياب. لم الخزانة؟؟ لا أدري.

مرّت أيام العزاء بأبي الذي صدق الجميع أنه توفي بسكتة قلبية.. نعم توفي بالسكتة القلبية، وتقرير المشفى لم يكن مزوراً، لكنهم لم يعرفوا بأن من قتله هي أمي وعشيقها الذي ذبح أبي من غير سكين، وتستّرت أمي على جريمته واشتريا صمتي، وأمسكت أمي بالعدة الشرعية أربعة أشهر وعشرة أيام، لكنها لم تقصر بالخروج ليلاً مرخيةً عن وجهها مرتدية قفازات كي لا يلامس جلدها أصابع سائق التاكسي ومدونة عنوان مهيوب على ورقة كي لا تضطر للكلام مع أجنبي غريب عنها! ربما لو سألتها لأجابت بأن الضرورات تبيح المحظورات!!!

انتهت العدة وانتهى الزمن المخصص للحزن بالنسبة لأمي، فأمي تعمل على توقيت مشاعرها بحسب ما تقتضي حاجتها إليه، وهي ترى الآن بأنه الوقت المناسب كي تفي بوعدها لي، لكن بدلاً من الذهاب إلى مدام فيوليت طلبت من مهيوب تسجيلي بأفضل المعاهد وأن يشتري لنا صالوناً تشرف هي عليه ريثما أتخرّج، وأصبحت أنا نقطة ابتزازها له وصارت مهمتها سهلةً أكثر من ذي قبل، فقبل موت والدي كانت ترضى بأي شيءٍ يقدمه لها كما يحب هو.. وبموت أبي أصبحت تطلب ما تريد هي الحصول عليه بحجة تخويفه مني، فأنا طفلة وربما أقدمت على فضحهما حين لا يعملان على تأمين ما أريد.. وهكذا بدأت ابتزازها له من خلالي.

# الفصل الثالث

هناك شياطين
تكنس الحارات
للبحث عن تفاصيل
رمتها الناس..

الاعتقال نفسه لا يخيف.. ما يخيف هو لحظات ما قبل الاعتقال، واستجواب الضابط يشبه طعنة سكين تخترق الجسد ليتخدر بعدها كل شيء.

بذات التوقيت وذات الضجر، وبوجه خالٍ من الأصبغة والأقنعة أمشي مرتدية سأمي الملائم تماماً بتفصيله لما أعيشه.

الطريق ذاته.. ولكن مع اختلاف قليل بعدد الخطوات بحسب حالتي المزاجية.

**لا علاقة حب.. لا صداقات.. لقد كانت تلك الأشياء في حياتي تشبه وميض ضوء سرعان ما يختفي كابتسامة شيخ وضعه أبناؤه في دار للمسنين.**

من بعيد وقبل أن أقترب من الشارع المؤدي إلى بيتي سمعت أصواتاً تهتف.. (حرية.. حرية..) أصوات تصيح بصوت واحد.. نساء ورجال.. فتيات وشبان.. مؤلفين جوقة، والساحة أوركسترا قائدها مجنون.

اقتربت أكثر.. والحقيقة لست أنا من اقتربت.. هل هو فضولي أم تطفلي.. لا فرق.

**اقتربت أكثر.. المشهد بارع والصورة بغضبها تستحق أن تكون لوحة عالمية، ولكن في متحف مهجور سرق الحارس مفاتيحه وهرب.**

أعناق مشرئبة.. عروقها تنبض مع كل لحظة غضب مستنكرة كل شيء.

حاولت أن أسكتهم.. لكن ماذا يعني صوتي بين آلاف الأصوات المنبعثة من حناجر بقيت مكبوتة مائة عام.

أدور في المكان.. أ نظر إليهم.. تستجديهم عيوني.. لكن ما الفائدة من التغزل بعيون قلب أعمى.

حاولت أن أصرخ.

وهل ينادي بالحرية سوى العبيد؟

أدور بينهم كالبلهاء.. وقد تحول كل جزء مني إلى خوف وحذر وربما جبن.. بالتأكيد جبن.

حاولت أن أصرخ.

**كلنا كنا عبيداً.. وسنتحول إلى عبيد للحرية نفسها بعد وقت ليس بالطويل.**

**نزعق على المنابر (حرية.. حرية..) ونغتالها بكل دم بارد.. الألاعيب السياسية حولكم تُمارس ببراعة وحنكة وأنتم غافلون.. وسيستلم أوراق الوطن الثبوتية من يربح بتحويل هذا الوطن إلى مقابر جماعية..**

اعترفوا بهزائمكم وخساراتكم أولاً فالاعتراف فن يتقنه كل من أدرك أنه قادر على تلافي أخطاء الماضي برسم المستقبل بعيداً عن كل التشنجات.

**ارفعوا صوت صرير أقلامكم!** فأصواتكم بالنسبة إليهم أصوات نشاز تزعج مضجع الحاكم.. أصواتكم لا فائدة منها بوجود أصوات تؤذيكم من أبناء جلدتكم وتقارير يرفعونها في هذه اللحظة إلى أفرع المخابرات.. أنا أراهم الآن لكنكم لا ترونهم.

**تريثوا قليلاً كي لا تصبحوا ظاهرة صوتية يسخر منها العالم.. امضوا بأسلوب علمي تخلعون فيه أرديتكم البالية.. فالانتصار على النفس هو الانتصار الحقيقي.**

**حرية..!!!!!**

وهل تعتقدون بأنهم سيسمحون لتلك الكلمة بالمعنى الحرفي لها بالمرور أمام الحواجز دون أن يطلقوا الرصاص على حرف منها لتصبح حربة تخترق صدوركم فتموتون أنتم لتحيا الحربة؟

الحرية بالنسبة لكم هي الانتصار.. وبالنسبة لهم هي امرأة نزعت أقنعتهم ليحكموا عليها بالشنق في الساحات العامة وعلى الأرصفة وفي الطرقات بل وحتى في البيوت.

كل تلك الأصوات الصادرة من قلوبكم وحناجركم مجرد اهتزازات في المكان.. دون حركة.

ما هكذا تورد الإبل!

**حرية!!! حرية!! من ماذا؟ وكيف؟ كيف وأنتم لم تقوموا بإسقاط وهدم جدران الجهل والبؤس؟**

الحرية ليست آنية سقطت وتحطمت لتركضوا وتلملموا بعثرتها معتقدين بأنكم أعدتموها سليمة معافاة.

للحرية مواد أولية تصنع منها لكنها أُغفلت عنكم حين لم تعرفوا ما

معنى التنظيم وانتظار كل منكم دوره أمام مواقف الحافلات وأمام أفران الخبز، وأمام دور السينما والمسرح حتى.

قبل إسقاط النظام كان يجب عليكم إسقاط الفساد القضائي الذي ينبثق عنه كل أنواع الفساد.

لقد انتعشت الدعارة بين بيوتكم حين لم تتجرأوا على التفوه أو الشكوى، لأن كل بيت كان محمياً من فرع أمن مختلف.

أحرقوا بأقلامكم حظائر الشهوات في الحدائق الموزعة في زواياها كل أنواع البهيمية الحيوانية.. بل حتى أن بعض الحيوانات تخجل من ممارسة الجنس أمام أقرانها وتبتعد عن أعينهم بخجلٍ غريزي.

**اهدموا الأصنام قبل تعميرها! فما رفعها سوى تصفيقكم وتشجيعكم ومحاباتكم.. بدلاً من لعنها حين أصبحت محمية لا يقدر أحد على الاقتراب من وحوشها الكاسرة.**

قاطعوا كل تاجر تصدرت واجهة متجره صورة الرمز وفي أسفلها صور آيات قرآنية.. فالنجاسة والطهارة لا يجتمعان في مكان واحد.

حاربوا البقّال الذي يدير لكم ظهره ويتلاعب بالوزن وأنتم صامتون تغضّون أعينكم عنه وتحولونها إلى دفتر الديون.

البقّال هو نفسه الذي يتباكى كالتماسيح في خطبة الجمعة حين يتحدث الخطيب عن الغش (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) الفرق بينكم وبينه هو أنه أتى المسجد ليتمسح بتاجر أكبر منه لن يراه إلا في صلاة الجمعة وأما أنتم فقد ذهبتم لتدعوا الله بأن يخلصكم من ديونكم المسجلة في دفتره.

لماذا قبلتم كل تلك السنين بانتهاجكم أخلاقاً اجتماعية ألزموكم بها

وأنتم لستم أصحابها.. ولو التزمتم احترام قوانين الحياة لكانت ستكافئكم هي الأخرى بإسقاط أحزانكم وخيباتكم بالتقادم ودونما فوضى تذكر.

كلام كثير جداً كنت أودّ أن أقوله وأصرّح به.. لكني صحوتُ على صفعة من أحد الجنود الذين قبضوا على بعض المتظاهرين بينما استعان آخرون بالهرب.

٤

# الفصل الرابع

الضمير ليس سهماً
يرتفع ويهبط على
حسب مناخ سوق
البورصة السياسي..

أصوات التعذيب الصادرة من غرف المساجين بفرع التحقيق في الممرّ نفسه أمام الزنزانة الفردية لمهجة تشعرها باغتصاب الروح بألمٍ كاوٍ يحرق صفحات أعماقها صفحة تلوَ الأخرى.. صفحات سُجّلت فيها محاضر عن الحلم والأمل والمستقبل المشرق، ورسمت بداخلها خريطة بلدٍ جميل تمر به السواقي والأنهار، صفحات تخرج منها روائح النرجيلة والقهوة والتوابل والياسمين المخضب بالحناء المرسوم على أكف الجدّات، صفحات تحترق أمام عينيها دون أن تملك أية قدرة على إطفائها أو الصراخ أو حتى الاستنكار.. صراخ التعذيب يُضرم النار في عتمة زنزانتها مستبدلاً الصمت بدويٍّ نار أحرقت غابة أقسمت على ألا تشبع إلا بالتهام آخر شجرة خضراء.. تأتيها أصواتهم كعويل جريحٍ في كهف مسكون بالأشباح يفزعها كلما علت أصوات نحيبهم.

ما هذه القدرة على تحمل كل هذا العذاب في زنازين فردية لا يتعدى طول الواحدة منها المترين وعرضها المتر الواحد.. ما هذا التجبر على قوة الموت ومجابهته رغم كل ذلك الألم! أهو التشبث بالحياة أم تحديها؟

لم يعد الموت يخيفها.. بل الحياة المشروخة كزجاج فيه نتوءات هي التي تجرحها كلما حاولت لمسها.

لم تكن وحدها في زنزانتها الفردية، فجميع أصدقائها وهم مجموعة من الحيوانات اختارتهم لتلهو معهم في عقلها يبددون وحشتها.. يلقون النكات بتظارف والحكايات التي اعتادت عليها كلما اجتمعوا معاً.. يهمسون في أذنها بأن كل شيءٍ سيكون على ما يرام.. لقد أخذت وعداً منهم بحمايتها على أكمل وجه وما عليها إلا أن تصبر قليلاً وتتماسك، فالاستسلام للخوف في موقفٍ كهذا لن ينجيها بل سيجعل منها فتاة محطمة لن تقدر على عمل أي شيء.. همست نعجتها في أذنها:

- ارمِ استسلامَكِ للخوف.. وإلا كان مصيرُكِ كمصيري مجرد وليمة شواء لذيذة ستُقدم على مائدة الأقوياء ينهشونك بعد اجترارك العشب في مزارعهم، وبعد الانتهاء من التهامك، سيقدمونك عظاماً شهية لكلابهم المدللة.

أكملت الحديث صديقتها الأفعى فاحةً في أذنها:

- كلام النعجة صحيح.. وسكوتك نتيجة الخوف لن يمنحَك القدرة على الدفاع عن نفسك.. وسيجعل نصيبك أيضاً كنصيبي حين يصطادونني على غفلةٍ مني لأنتهي حذاء يزين أقدام نسائهم وحقائب يفاخرن بها.

**- لكن من أين آتي بالقوة وأنا التي اخترت صنع عالمٍ خاصٍ بي ضمن شاشةٍ زرقاء صنعتُ فيها تفاصيل حياتي، تفاصيل لا يهمّني فيها كثيراً معرفة أسماء أصحابها أو صورهم الحقيقية.. لم يهمّني في العالم الافتراضي حقيقة الأشخاص عن كثب.. طالما أني اخترت مؤناً لكلمات تحميني من صقيع أيام ترتجف بها شرايين نبض نازف لا يوقفه إلا دردشة ورسائل نصية.**

الإحساس بالفراغ كثيراً ما يوّلد الأذى في النفس.. ويرمي بها لمنزلقات غير محمودة العواقب.. وأنا لا أراها إلا من خلال زاوية ضيقة لا يسعني بها إلا الحصول على ما يسد ذلك الفراغ، كمن يختصر رؤية السماء من خرم إبرة.

أجمل ما في هذا العالم الوهمي هو قدرتي على إنهاء صلاحية جلساته بمجرد كبسة زر.

**لكن من منا قادر على مسح ذاكرة بلد كان جميلاً، وأية قوة تلك القادرة على محوه من أدمغتنا؟ وأي وجع يعترينا حين لم يعد منه إلا محرك بحث نكتب فيه (دمشق)؟ ليجيب «هل تقصد العشق!».**

لم يكن لدي أصدقاءٌ مقرّبون في الجامعة رغم بلوغي السنة الثانية قسم الأدب الفرنسي، فشعوري بذلك الحاجز اللامرئي بيني وبين التواصل مع الآخرين هو ما كان يمنعني من العبور لداخلهم ولا يسمح لهم بالتقدم نحوي.

إنها حدود شائكة أراهم من خلالها بطريقةٍ مغايرة لما يراها غيري.. جسور التواصل مقطوعة بأوامر آتية من قاعي، نتيجة معاناتي من الحاسة التي تتقمصني لدرجة أنني قادرة على رؤية ما يحصل خلف الجدران؛ لذا كنت نذير شؤمٍ لعائلتي، فكثيراً ما فاجأتهم بموتٍ مرتقب لأحد المقربين أو بمصيبة ستلمّ بأحد معارفنا أو إخفاقاتٍ تجارية لوالدي.. نادراً ما كنت أنشر أخباراً مفرحة أو نجاحات متوقعة؛ لذا تجنبتني عائلتي ومنعتني من قول أي شيءٍ متوقع تفادياً لانكسارات أكبر وكأنني أنا القدر الذي آمر بما سيحصل.

استبدلتُ عائلتي بعائلةٍ اخترتها لنفسي أقضي أكثر وقتي معهم في غرفتي.. أشخاص غير مرئيين أستحضرهم بمخيلتي وكأنهم موجودون

بالفعل، وأطلقت عليهم أسماءً جميلة، أسمع أصواتهم وأحدثهم ويحدثونني.

أول مرة شعرت بهذه الحاسة حين كنت أجهز لامتحان الشهادة الإعدادية فغفوتُ على الكرسي للحظات، وإذ بامرأةٍ تقدّمت نحوي وناولتني أسئلة الفحص قائلة لي:

- احفظيهم جيداً ودونيهم فور استيقاظك كي لا تنسي.

صحوت على صوت إغلاق باب غرفتي.. خرجت للصالة لكني لم أجد أحداً، فالساعة تشير إلى الثالثة والربع صباحاً، وفي قاعة الامتحان صرخت على غير وعيٍ مني: يا إلهي! هي ذاتها! ما أثار دهشة الطلاب والمشرفة لتصرفي، ثم انصرفت لنفسي وبدأت أكتب.

عرضني أهلي على أطباء نفسيين لمعرفة السبب، بدءاً من معرفة ما سيحصل مستقبلاً وانتهاءً بمن أحدثهم في غرفتي، وأزمع أكثر الأطباء بعد عدة جلسات بأن حالتي لا تستدعي القلق وأنهم يسمونها الحاسة السادسة وهي حالة لم يتوصل العلماء بعد لكشف غموضها، وأنها تحضر حين يكون صاحب الحالة في مزاجٍ جيد وغالباً ما تختفي حين يكون ذلك الشخص بحالة مزاجية سيئة.. كيف يجهل الطبيب أن يقول لهم بأن حواسي مُختصرة جميعها بأذني، وكأن بقية الحواس قد أصابها العطب، ومفعول الكلمة علي كمفعول السحر القادر على تحويلي بلحظة من أرنبٍ لنمر.. ومن أسدٍ لدودةِ أرض.

**كلمات.. فقط هي الكلمات التي كنت أصبو إليها، وليس لدي أي رغبةٍ سواها، فحين أفتح رسائل الفيسبوك أشعر بمطرٍ منهمرٍ لذيذٍ يغمرني.. يعمِّدُني بقداسة الأشياء التي طالما بحثت عنها ولم أجدها في جو عائلي فاتر وممل، لا يجتمع أصحابه إلا على مائدة**

**الطعـام.. وأنـا اختـرت العالـم الـذي أسـموه افتراضيـاً ليكـون وجبتـي المفضلـة.**

مـن قـال أنّـه عالـم وهمـي فقـد أخطـأ.. ربمـا كان كذلـك، لكنـه حقيقـي، فنحـن لا نتواصـل مـع رجـال فضـاء أو نسـاء جئـنَ مـن عالـمٍ مجهـول.. إنـه عالـم حقيقـي لفتاةٍ مثلـي ممنوعٌ عليها بثّ ألـم يحكـي عـن عـدم اهتمـام أحـد بهـا.. فتـاة ممنـوع عليهـا بـث حزنهـا ووحدتهـا تحـت شـعار (لا شـيء ينقصـك!).. لـذا اختزلـت ذلـك الحـزن والوحـدة والحاجـة لأحـاديث خـارج إطـار مائـدة الطعـام التـي ينْفـضُّ أصحابهـا كلٌ إلـى عملـه حيـن ينتهـي مـن تنـاول وجبتـه، ويعـود بعدهـا السـكون والصمـت يسـيطران ببشـاعتهما علـى أجـواء البيـت كغيمـةٍ سـوداء كئيبـة.. اختزلـتُ آلامـي ووضعتُهـا بيـن يـدي ذلـك العالـم الأزرق الـذي وجـدت بـه مـا ضـاع منـي.

تنهـدت متسـائلة بمـرارة: مـن يفسـر لـي لمـاذا أحضرونـي إلـى هنـا ومـا الذنـب الـذي اقترفتـه؟ ربمـا لـو عرفـت السـبب لخفّـفَ عنّـي جـزءاً مـن هـذا الخـوف الخائـف هـو نفسـه مـن تكـرار السـؤال ذاتـه لمـاذا أنـا هنـا؟!

تكومَـت كالحلـزون عندمـا سـمعت صريـر نافـذة بـاب السـجن تُفتـح وصـوت الحـارس صارخـاً فـي وجههـا:

هـل جننـتِ؟؟ هـل بـدأتِ تكلميـن الحيطـان؟ اخرسـي وإلا قطعـت لسـانك! كفـى إزعاجـاً!!!

إزعـاج؟ قالـت فـي نفسـها.. إزعـاجٌ لمـن؟ لـك، أم لأولئـك الرجـال المنتحبيـن، الهاويـة علـى أجسـادهم سـياط جلاديهـم؟ ضحـك أصدقاؤهـا همسـاً وهـم يـرددون سـاخرين: إزعـاج!!!

اسـتبدل أصدقاؤهـا ضحكاتهـم بدمـوعٍ صامتـة حيـن سـمعوا صـوت قلبهـا، ثـم عانقوهـا ونامـوا وبقيـت مسـتيقظةً عاجـزةً عـن صـم أذنيهـا عـن أصـوات

صراخ الرجال.. ولم تنجح مهمتها بإغلاق منخريها المتسللة إلى فتحتيهما رائحة الدماء وزنخه.. تحوّل صوتها لأنين مكتوم يرتجف مع آخر نفس لكل شاب يصرخ صراخاً كالعواء يتحول لما يشبه مواء قططٍ تصرخ حين يدهسُ أحدهم على أذيالها ثم يتلاشى ذلك الصوت مدركةً بأنها الصرخة الأخيرة.

# الفصل الخامس

القواقع البحرية
أشخاص أخذهم
البحر ليتسلى بهم..
ثم لفظهم على
الشاطئ حين سئم
منهم..

وصلت سيرين إلى مطار بيروت، دخلت الصالة مرتبكة فهذه المرة الأولى التي تشاهد بها مطاراً، بل لم تفكر ذات يوم أن تسافر.. نعم هي حلمت بزيارة الكثير من المدن في الطرف الآخر من العالم، لكنها كانت مجرد أحلام غير قابلة للتحقيق، إذ أن ما ادخرته من عملها كمحاسبة في دائرة حكومية صُرف لعلاج والدتها وللبيت الذي قامت بالحصول عليه من جمعيةٍ تابعة للقطاع الحكومي.. البيت الذي طالما حلمت بأن يكون مملكتها الصغيرة التي تستقر بها مع زوجٍ تحبه، فاستقر به صاروخ قضى عليه وجعله ركاماً كما أحلامها التي أصبحت ركاماً بموت أمها التي كانت دنياها كلها، ثم جاء موت طفلها وزوجها بعد موت أمها ليكملَ الحزن دورته الكاملة في فصول حياتها.

تلفتت بعينين تتوجسان كل شيء.. تبحث عن أحد ما ليساعدها بما يجب عليها عمله، تخطو باتجاه شابٍ كان يبدو عليه الارتياح بعكسها تماماً وتسأله عما يمكنها عمله، يجيبها بكل لطف أن ترافقه خطوةً بخطوة راجياً منها أن تهدأ بعدما لاحظ ارتباكها.. بادرها بسؤال:

- أين تتجهين؟

- تركيا ومن هناك إلى...

قاطعها قائلاً:

- الحدود البحرية؟

- أجل.. قالوا لي أني سأبقى يومين على الأقل ريثما يتم نقل اللاجئين إلى البحر.

- طريقنا واحد إذن، أين حقائبكِ؟

- لا أحمل سوى حقيبة ظهري.

- حسناً، هيا بنا.

شعرت براحة كبيرة، جميل أن يختارَ لك القدر أشخاصاً يساعدونك كلما لزم الأمر.. ولكن هل للقدر دائماً مزاجٌ صافٍ ليساعدنا كلما احتجنا لذلك؟

صعدت إلى الطائرة بمساعدة ذلك الشاب الذي نسيت أن تسأله عن اسمه.

ارتعد جسدها من صوت هدير الطائرة التي أقلعت قبل قليل، بعد أن طلبت المضيفة من الركاب الالتزام بأماكنهم وربط أحزمة الأمان، وكم حسدت الراكب الجالس أمامها الذي استطاع أن يرجع كرسيه بخفة، وغط فوراً بنومٍ عميق! خجلت من السؤال عن كيفية إرجاع الكرسي كي يتسنى لها هي الأخرى الاستلقاء مثلما فعل.. سخرت من جهلها بهكذا أمور والتي تعتبر من البديهيات، ولكن ليس لمن لم يروا الطائرة إلا في الجو عندما كانت تذهب برفقة أمها والجيران للتنزه على طريق مطار دمشق.. على كل حالٍ لا يهم، فظهرها لطالما حمل أعباءً لا يقدر الجبل

علـى حملهـا.. أغمضـت عينيهـا منزعجـة مـن الضغـط الـذي خلفـه إقـلاع الطائـرة داخـل أذنيهـا، لكنـه ليـس بحجـم الضغـط النفسـي والذعـر الـذي كانـت تخلفـه القذائـف عنـد سـقوطها وهـي مختبئـة مـع البقيـة المتكوريـن علـى أنفسـهم كأجنـةٍ كلمـا سـقطت قذيفـة بالقرب مـن ملجـأ مذعـور كذعـر أطفـالٍ يحتمـون فـي أحضـان أمهاتهـم، عاجزيـن حتـى عـن إصـدار صـوت بـكاء، وكأن الغريـزة التـي سـكنت الكهـوف قـد عـادت اليـوم حيـن كان الأب والأم يكمّمـون أفـواه أطفالهـم عندمـا يحاولـون البـكاء خوفـاً مـن تنبـه الوحـوش، أم تراهـم أصبحـوا مدركيـن أن صراخَهـم وبكائَهـم بـات أضعـف مـن أي تعبيـر أمـام هـول مـا يشـعرون بـه داخلهـم.. مكتفيـن باللجـوء لأحضـان أمهاتهـم وكأنهـن حبائـل خـلاص وجـدران مبكـى لدمـوعٍ تُـذرف داخـل قلـوبٍ تكتـم ألمـاً ووجـع اغتصـاب روح.

ترتسـم أمـام سـيرين صـورة جيرانهـا فـي القبـو ومشـاجراتهم.. كان الجميـع يخلعـون أقنعتهـم تحـت وطـأة الخـوف.. يتحولـون لحالـةٍ مـن الصـدق اللامتناهـي، وكأن القلـق والتوتـر يصبحـان سـيّدا الموقـف أمـام مـوت محتمـل.. تغمـض عينيهـا مسـتعيدة تلـك الأحـداث، والتـي توهمـت أنهـا سـتتركها هنـاك فـي الملجـأ حيـن تقلـع بهـا الطائـرة.. يـا للذاكـرة اللعينـة التـي ترفـض مغادرتنـا علـى الرغـم مـن ارتفاعهـا ٣٨ ألـف قـدم كمـا أذاع الكابتـن منـذ قليـل.

تتقدم المضيفة بلطـف يبعـث علـى الراحـة والاطمئنان.. راحة لم أتلمسـها لا فـي قلبـي ولا فـي وجـوه مـن عرفتهـم منذ أن بدأت تلك الحـرب اللعينة.. ناولتنـي صينيـة الطعـام لكننـي اعتـذرت عـن قبولهـا فأنـا متخمـةٌ بالوجـع والحـزن والقهـر ولا شـهية لـي إلا اسـتعادة أصـوات مـن رحلـوا.

الملجـأ.. ذلـك العالـم المصغّـر الـذي يكشـف حقيقتنـا حينمـا يجتمـع الهاربـون مـن المـوت والقذائـف.

سبحة الشيخ سعيد هي أكثر ما كان يوترني ويضرب على وتر أعصابي.. يبالغ ذلك الرجل بكل شيء حتى أنه ليكاد يفقدك صبرَك وتتمنى الموت بصاروخ على أن تجالسَه، يصرخ ويرتعد كلما انفجر صاروخ ناظراً إلى شعري محتقراً وغير مهتم بأني لم تسنح لي الفرصة بالدخول لغرفتي لجلب غطاء رأسي نتيجة ذعري.. ولا يتردد عن التحذير من نار جهنم والوعيد بها معتبراً نفسه الناطق الرسمي باسم الله، مؤججاً بكلامه استفزاز الجالسين الذين هم أصلاً مستعدون للانفجار في أية لحظةٍ كقنبلة موقوتة.. هذا الأمر لم يستمر طويلاً فصراخ جارنا أبو صالح في وجهه جعله يكف عن ثرثرته ولو استمر لحَلَّت به مصائب لا تُحمد عقباها.. لم يكمل أبو صالح كلامه حتى سمعنا دوي انفجار رهيب.. شعرنا من خلاله أنه من المستحيل أن نخرجَ سالمين.

مرت لحظات صمتٍ رهيبة قبل أن يعود الشيخ سعيد لثرثرته المعهودة.. موجهاً كلامه إلي بغضبٍ أخرج معه خوفه وجبنه وتوتره.. قائلاً بصوت مرتجف:

- ربنا لا تحاسبنا بما فعل السفهاء منا.. ربنا أنزل علينا رحمةً من عندك تقينا شر هؤلاء النسوة اللواتي ما إن وجدن الفرصة المناسبة حتى خلعن ما يسترهن وما يغضبك يا الله.

أجبته بهدوءٍ متعمدة استفزازه:

- أراك يا شيخي تطيل النظر إلى شعري بحجة محاسبتي وكأنك تمنيتَ رؤيتَه منذ زمن، والآن قد حانت الفرصة المناسبة لك!!

صرخ أبو صالح في وجهه وبيده طفله الصغير:

- ما لك ولها؟ ألم تسمع بقوله تعالى.: «إلا من أتى الله بقلب سليم».. إن الله يأخذ بأفعالنا وما تعتريه قلوبنا لا بكلماتنا وأشكالنا ومذاهبنا.

أجابه الشيخ سعيد بعدما أخذ كفايته من التوتر:

- أمثالكم هم من أوصلونا إلى هنا.. ابتعادكم عن الله وشريعته هو السبب، عدم اتباعكم ديننا الحنيف أوجد هذا الكفر والضلال.

ثم أشار بيده المرتجفة نحوي صارخاً:

- هذه الفاجرة التي تدافع عنها كان الأجدر بها أن تُقتلَ في بيتها على أن تخرجَ منه بغير حجاب!!

اقترب منه أبو صالح والشرر يتطاير من عينيه، وبصوت متهدج صرخ:

- تقول عنها فاجرة وكان يجب أن تُقتل على الخروج من بيتها سافرة؟ أعطني الضمان على عدم موتها لو أنها تأخرت بالدخول لغرفتها وسبقتها القذيفة وقتلتها واستباحت جسدها ورآها الغرباء وهي عارية مثلاً؟

ناول أبو صالح ابنه لزوجته وأردف قائلاً:

**- أين كان أمثالك حين تحولت البلد إلى بلد سياحة جنسية؟ أين كنت أنت وأمثالك حين عملوا على تنظيم المناطق وتحويلها لأوكار دعارة؟ ألم تكن تعلم ومن هم مثلك بأن تلك المناطق تتم برعايتهم.. وانضباطها يعني أن تبقى تحت سيطرتهم؟ أم كنتم تسعون للتقرب والتمسح بالأسياد من أجل منفعتكم وتسلقكم للحصول على مراتب دينية تؤهلكم لعقد صفقات بحجة بناء بيوت للمساكين وموافقات بالسماح لجمعيات خيرية لم يحصل الفقراء منها على شيء باستثناء معارفكم ومن لكم معهم منفعة.**

**ماذا كان دوركم؟ دور الناطق بالحوقلة أم تمجيد الحاكم في**

**المساجد والزعيق والصراخ أم بالاعتماد على الملائكة الباسطة أجنحتها على دمشق حين يداهمها الخطر.**

ثم سمعت ضحكات الجميع تملأ المكان حين قال له أبو صالح:

- شيخي ....... المؤمن لا يخاف، لذا دعك من هذا الهراء ووفر إيمانك واضمن حماية نفسك بصلاتِك ودعائِك في بيتك بدلاً من تواجودك هنا.. فلقد مضى توقيت صلاتين وأنت تنقض وضوءك مع كل قذيفة.

٦

# الفصل السادس

لا تضرم النار
بأوراقك بحجة أنها
لم تعد مفيدة..
فأغلب الوثائق
التاريخية نسي
أصحابها إحراقها...

مهيوب رجل ينظر لكل شيء بعين الحقد رغم كل ما وصل إليه من مالٍ وشهرة، إلا أنه عجز عن التوصل للتفاهم مع الرضا بأي شيء.. وكأن بينه وبين التسامح سوء فهم بدأ منذ أن ترك قريته في الجبال البعيدة وجاء إلى دمشق فيما بعد.. دمشق التي طالما أفزعته، فقد كان والده ووالدته وهو معهم يخدمون الباشا الدمشقي وعائلته في بيته الصيفي ومزرعته المطلة على الغابات والبحر.. الباشا الذي رآه مهيوب مع أمه ذات مرة في الإسطبل يتمرغان فوق التبن، وبعد أن انتهى منها رمى لها بقروشٍ حديدية راحت تبحث عنها زاحفة على ركبتيها وكانت ما تزال عارية وسط قهقهاته واشمئزازه.

كان مهيوب قصير القامة قياساً بالأطفال الذين هم في مثل عمره ولهذا السبب ربما لم يلحظ الباشا وجوده قرب باب الاسطبل خلف العلف حين استدار وهو يربط حزام بنطاله قائلاً لها:

أرسلي لي غداً شقيقتكِ الوسطى ولا تعودي إلى هنا، وسيصلكِ راتبكِ

معها كل شهر.. ثم بصق على الأرض وخرج دون أن تُبدي أم مهيوب أي انفعال ما عدا غبطتها وهي تحصي النقود قبل أن تضعهم في صدارتها.

غرق مهيوب بالحديث مع العراف الذي لا يفارقه.. أما الآخرون الموجودون فهم متقاعدون وأثرياء ورجال أعمال ومهربو مخدرات ومهربو أسلحة، يحملون ألقاباً درجت في خضم الأحداث الراهنة مثل حوت الصناعة وقرش مزارع الأسماك وسيد المنسوجات وملك القطن.

وكان من ضرورة الوجاهة استدعاء أصحاب الأقلام المأجورة لضرورة الشعر والتغني بالبطولات الوهمية.. فالسيطرة على الإعلام يعني نشر أفكاره وغاياته ومخططاته.. وبشراء هؤلاء يكون قد اختصر الكثير من الكلام ووفر على نفسه عناء الكتابة مكتفياً بلقب دكتور اكتسبه بشهادة دكتوراه بالعلوم الإنسانية..!! اشتراها من إحدى بلدان أوروبا الشرقية.

أصحاب الأقلام المأجورة الموجودون في الحفل أضفوا أجواءً من الثقافة التي لا تعني لأحدٍ من الحاضرين شيئاً والمسببة لهم بالملل والتثاؤب منتظرين بحماس إطلاق سراحهم من قفص التمجيد التافه والكلمات الافتتاحية السخيفة التي لا بد منها كمقدمة يُعرِّف بها الصحفي أو الكاتب عن نفسه، ومع انتهاء وصلة الشعر الممل بدأت وصلة الرقص الشرقي التي أيقظت الحاضرين من سأمهم برعاية خصر سوسو وفتنتها الذي أشعل الصالة حرارةً وانتعاشاً سُكبَ بسخاء من غنجها فوق تجاعيد قلوب الحاضرين العجائز.

انسحب الصحفيون برؤوسهم المطأطئة كما دخلوا كي يؤلفوا مادة الغد وينشروها في الصحف الرسمية وعلى الصفحات الأولى عن الماريشال الذي لا ينام حتى يتفقدَ رعيته ويطمئن على أحوال الوطن والمواطن.. خرجوا دون أن يلاحظ أحد، فالجميع مشدوهون بالجسد الذي يتلوى بأفعوانية على (البيست).

ولسرد حكاية مهيوب وتأسيس مملكته قصة عجيبة بدأت حين جاء مقاول اسمه جميل تربطه صداقة متينة مع الباشا.. جميل دائم التردد على تلك القرية حيث كان يشتري منها الأخشاب المعدة للبناء إلا أن تلك الزيارة قلبت حياة مهيوب رأساً على عقب.

لم يتجاوز عمر مهيوب وقتها الثمانية أعوام حين شاهده المقاول السيد جميل صديق الباشا أول مرة يقفز على الشجر بمهارةٍ وخفة لا يملكهما إلا قرد.. فأعجب به وطلب من صديقه أن يتوسط لدى عائلة مهيوب ليأخذه، فالسيد جميل شده نشاط هذا الطفل وطاعته إلى أن تمت الصفقة ببيع الطفل وبموافقة عائلته بثمن بخس حسبوا لفقرهم أنه مبلغ ضخم.

كان الجميع يشهد للسيد جميل بأياديه البيضاء وأخلاقه، إلا أنه لم يُرزق بأطفال وقد كان باستطاعته تبني طفلٍ من الميتم غير أن الشيوخ نصحوه بطرد الفكرة من رأسه لحرمانيتها.!!!!!

خلال فترةٍ وجيزة أصبح مهيوب في منزل السيد جميل بعدما أبرم الاتفاق المنصوص عليه، وبوجود المختار وشاهدين أن يلتزم جميل بمبلغ حدده والد مهيوب، والذي اقترحت والدته بألا يسجل زوجها في العقد المبلغ الذي كان قد قبضه سلفاً.. وبأن يلتزم جميل براتبٍ شهري يُدفع لوالد مهيوب دون تأخير.

مرّت الأيام وبعدها الشهور وتلتها السنون، وحصل مهيوب على الشهادة الإعدادية التي اكتفى بها والده الجديد، فهو لم يكن ليطمح بأكثرَ من ذلك.. فما يعنيه هو أن يقرأ ويكتب ليتمكن من قراءة العقود والصفقات وما شابه، أما أمور التجارة والمحاسبة فقد برع فيها من خلال ملازمته للسيد جميل في شركة المقاولات والتي سجل نصفها باسم مهيوب فهو يستحق من وجهة نظر السيد جميل لأنه كان السبب في إدخال السعادة

إلى قلبه شاكراً ربه الذي أرسله إليه، فقد كان مهيوب ذكياً جداً ومطيعاً لدرجة أنهما لم يتشاجرا أبداً باستثناء مرةٍ واحدة رفض فيها مقابلة والديه وخرج من البيت غاضباً مما استدعى جميل أن يطلب منهما منزعجاً عدم العودة مرة أخرى بعدما قام بدس مبلغٍ كبير في يد والده البيولوجي.. وكانت تلك المرة الأخيرة التي شاهد فيها مهيوب عائلته.

مهيوب شكّل بالنسبة للسيد جميل عالماً من الأحلام التي طالما تمنّى تحقيقها من خلال طفلٍ يُولد من صلبه، لكنه رجلٌ مؤمن بالله وبالقدر حيث أغدق كل ما يملك من حنان ومال على مهيوب الذي لم يتوانَ عن خدمته يوماً ولم يعصِ له أمرا.. كان باختصار كتلة عُجنت بالعطف والحب والكرم واختمرت لتُنضج نموذجاً لوالدٍ حنون بالمعنى الحرفي للكلمة.. وكانا مضرب مثل لكل من يعرف قصتهم ومن لا يعرفها.

تقدمت السنون بالسيد جميل وقام بتكليف مهيوب باستلام جميع أعماله على أن يقوم هو بالإشراف العام.. وذات يوم اتصل بولده للقائه في إحدى العمارات العالية التي ما زالت قيد الإنشاء كي يتابعا سير العمل عن قُرب.. وعلى غير عادة مهيوب فقد أوقف سيارته بعيداً عن الموقع وأكمل طريقه سيراً على قدميه.. نادى مهيوب العمال فلم يسمع رداً.. فهذه فترة الظهيرة وقت انصراف العمال لاستراحة الغداء.

كانت فرحة السيد جميل كبيرة بالنتائج التي حققها مهيوب حين قال له وهو يضع يده على كتفه:

- لقد حقق الله لي آمالي بك.. وها أنت الآن قد كبُرت ولم يعد يصعب عليك شيء، وقد أديت مهمتي ووفيت.. بقي أن أرى لي حفيداً يحمل اسمي وأنا أرى أنه آن الآوان لاختيار زوجةٍ صالحةٍ تليق بك وبمركزك.

- أنا لا أفكر بالارتباط أو الزواج.

- ولكن يا بني الزواج استقرار، وإن لم يحصل اليوم فسيحصل غداً والتأخير ليس من صالحك.. أنت في سن يجعل منك أباً رائعاً فالزواج المتأخر سيفقدك معنى المتعة حين تتجاوز أجيالاً بينك وبين ابنك وستفقد التفاهم معه والذي سيكون أسهل لو تزوجت باكراً.

أجاب مهيوب بطريقة لا تخلو من السخرية ممزوجة بالوقاحة:

- وكيف علمت بذلك وأنت لم ترزق بأطفال؟

أثار جوابه غضب السيد جميل لكنه ابتلع بغصّة كلمات مهيوب قائلاً بهدوء:

- نعم أنا لم يرزقني الله بأطفال، وما الحكمة من ذلك لا أدري، فهناك دائماً أسباب لا نعلمها ومهما حاولنا لا نجد لها أي تفسير.. إلا أن السنين هي خلاصة تجارب، والذكي هو من يستفيد.

وقبل أن يتم كلامه قاطعه مهيوب بحنق:

- وأنت كنت ذكياً واشتريتني أليس كذلك؟

- ما هذا الذي تقوله هل حصل شيء لعقلك؟ وكيف تتجرأ على مخاطبتي بهذه الطريقة الوقحة؟

- وهل قول الحقيقة هو وقاحة بنظرك؟ هذه الحقيقة نعرفها جميعاً.

- لماذا أنت مصر إذن على فتح ملفات طواها النسيان؟

- لكن أنا لم أطوها ولا يمكنني نسيان من باعني ومن اشتراني أيضاً.. والآن جاء دور الحساب!!

- حساب.. حساب ماذا؟ وممن؟؟ مني أنا!! بعد كل ما فعلته من أجلك؟!!

- بل الحساب من أجل ما فعلته.

اقترب مهيوب وأمسك بالسيد جميل ودفعه بقوة إلى الأسفل ثم نزل من السلالم مسرعاً وخرج من باب البناء الخلفي وسار حتى وصل سيارته وعاد وهو يقودها، ليصلَ بعد دقائق وقد التف جمعٌ غفير حول جثة السيد جميل يضربون كفاً بكف مذهولين لما رأوه وحزينين لموت الرجل صاحب القلب الأبيض.

أبعد مهيوب الناس بيديه وأخذ يصرخ ويبكي.. كان منظره يجمع بين الحيوانية والإنسانية بأبدع صور التمثيل.

راح يحدث نفسه وهو يضم الجثة بين يديه!

**كان جنوناً بلذة القتل لا القتل.. كانت لذة بقوة الضعف لا الضعف.. في الحقيقة أنا قتلتهم هم، قتلت أبي الذي باعني، قتلت الباشا الذي رأيته في نظرات جميل وهو ينظر إلى اكتمال مشروع البناء نظرةَ الباشا بالمتعة ذاتها وهو يضاجع أمي فوق التبن، قتلت لذة استمتاعه بالربح وقد اكتشفت لحظتها طول قامتي أمامه، وانتقمت لقصر قامتي أمام الباشا وتقزّمي عن محاسبته فيما بعد.**

مضت الحادثة ودُونت في الدفاتر بأن سبب الوفاة هبوطٌ حاد في ضغط الدم أدى إلى الدوار حيث فقد الميت توازنه ومات فوراً نتيجة سقوطه من ارتفاع عشرين متراً وسُجّل بالضبط بأن المتسبب بالوفاة هما السيدان قضاء وقدر.

جلس منير التاجر المعروف إلى مائدة مهيوب ممتعضاً على غير عادته، فمنير من الأشخاص الذين يتفادون النكد والأجواء المتوترة، شخصيته

مرحة ونادراً ما تجده عابساً أو مضطرباً أو حزيناً، ومجيئه اليوم كان بشأن التحدث عن البرج الذي طالما حلم مهيوب بإنشائه، برج لم يسبقه إليه أحد في العالم، ولا حتى أبراج وناطحات سحاب نيويورك، هذا الحلم راوده منذ زمن وسيبدأ في وضع حجر الأساس بعد أسبوع.

معرفة منير بمهيوب تعود إلى زمن مضى قبل سنوات حين تعرف عليه في مجلس عزاء السيد جميل، فقد كانت صداقة قوية تربط بين والد منير والسيد جميل منذ الطفولة ووفاء من والد منير لصديق عمره فقد أخذ على عاتقه الاهتمام بمهيوب لتتوطد العلاقة فيما بعد مع منير الذي عرَّفه بدوره على نخبة من المجتمع الدمشقي من أصحاب رؤوس أموال ورجال أعمال وصناعيّين ومسؤولين في الدولة.

وطد مهيوب علاقته بالمسؤولين دون سواهم، فهم بالنسبة له مفاتيح تسهل عليه ما يرمي إليه، وهو خوض الحياة السياسية، وآثر الابتعاد عن التجار فالتجار من أبناء دمشق خاصة يرمزون له بالباشا، وبالتالي فشل بإخفاء عُقد النقص التي بقيت ملازمة له ولم يفلح بالتخلص منها، ولذلك كان حقده يكبر ويكبر كدائرة في بحيرة رميت بها حجراً وأخذت بالاتساع، أما المسؤولون فيسهل التفاهم معهم لأنهم يشبهونه ومعهم لا يدخل بتفاصيل عائلته وجذورها بعكس تجار دمشق الذين يحاولون في كل مناسبة التطرق لشجرات عائلاتهم والتباهي بها والتفاخر بماضيهم وأنسابهم، وهذا الأمر كان يشعره بالحنق والغيرة والحقد وما من حل أمامه سوى الابتعاد عنهم باستثناء منير الذي بات بالنسبة له الوجه الآخر الذي شكل من خلاله واجهة اجتماعية تعني له الكثير.. بداية من اختيار منير ألبسة له تليق بكل مناسبة، وهذا لن يفلح مهيوب به لأن الذوق فطري وهو لا يملك منه لا الفطرة ولا حسن الاختيار رغم كل ما وصل إليه فيما بعد.

ولم ينسَ المواقف المخجلة التي طالما تسبب بها للسيد جميل ولمنير من بعد.. فقد اعتقد ذت يوم أن لائحة الطعام هي قصة أهداها له النادل، ومرة جلس أمام طاولة تقديم البوفيه المفتوح بدلاً من الجلوس إلى طاولته الخاصة، وقصص كثيرة منها تقبيل أيادي الضيوف.. كل ذلك استقبله السيد جميل بالابتسام والصبر، وقد نجح فيما بعد بتدريبه على الأساليب المتبعة في الجلوس وأصول السلام والكلام والطعام والاستقبال وما إلى ذلك من القواعد الاجتماعية التي بدت لمهيوب وكأنه يتعامل مع كائنات فضائية ارتعد من الاقتراب منها.. لشعوره بالتقزم أكثر من شعوره أمام الباشا في ذلك اليوم المشؤوم.

دمشق تسببت له بحالة من الفزع لم يقدر على التخلص منها، وتسببت له موائدها ونكهاتها الغريبة النادرة بجوع وطمع كلما تناول منها ازداد شراهة وطمعاً.. أما الدمشقيون فهم بالنسبة له الباشا بعينه.. دمشق بالنسبة له أصبحت وحشاً يصارع وحشه الساكن في داخله وانتقاماً لصغر حجمه أمام رفعتها وحقداً يثير شهيته للانقضاض على كل جزء منها كلما سنحت له الفرصة بذلك.

استفاد مهيوب من منير كثيراً ومع ذلك لم يكن يهم مهيوب سوى الواجهة الاجتماعية المتمثلة بمنير.

أجاب مهيوب وهو يعبُّ من كأسه:

- هو ليس حلماً فحسب بل هو صفقة، هو رهانٌ بيني وبين نفسي.

فالبرج بالنسبة لي هو عالمي العاجي.. سأقيم فيه بأعلى دور.. سأصنع من هناك دنياي الجديدة وأمسك بعصاي السحرية وأنثر منها سحر مملكتي ونفوذي لأسمع كل ما أشتهي سماعَه من أفواه أولئك المجانين التافهين مستمتعاً بزحفهم على ركبهم وبمناظر مؤخراتهم

وهي تهتزّ كلما رميت لهم مالاً أشتريهم به.. بتلك الطريقة سأحمي نفسي منهم، وسأكون الطبيب الذي يعالجهم على طريقته الخاصة من أمراضهم التي أراها على شكل أورام حقدٍ تكبر في أعينهم.. سأعالجهم بحُقنٍ لم يستخدمها قبلي أحد.. حقن جديدة تقضي على ذاكرتهم ببطءٍ شديد، تمسح عنها كل ما أريد له أن يُمسَح.. سيكون الماضي والتاريخ مجرد ذاكرات مؤقتة ينتهي مفعولها حين تمتلئ مساحات ذاكراتهم بتاريخي أنا فقط.. أنا.. أجل أنا.. وحدي أنا.. لا قبلي أحد ولا بعدي أحد!

ارتاب منير من كلامه فأردف قائلاً له بسخرية لا تخلو من الحذر انبعثت من عينيه:

- وهل أنت واثق من أن من ستشتريهم لن يبيعوك حين يأتي من يدفع لهم أكثر؟ ثم هل يفكر مثلك سوى المجنون الذي لا يرى إلا من خلال ما يراه عقله ومن ثقبين صغيرين هما عيناه؟!!

ثم عدل من جلسته وقد بدا جاداً بكلامه.

- جئتك اليوم لأمر مهم أريد منك سماعه جيداً.

أنا سأنسحب من الاتفاق الذي أبرمناه بشأن البرج.. لن أكون شريكاً ببرج يبنى على أنقاض أحلام مساكين طردوا من أرضهم كي نبني فوق ذكرياتهم وشقائهم وتعبهم مجداً وشهرة.. لم أعد مضطراً بعد اليوم أن أمنحَك ابتسامةَ نفاقٍ أخرى فقد سئمت منك ومن تصرفاتك ومن رعونتك وغرورك.. استفق واحذر على نفسك من نفسك فقد أصبحتَ أنت اكبر خطر يهددها.. أما بالنسبة لي فسأعلن انسحابي من أية مناقصات وصفقاتٍ أخرى وليهنأ بها غيري، أريد إكمال حياتي كما بدأتها آمنا مطمئناً على نفسي وعلى عائلتي.

يرفع مهيوب نظره ناحية منير مستهزئا من كلامه:

- ومـن أيـن لـك تلـك النخـوة والخـوف علـى هـؤلاء الذيـن باعـوا أراضيهـم بأرخـص الأثمـان؟

يجيبه منير بغضب:

- وهـل كان بإمكانهـم اختيار الأفضـل؟ هـم مطـرودون مطـرودون شـاؤوا أم أبـوا.. وإخراجهـم مـن بيوتهـم وأراضيهـم قـرار أُصـدر ممهـورًا بالتوقيـع مـن كبيرنـا.. أونسيت ذلك؟

ضع نفسك مكانهم ماذا كنت ستفعل؟

يبتسم ساخراً ويجيب:

- لو كنت مكانهم لما تركت بيتي.

قاطعه منير بحنق:

- اصمـت وكفـى تنظيـرًا وكذبـاً، ومـاذا يملـك هـؤلاء ليدافعـوا بـه عـن أرضهـم ومسـكنهم.. هـم لا يملكـون إلا ذكرياتهـم ودموعهـم وصـور جيرانهـم وأيام بؤسـهم.. إنهـم يحزمـون كل ذلـك بدل أمتعتهم ويمضون بقلـوب تشـكونا لمـن لا تهابـه أنـت.

يقهقـه مهيوب لدرجـة اغتـاظ منهـا منير لكنـه بقي صامتـا.. يقهقـه حتـى كادت أنفاسـه تنقطـع مـع سـعاله:

- هـل.. هـل نسـيت صفقـة الأسـلحة الأخيـرة التـي تباركـت بجهـودك يـا شـيخنا؟

يقولها بسخرية وهو ما زال يضحك:

- هل نسيتها؟ تلك الصفقة التي أرسلتها لقادات الفصائل وهم قامـوا ببيعهـا أيضا لجهات لا أحـد يعلمهـا، أم أننا نعلمهـا وآثرنا الصمـت وقلنا

يومها فليذهب الجميع للجحيم طالما دخلت الأموال إلى جنات أرصدتنا بسلام؟ هيا جاوبني هل نسيت؟

- لا لم أنس.. يجيب منير بحزن.

ولم أنس أيضاً بأني كنت ضعيفاً ولطالما فكرت كيف تبدل قلبي بقلب آخر.. وما الذي جعلني أمضي بمسايرتك رغم معرفتي بالذنوب التي ارتكبتها دون أن أحسب حساباً للعواقب، ولم أنس كيف كذبت على نفسي وحولت الخطأ بفتوى مني إلى صواب وقمت بخيانة نفسي وبخيانة ثقة عائلتي.. وكأن ما فعلته هي الحماقة حين تنطفئ أعيننا عن الحقيقة ولا نتحرك إلا ضمن دائرة ضيقة لا نرى من خلالها ولا نعيش إلا من ثقوب لا تشير إلا لاتجاه واحد هو المال.

لقد أنقذتني حكمة ربي البارحة واستفقت من غيبوبتي حين انفجرت عبوة ناسفة أمام مدرسة ولدي واستشهد اثنان من رفاقه.. أطفال لم يتعدّ عمر الواحد منهم السبع سنوات.. ماذا فعلوا كي يتحولوا إلى جثث دماؤها ما زالت على حيطان المدرسة، دماء تغطي رسوماتهم التي رسموها قبل أسبوع فقط من استشهادهم.

يبتلع دموعه ويقول بصوت متهدج:

إنها الحكمة.. إنه نذير لي حين عرفت بأن طفلي كان مع صديقيهِ حين انصرافهما وعاد لأنه نسي كراسته في غرفة الرسم وحصل ما حصل،.. دقائق فقط كانت تفصل بين الموت والحياة.. دقائق لو اعتبرنا منها لتركنا كل شيء ومضينا لنمحوَ خطوط المطامع.

ماذا سأقول لابني وكيف سيواجه رفيقيه اللذين قتلا على يدي؟ هل سيسامحني إن قلت له بأني حين مرّرت تلك الصفقة كنت أظن بأنها في أياد أمينة؟ وبأني بريء وبأني لست قاتلا!!

إنها الحكمة حين تصوب هدفها ناحيتي.. وتجعلني أفكر وأفكر لأخرج بنتيجة، إذ حاولت استيعاب معنى الحياة وغموض الحياة وتقلبات الزمن وكل ما جاهدنا في تفسيره وبقي مبهماً بالنسبة لنا.. إلا أنني وصلت لقناعة واحدة وهي أن الحياة مختصرة فقط بالحلال والحرام.. والقناعة والجشع.

وقبل أن ينصرف قال له:

- أخرج خثرات الدم الفاسد التي تميتك كل يومٍ دون أن تحاول معالجتها من أوردة دمك وشرايين قلبك... ثم أخفَضَ صوتَه ووجَّه يده ناحية مهيوب وكأنّه يدفعه وقال له بهدوء:

- لا.. لا تفعل ذلك لأنك لو فعلت فلن تتردد لحظةً عن قتل نفسك.

احتقن وجه مهيوب غضباً ثم عاد لطبيعته بعد ثوان، وهذه عادته فهو بارعٌ في رصد ردود أفعاله بطريقة لا يجاريه فيها أحد.. استوقف مهيوب منيرًا وهو يحاول إقناعه بالعدول عن قراره فمنير بالنسبة له (برستيج) اجتماعي لا يمكنه التخلي عنه بسهولة.. هو بمثابة مرجعٍ للأصول وللعراقة.. وأسماء العائلات بالنسبة له حلم لطالما حلم بتسجيل أحدها في قيد نفوسه وحتى لو أفلح بذلك فسيفشل به في داخله.. إنه عاجزٌ عن الاستغناء عن منير فهو الشخصية الأخرى التي تمثل له شجرة عائلة بحسَبها ونسَبها.. وهو لا يملك ولا حتى جذعاً منها يستطيع من خلاله التفاخر أمام أهم عائلات البلد إلا من خلال منير وحده الذي أوهم الجميع بأن مهيوب ذو أصول وجذور تعود للعثمانيين، وبأن أجداده قاتلوا في جناق قلعة وبأن جده لأمه باشا من باشاوات الدولة العثمانية.. وهذا ما يسعى إليه من خلال شراء بعض الموظفين الذين يعملون في مركز التوثيق العثماني وتزوير اسم عائلته وخلق جذورٍ وهمية له لكنه لم يفلح حتى الآن، فالمهمة صعبةٌ جداً وتحتاج لمرتزقةٍ

جُدد يدرسون مشروعاً عن كيفية تسللهم إلى موظفين مسؤولين عن تلك الوثائق.. موظفون متعِبون فشراؤهم أمر صعب حتى الآن، واليوم بات الأمر شبه مستحيل برحيل منير وابتعاده.

يلحق ميهوب به محاولاً مسايرته، فمصالحه مازالت قائمة معه.

- ولكن يا منير صفقة السلاح الأخيرة كانت صفقةً مربحةً جداً أكثر من أية صفقةٍ تمت قبلها، ثم إنه لا علاقة لها بطفلك فكل البشر مُعرضون لأكثر من ذلك.

- ولكن ليس كل البشر عقدوا صفقاتٍ يُقتل بها بشرٌ آخرون.. وليس كل البشر تسعى لتأجيج نيران الحرب التي كلما خبت أَجَجوها كي تبقى تلك الصفقات مستمرة.. وماذا عنك؟؟ قالها منير ساخراً.

أجاب ميهوب بطريقةٍ بدا من خلالها كالأبله:

- أوافقك تماماً.. ولكنك أنت تعلم بأن البلاد مقبلة على انتخابات البرلمان وسأوقف كل الصفقات لما بعد ذلك.

كان منير على وشك الضحك لكنه تراجع قائلاً:

- أتراك صدقت أنت أيضاً بأن الجماهير هي من انتخبتك وليست أقلام المخابرات في الغرف المغلقة؟ يا إلهي! إني لا أراك إلا آلةً قادرةً على صناعة الكذب وتدوير الباطل وجعله حقاً.. ومحاكمة المقتول وتبرئة القاتل.. لقد اعترفت بنفسك ذات يوم بأني قادر على حسن فهمك وبأني أفهم ما هو مُخبئٌ وراء لسانك.. لكنك أجبن من أن تفصح عنه، لماذا لا تعترف بأنني كنت دوماً أنا المتبرع لما تود قوله ولا تجرؤ؟

حاول ميهوب إخفاء غيظه مرةً أخرى، لكن منير أدهى من أن يخفى

عليه ما يخبئه مهيوب له من كراهية نتيجة معاناته من عقد النقص التي لم تمحها المليارات التي يمتلكها ولا القصور ولا امتلاكه لأجمل النساء المحليات والمستوردات كما يحلو له تسميتهن.

عقد النقص ليست فقط تجاه منير بل تجاه كل من يحمل اسم عائلةٍ مشهورة أو معروفة.. فهو يرى بهم جميعاً الباشا الذي خدمت عنده عائلته.. عائلته التي لن ينسى كيف باعته.

أبعد منير يد مهيوب الممسكة بذراعه ودفعه، وقبل مغادرته قال له ساخرًا:

- ينبغي عليك يا عزيزي بعد كل حوار بيننا ارتداء نظارة سوداء كي لا تفضح عيناك ما يخفيه قلبك.. هذا إن بقي بيننا لقاءات

# الفصل السابع

لماذا تتعب نفسك
بالبحث عن أخلاق
لن تجدها طالما أنها
ليست موجودة في
داخلك..

عينا مهيوب تقدحان شرًرا أمام المرآة.. تلك المرآة التي شهدت قصص أهم جرائمه التي لم تُعلن والتي لا يعرفها سواهما هو والمرآة ومأجورون قتلهم بعد تنفيذهم مهمات وجب محو آثارها.

أكثر من عشرين عاماً وهي الملجأ من خوفه وذعره وجبنه أمام الآخرين.. كل ليلة لا يمكنه أن ينام دون أن يُحدثها لساعات تمتد أحياناً للفجر.

شفتاه ترتجفان كفم وحش جائع يتأهب للانقضاض على فريسته، هناك فقط يُقيم طقوس الكلام الذي لا يجرؤ على البوح به أمام أحد.. هناك أمام المرآة فقط يكشف عما تم تنفيذه وما ينوي عليه، فهي وحدها القادرة على كشف وجهه الحقيقي المليء بالندوب والتشوهات والتي لا يراها أحد سواه.. أمام مرآته فقط يتعرّى من كل ما يملك ويستسلم للاعتراف بجوعه التاريخي الذي لم تستطع آخر جزيرةٍ اشتراها في بريطانيا أن تسدّ شراهته وطمعه.. ولا حتى صوره المنتشرة في المحلات والمدارس والجامعات والطرقات.. كل ذلك لا يكفيه.. رغم أنه اشترى معظم الفنانين

التشكيليين والنحاتين والصحفيين والشعراء والكتاب والمؤلفين والمؤرخين.. ورغم الأقلام المأجورة التي كتبت عنه وعن عائلته التي اخترعها واختار لها ألقاباً وهمية، وصنع تاريخاً مجيداً له على صفحات كتب الأطفال كي يبقى اسمه راسخاً في أذهانهم حتى يكبروا.. لقد استطاع الاستيلاء على الحكم حين باع الحدود للغرباء مقابل تنصيبه، وبنى السجون كي يتعافى المجرمون من ذنوبهم على حد زعمه، وأمر باعتقال الأصوات المرتفعة ضد الظلم كي لا يؤذي ضجيجها هدوء الآخرين الرابضين أمام قدميه، والذين سلط على رقابهم سيف جنونه وعتهه، وكان كلما عجز عن حرق ذاكرته أضرم النار في البشر والشجر وحجابات النساء التي يغطين بها رؤوسهن.

إنه يعترف أمام مرآته بخوفه من زيزي وكرهه لها.. زيزي وحدها من تخيفه، فالأذكياء بالنسبة له أشخاص لا يجب الوثوق بهم، ولأنها تعرف أكثر مما يجب فهو يصمت بعض الأحيان عن كلامها اللاذع الذي توجهه له.

زيزي فقط تعرف بأن سر بطشه وعنفه ما هما سوى تعويضٍ عن عجزه، كما تعلم أيضاً سراً مهماً بأن من يغتصبهن لا يعلمن بأنه ليس هو من يقوم بذلك بل (دوبليرات) وبأنهن يُغتصبن بعد وضع قطع من الجلد تمنعهن عن الرؤيا وبأن مهيوب هو مجرد مراقب لتلك العمليات فحسب.. أما الغاية فهي الاستمتاع بالشائعات المنتشرة على أنه فحل، وتلك متعةٌ لا تقل بلذتها عما يدور في تلك الغرف المغلقة لضحاياه من النساء اللواتي تحضرهن له زيزي البارعة باختيارهن كما براعتها في حفظ أسراره وكتمانها، وهذا ما يجعله متجاوزاً أخطائها بحقه، إنها صندوقه الأسود وماخوره المتنقل.

يتذكر كلام زيزي حين قالت له ذات مرة وقد أسرفت في الشراب:

**- أنت رجل تشبه صحراء حدودها الشمالية شهوة مشتهاة، وشرقك خسة دنيئة، وغربك فساد مستفحل، وجنوبك دم مسفوح.. أنت شخصيةٌ بشعةٌ من كل اتجاهاتها فكل ما هو خارج حدودك قابلٌ**

**للحـرق والنفـي بـكل أنـواع البشـاعة والفظاعـة. فـلا واجبـاتٌ لقلبـك سـوى الحقـد ولا واجبـاتٌ لعقلـك سـوى القتـل ولا واجبـاتٌ ليديـك سـوى البطـش.. أمـا كلمـة (إنسـانية) فهـي خـارج حـدود سـيطرتك تمامـاً.**

هجـم عليهـا يومهـا وأخـذ يضربهـا حتـى تعـب.. وقفـت مبتسـمة تترنـح وكأنها انتشـت مـن الألـم:

- أنا أشـفق عليك هل تعلم لماذا؟؟

لأنـك لا تعلـم معنـى اللـذة فـي قطـف الثمـرة بـدلاً مـن قطـع الشـجرة.. ولأنـك لا تحتمـل منظـر وجـوهٍ ضاحكـة محـاولاً بجميـع السُـبل جلـب مصائـب العالـم لهـم وإلقاءهـا أمامهـم كجثـث أحبـاءٍ لهـم.. ولـو رأيـت زوجيـن متحابيـن لتمنيـتَ لهمـا الخيانـة وجلسـتَ تراقبهـم لتضحـك.. ولـو رأيـت طفـلاً معافـى لتمنيـت حبسـه واسـتمتعت بصـراخ أنيـن جوعـه.

لقـد امتلأ داخلك بالهموم لكثرة الفوضـى التي أحدثها طمعك وجشـعك.. حالـك كحـال جهنـم التـي تسـتعر وتصـرخ: هـل مـن مزيـد؟ مخالبُـك كثُـرت ولـم تَعـد تجـد الوقـت الإضافـي لشـحذها حيـن الانقضـاض علـى فريسـةٍ جديـدة.. تتخبـط وكـأن فـي داخلـك أيـادٍ لوحـوشٍ عميـاءَ تسـبح فـي الهـواء باحثـةً لهـا عـن ضحيـة، رافضـاً أي حقيقـةٍ يمكـن أن تعيـدَك إلـى الصـواب، ولـو حاولـت أنـت نفسـك أن تجـد ذلـك الصـواب لقتلتـه بيديـك دون تـردد.

انقـضّ عليهـا مـرةً أخـرى كوحـشٍ بشـع وهـي مستسـلمةٌ لدرجـةِ أنهـا لـم ترفـع يدهـا لتحمـي فيـه وجههـا الملـيء بالبوتوكـس.

يخاطـب مرآتـه هامسـاً بصـوتٍ مرتجـفٍ يحمـل معـه حقـداً دفينـاً وكرهـاً لا حـد لمثيلـه:

- لقـد بـدأ منيـر ينشـز وهـذا لا يطربنـي.. فلنقـم لـه مراسـم العـزاء.. لـن أسـمح لـه بـأن يفسـد علـي مـا حققتـه طـوال سـنواتٍ طويلـة.

لن يجرؤ مخلوق على الوقوف بوجهي، وأمامي كل تلك الجيوش من المرتزقة الذين قمت بتدريبهم جيداً وأغدقت عليهم الطائل من الأموال وزوجتهم من الحور العين.. أنا مهيوب.. من يجرؤ على الوقوف بوجهي والتمادي علي؟

بدأ مهيوب حين وفاة والده الافتراضي بتجارة السلاح والتي كان يحصل من خلالها على عمولاتٍ هائلة ولم يكن يهمّه أين يذهب هذا السلاح ومن يقتل.. ولم يكن يهمّه إن كان سلطان جزر النجوم أو ملك الذهب الأبيض والأسود.. ولم يكن يعنيه مصدر هذا السلاح أو مَن مِن الميليشيات سيشتريه، ولم يكن يعنيه سياسة بلدان تبيع سلاحاً لدولٍ أخرى تحاربها في العلن وتصافحها في السر.. ثم ازداد تعمقه بهذه التجارة وعرف أن البنوك السويسرية تحول أموال تجارة السلاح إلى المقاومين في بلادٍ اختار امبراطورات المال قلب الأنظمة فيها.. كل ذلك لم يكن يهمه.. لا يهم.. فمصانع الأسلحة في روسيا وأمريكا وغيرها تعمل ليل نهار والأسلحة المطلوبة متوفرةٌ دائماً حتى وإن كسدت لفترة من الزمن نتيجة السلام المؤقت في البلدان، إلا أن السلاح سيباع عاجلاً أم آجلاً.. فهناك قوة خفية تعمل على تأجيج الحروب خصوصاً في مناطق العالم الثالث.. وسوق الطمع والجشع لن ينفذ من الزبون الغبي ولا من التاجر الذكي.

**كل ذلك لم يكن يهمه.. فدائماً ما كان يُحدث نفسه بأن السياسة لا أخلاق لها أو فيها، وإنما هي مصالح على طول الوقت، وأن الحكام مجرد مجانين يتقاتلون اليوم ويتصالحون غداً، دون تقديم التعازي.. فالذين سقطوا هم من الشعوب نتيجة لعبة المصارعة الدموية والتي يتكوَّن أبطالها من أفرادٍ مظلومين لا ناقة لهم ولا جمل، وإنما اختاروهم للسحق فوق تلك الحلبة.. مصارعة حرة.. حرة لدرجةِ أن الحكام لا يمدّون أيديهم فيها إلى بعض ..بل يستبدلون أنفسهم بقرابين يقدمونها وهم يتفرجون ويمارسون تجارتهم وصفقاتهم**

**وعمولاتهـم بينمـا الديـوك تنتـف ريـش بعضهـا البعـض.**

تجحـظ عينـاه أكثـر، ويبـدأ صوتُـه بالارتفـاع رويـداً رويـداً.. يحنـق وجهـه ويبتسـم ابتسـاماتٍ صفـراء مخيفـة وبشـعة وهـو يقـول:

- مـن يجـرؤ علـى مواجهتـي وأنـا الـذي نشـر جنـوده فُـرادى ومجتمعيـن فـي أسـواق البلـدة وحوانيتهـا ومسـاجدها وكنائسـها وصوامعهـا وحاراتهـا ومدارسـها وجامعاتهـا ومكتباتهـا ومؤسسـاتها ومراقصهـا وحتـى مشـافيها ليبثـوا الرعـب فـي قلـوب النـاس التـي كانـت تسـكنها الطيبـة؟ وتحولـوا بفضلـي إلـى مسـعورين نتيجـة الخـوف.. نعـم مسـعورون..

يضحـك بهسـتيريا قبـل أن يكمـل قائـلاً:

- فهـذا الـذي بصـقَ فـلانٌ فـي وجهـه، وذاك الـذي أرغمـت ابنتـه علـى مرافقـة ذلـك الشـاب العاطـل عـن العمـل ليتسـلى باغتصابهـا، وذلـك الـذي ضُـرب بكعـب البندقيـة، وآخـر أُجبـر علـى إدمـان الرشـوة ليقدمَ فتاتَ الخبـز طعامـاً لأسـرته لأن راتـب عمليـن فـي اليـوم لا يكفـي، وآخـر أُرغِـم أن يقـف علـى المنبـر ويمـدح ويهلـل ويمجـد خوفـاً مـن البطـش بأهـل بيتـه، وأنـاس جاعـوا فاختـاروا الصمـت مكتفيـن بملاحقـة لقمـة العيـش.

هـا قـد وفـرت علـى نفسـي انشـغالهم عنـي.. جـردت أكثرهـم مـن معتقداتهـم، هددّتهـم بأعراضهـم بـل أمـرت بتمزيـق أغشـية بـكارة بناتهـم ليكـنّ لـي أمـات وجـوارٍ تابعـات، وأمـا مـن كان قـادراً علـى الهـرب فقـد اسـتقل أول طائـرة وتـرك البلـد وقـد سـاعدته فـي ذلـك دون أن يشـعر، فالمهـم هـو أن يخـرج مـن هـذه البلـد.. أريدهـا لـي وحـدي.. أريـد الاسـتمتاع بـكل مـا فيهـا وحـدي.. أريـد بيعهـا قطعـةً قطعـة كسـيارة خـردة.

يعـاود الضحـك الهسـتيري ذاتـه وهـو يهـزّ رأسـه كمريـضٍ نفسـي نسـوا إعطـاءه جرعـة المهـدئ.. قطـع خـردة.. أجـل أجـل، أريـد بيعهـا قطعـة قطعـة،

لا أريد بيعها كاملةً، لن أدعَ أحداً يهنأُ بها من بعدي.. لن أتركها إلا وهي محروقة وممزقة ومشلولة.

يقف باستعداد ويلقي التحية على نفسه صارخًا:

فرِّق تسد.. جردهم من معتقداتهم.. من يتجرأ على عمل ذلك إلا بطلٌ مثلي؟

أخفض يده ثم اقترب من المرآة بحذر وذعر حين شاهد وجهه وقد ظهرت له أنيابٌ تقطر دماً، وعينان حمراوان شرستان، ونبت من رأسه ألف ثعبان يمدون رؤوسهم فاتحين أفواههم للفتك به.. يا إلهي إنها رؤوس منير.. إنها كلماته.. إنها قهقهة منير.. يقفز بجسده كسمكةٍ أخرجوها للتو من البحر.. ترتفع نظرات مهيوب إلى أعلى فيشاهد البرج الذي سيبدأ بتعميره بعد أيام ليرى منير واقفاً أعلاه يضحك ويضحك حتى ليكاد أن يُغشى عليه.

يبتعد عن المرآة مذعوراً.. يحاول استحضار صوته فلا يستطيع.. عاجزٌ عن الصراخ.. عاجزٌ عن جرّ جسده الذي سقط أرضاً حين حاول الوصول إلى باب الغرفة.. قدماه مشلولتان تماماً.. أين النجدة؟ أين الحراس؟ أين الخدم؟ أين العراف؟ أين الجميع الذين يقبلون أقدامي كلما مررت أمامهم؟ أين التشريفات؟ أين كل شيء؟

تيبس مهيوب مكانه.. أصبح كلوحٍ خشبي لا ينفع إلا بإضرام النار فيه.. مدَّ يده محاولاً الاستنجاد بمنير لكن الأخير دهس عليها بكعب حذائه ممسكاً بيده الأخرى هاتفه المحمول.. كان منير يجيب على أسئلة لم يتمكن مهيوب من سماعها.

- نعم هذا صحيح فقد بدأ الخوف يتسرب لأعماقه.

يهمس منير:

- لا.. ولكن ظهرت له أنياب.

- لا أنا لا أمزح.

- مممممم.. أمرك سيدي.

أغلق الهاتف وهو ينظر إلى مهيوب ساخراً بحقد، وقبل أن يبدأ بالكلام صحا مهيوب من الكابوس على أيدي الخدم تهزه وقد تبلل بالعرق.. عرق الخوف والذعر والدهشة.

يصرخ بملء تعبه:

- ائتوني بالعراف!

يااا معشر الجن لماذا أخفتموه؟ لماذا أفزعتموه؟ ألم يحضر لكم الحرمل ودم الحمام والزعفران والأحجار الكريمة وبيض النعام؟ ألم يذبح من أجلكم آلاف أكباش الفداء ووزع على أرواحهم الذهب والفضة والأموال التي اكتسبها من الضعفاء والفقراء واغتصب بأمرٍ منكم آلاف النساء؟

يتصاعد البخور أكثر كلما رمى العراف بقبضةٍ من حصى البان والبخور فوق الجمرات المشتعلة، الملتهب سعيرها كعيني مهيوب المتوقدتين وحشية.

أقسمت عليكم بحق شمتروت وعشتروت وهسهس ومسمس بأن تصفّدوا من آذاه ومن عاداه.

أقسمت عليكم بحق أشائيل وأعوانه فرعيائيل وماسول وطائيل الرياح وطش والترابي والهوائي والبري والمائي.. أقسمت عليكم جميعاً بتهدئة حاله وأحواله ربيعاً وصيفاً.. خريفاً وشتاء.

يااا ملوك الهياكل والتيجان.. يااا حارسي كهوف الزمان والمكان.. يااا نافذين في العقول والأبدان.. آمركم بحق العفاريت والشياطين والجان

أن تحرسوا عينيه وأذنيه وقلبه ولسانه وشفتيه.. وأن تنفذوا إلى شرايين أعدائه لتربطوها عُقداً عُقداً.. وتُمزقوا كيدهم إرباً إرباً.. وتفتتوا رياح غدرهم وتنثروها قطعاً قطعاً وذراتٍ ذرات.

آمركم بحق هوشا ويوشا وملوك البحار والقفار وشياطين البشر وعفاريت الأحجار.. أن تهلكوا عدوه وتُلجموا لسانه وتُغشوا على قلبه وتقضوا مضجعه.. عزمت عليكم بالأفعى التي أخرجت آدم من الجنة، والعمامة السوداء والضب الذي يلتحف بألف لحاءٍ.. والمختبئين وراء جدران الفناء.. أن تُحضروا عشائركم وقبائلكم من بلاد الواق واق.. عزمت عليكم أن تُحضروهم الساعة الساعة العجل العجل الوحا الوحا.. أحرقوا عدوه بحق شمعروش وشنشلوش وميكيال ورافيال.. هيا انصرفوا الآن انصرفوا ولا تعودوا قبل أن تأتوني بخبرٍ عظيمٍ جلل.

أوراق يحرقها العرّاف ويرمي فوق رمادها مزيداً من البخور كلما رمى له مهيوب برزم المال..

**حتى الجن استبدلت الليرة بعد هبوطها بالدولار!.. يا للعفاريت التي تذهب بطرفةِ عينٍ لتأتي بخبرٍ من البورصة والسوق السوداء، ولا تكف عن استبدال الأوراق المالية بالذهب كلما هبط سعر برميل النفط.**

قطعت الجلسة رسائل الجوال التي تأتي من أكثر من مصدر.. الهواتف لا تتوقف عن الرنين وكأن الجنون قد أصابها.. جرس الباب يُقرع وجلبة في الخارج.. ارتبك مهيوب ولم يجرؤ على الحراك.. دخل الحاجب مسرعاً وهو يعتذر لأنه لم يستأذن بالدخول.

وقبل أن يستفسر مهيوب عن الحاصل قال الحاجب:

- لقد مات السيد منير بحادث سيرٍ مروع قبل قليل.

٨

# الفصل الثامن

إنها الأنانية التي
ظهرت حين احتدمت
المصائب..

وصلت سيرين إلى إزمير في تركيا بعدما أصر ماهر الذي تعرفت على اسمه خلال تلك الرحلة على عدم تركها وحيدةً حتى وصولها إلى أوروبا وهذا لن يكلفه شيئاً طالما أن طريقهما واحد.. موضحاً بأن مساعدته لها لا تعني بأنها ضعيفة لكنها فرصة لمد يد الإنسانية التي لم يستطيعوا سلبهم إياها رغم كل الذي واجهوه من قهر وظلم..

الجو خانق مع شمس آب اللهاب وما زال لديهما الوقت لتناول الطعام والتعرف قليلاً على المنطقة قبل أن يحل المساء، فشرط خروجهم هو الانطلاق ليلاً.. كان ماهر محقاً إذن حين قال لها بأن إزمير هي عاصمة التهريب.. شعرت وكأنها لم تخرج من بلدها بعد، ففي كل مكان تجد السوريين موزعين في الأسواق.. الحافلات.. الحدائق.. المساجد.. والأرصفة.

ذهبا إلى حديقة قريبة بعد أن حصلا على شطائر من مطعم مزدحم اضطرا للانتظار حوالي نصف ساعة للحصول على وجبتيهما، وصادف أن كان أصحابه سوريين أيضاً.. شعرت بالخجل لمنظر آذاها من رجل وزوجته

جالسين يفصصان اللب ويرمون بقشوره على الأرض دون أي شعور باحترام قوانين النظافة، مع أن المكان المُخصص لرمي الأوساخ قريب جداً منهما وزاد من خجلها نظرات أصحاب المنطقة المارين من هناك، نظرات اندهاش ممزوجة بالخزي والاشمئزاز.. طلبت من ماهر أن يبدلا مكانهما فلقد استفزها المنظر ولكن تبديل المكان لمكان آخر لم يكن بأفضل من الأول.. فهنا على كرسي الحديقة امرأةٌ تغير ملابس ابنها الصغير الذي انتهى للتو من التهام كيس الحلوى ورماه على الأرض دون أن تمنعه، وكيف لها منعه وهي لم تكلف نفسها بالدخول للحمام على الأقل كي تقوم بتبديل ملابسه الخارجية والداخلية!! ركزت نظراتها على الأرض بعد أن هرب منها الجوع الذي كان مسيطراً عليها قبل قليل.. وأخذت تفكر.

كيف يمكن لهذه الشريحة الاندماج بالمجتمع الأوروبي والتقيد بقوانينه بدءاً من احترام الأماكن العامة مروراً بالمدرسة وانتهاءً بالتعامل مع المجتمع هناك؟ تُراهم سيقومون بالتوقيع على تلك الشروط ضاربين بفحواها عرض الحائط، والتصرف بما يحلو لهم معتقدين بأن هذه هي الحرية؟ كيف يمكن لهذه الشريحة التقيد بقوانين المجتمع الأوروبي؟

قوانين تصل فيها العقوبات للسجن أحياناً حين الإخلال بها وهم غير قادرين حتى على رمي الأوساخ في أماكنها المخصصة!.

تسافر ذاكرتها مرةً أخرى للملجأ مستحضرةً جيرانها المستنفرين والمستعدين لمشاكسة تارة يؤجلونها وتارةً تصل حد التشابك بالأيدي وكأن القذائف التي تسقط لا تعنيهم بقدر ما يعنيهم رمي رصاص اتهاماتهم لبعضهم البعض.. يشتمون الدول والحكام كأن هذا سينقذهم مما هم فيه رافضين الاعتراف بأن الاحترام لبعضهم البعض فيه جزء كبير من حبهم لوطنهم والوفاء له، متجاهلين بأنهم رغم اختلافهم

بالرأي وانتماءاتهم المتعددة إلا أنهم يعيشون الألم نفسه والخوف ذاته، والدليلُ هو وجودهم في ملجأ واحد متناسين أن ما يفعلونه الآن هو أقسى من الرصاص الموجه القاتل.. وبأن ما يتفوهون به هو الصاروخ الذي استمد قوة انفجاره من كرههم لبعضهم أكثر مما استمد أوامره من مركز القيادة.. الملجأ كان الحقيقة العارية للناس.. كم كان سهلاً علينا أن نصوب رصاص اتهاماتنا وحتى فوهات بنادقنا كلٌّ منا باتجاه الآخر، لأننا وعلى الرغم من معاشرتنا لبعضنا البعض وزياراتنا المتبادلة والألفة التي كنا نمارسها نتيجة مناخٍ ما.. غير أننا كنا نجهل بعضنا وحتى نجهل أنفسنا.. ولهذا أصبح من السهل علينا قتل بعضنا البعض.. نعم كل شيء عندنا كان مشتركاً، طعامنا متشابه وأذواقنا متشابهة بكثيرٍ من الأمور.. وحتى أنانيتنا غير المعلنة كانت مشتركة أيضاً.. لكننا في المقابل لم نعط الفرصة لأنفسنا للتعرف علينا أكثر، فهمُّنا هو الكسب السريع وعدم الإيثار، وبراعتنا بابتزاز الآخر بدلاً عن مساعدته.. باختصار نحن لا نريد التعرف على بعضنا كي لا نفتح المجال أمام الجزء الإنساني والضمير النائم فينا أن يصحو.. ولا حتى نريد أن نقع فريسة الطيبة التي يمكن أن تنتشلنا من عالمهم فنسقط صرعى ونسبح عكس التيار فتراهم هم أول من يتخلى عنا، من هنا كبرت عدم ثقتنا بالآخر والذي يشبهنا بكل شيء.. نعم نحن مشتركون بكل شيء.. كل شيء!!

تنبهت على يد ماهر تهزها من كتفها..

- ما هذا الشرود الذي منعك من سماع صوتي مرتين؟ هيا تناولي طعامك فقد بردت الشطائر.

# الفصل التاسع

لا ترسم أحلامك
على القماش
فلربما مزقتها رياح
التغيير..

لقد زاد وزني في الآونةِ الأخيرة.. تقولها زيزي لمرآتها التي تبوح لها بكل شيء مثلها مثل مهيوب.. فمنذ موت والدها فقدت الثقة بالجميع وأولهم أمها التي لم تشعر يوماً بأمومتها.. وعت على أم مستهترة أنانية.. لم تطالبها يوماً كما باقي الأمهات بكتابة واجباتها المدرسية أو الاهتمام بنظافة ملابسها أو تذكيرها بيوم ميلادها للاحتفال به كما شاهدت في منازل صديقاتها، كل اهتمام والدتها كان منصبًّا على كيفية الحصول على المال من أبيها الذي كان يقف أمامها كل مطلع شهر ليناولها المعاش دون كلمة شكرٍ منها أو امتنان ومن غير أن تنسى تذكيره بعجزه وضعفه ومقارنته برجالٍ آخرين دون أدنى إحساس بقهره الذي كان ينطق من عينيه انكساراً وقهراً وحقول صبر.. كان أبي باختصار... عصارةً من الحزن وكان موته حياة.

بقيت فترةً طويلةً بعد وفاته صامتة كهرٍّ نهره صاحبه.. حزنت كثيراً عليه على عكس أمي التي كانت تردّد في كل مناسبة إنه كابوس جثا على صدرها ستة عشر عاماً وتخلصت منه، لم أكن أجرؤ بالرد عليها ليس

احتراماً بل خوفاً من أن تضربني، فهي لم تكن قاسية فقط، بل جبارة متسلطة وسليطة اللسان، لذا كان الجميع يتحاشاها لسوء أخلاقها.. وبالطبع تحاشونا لأجلها.

حين كبرت حاولت أمي تبرير أفعالها المشينة لي، بقولها إن والدي كان متراخياً وفاشلاً وهو من أوصلها لما هي عليه نتيجة لضعفه وعجزه، وبات من الصعب عليها الدفاع عن نفسها حين كان المحيطون بها يقللون من شأنها ويستضعفونها نتيجة ضعفه، والأهم من ذلك كله تقصيره في العلاقة الزوجية بينهما، لذا كان لا بد لها من التكشير عن أنيابها لتكون هي المرأة والرجل معاً.

جميع ما قالته من سخف الكلام لم يقنعني رغم ذرف الدموع بين كل مشهد ومشهد من تلك المسرحيات التي كنت شاهدة عليها، لكني لم أكن أعرف لصغر سني كيف أفسرها.. كلامها لم يكن ليصدر إلا من امرأة أنانية لا يهمّها إلا الحصول على المال مبررة أي خطأ يمكن له أن يقف عائقاً في وصولها إليه، فالغاية عندها تبرر الوسيلة، وجميع ما كنت أسمعه منها يحصل مع أية امرأة أخرى، لكنهن لم يفعلن ما فعلته أمي.

تقصير أبي بمسؤولياته لا يمنحك حق خيانته وجعلك عبدة رغباتك فكثيراً ما يقصر الرجال نتيجة ظروف صعبة لا يستطيعون بسببها حمل ما هو أكثر من طاقتهم وإلا تحول المجتمع إلى مستنقع لا تعيش فيه إلا العناكب.. كان الأجدر بك أن تعملي لتساعدي ذلك الرجل، أو أن ترضي بما قُسم لك، بدلاً من أن تكوني عبدة لجسدك وللرجال ولكن أنانيتك منعتك إلا عن الانسلاخ بالاهتمام بي وبمنزل الزوجية حتى ولو كان يقوده رجلٌ ضعيف.. وأنت اخترت الطريق الأسهل الذي لا يكلفك أي جهد أو تعب لتختزليه بتبديل الثياب كما تبدلين عشاقك.. اخترت بنفسك حياة غير مستقرة، حياة كان من واجبك كأم أن تضيئي بها طريق حياتنا لا أن تقومي

بحرقنا بأنانيتك ورغباتك وطلباتك التي لا تقف عند حد معين.. وكان أول المحترقين أنت، وما سبب عصبيتك ونكدك الدائميّن إلا لأنك لا تهنئين باستقرار، **ففي داخلك تعيشين حالات لا تخصّك وحدك بل تحددها حالات عشاقك الذين تختلف طباعهم من رجل لآخر.. فأصبحت غير قادرة على امتلاك نفسك.. وعاجزة عن امتلاك الآخرين.**

تقترب بوجهها من المرآة متفحصة بشرتها التي بدأت تنذر بخطر هجوم التجاعيد ممررة أصابع يدها حول عينيها.. لقد بدأت خطوط ناعمة تزحف حول عينيها، تتصنع زيزي حركة تفعلها النساء دائماً وهي ابتسامة توجه بها سهماً يشير لمنطقة الخطر أو الأمان.. مجرد ابتسامة عريضة تعرف من خلالها أين مكامن الخطر في وجوههن.

ثلاثة وثلاثون عاماً.. اقترضتهم من الزمن ومازلت أدفع فوائدهم قهراً ووجعاً ومجاملات.. ثلاثة وثلاثون عاماً ما حققت فيها سوى الانتظار للاشيء.. لا زوج يحميني، لا أطفال أغمرهم بحبي، لا حب أتكئ عليه حين يخذلني العالم، لا استقرار أهرب إليه حين تؤذيني نفسي.

تبتسم ساخرة بحقد، مستعيدة بذاكرتها أول مرة بعد موت والدها بثلاثة أعوام، وقد بدأت تتوضح معالم جمالها وجسدها بشكل واضح مع بلوغها الخامسة عشر، حينها انتقلوا من حيهم الشعبي إلى أحد أحياء دمشق الراقية والذي استأجره لهم عشيق أمها.. تتذكر كيف دخلت صالون التجميل المشهور في حي أبو رمانة مخفية ارتباكها تحت غطاء الثقة بالنفس المتكبر الذي استعارته من بطلة إحدى الأفلام العربية.. ولم تنسى ذعرها الذي أخفته بدهاء أيضاً حين سألها إيلي الحلاق المعروف عن اسمها ومن أين أتت فزبونات الصالون غالبيتهن من الثريات ونساء المسؤولين ومن الطبقة المخملية الدمشقية القليلة التي بقيت بعد مغادرة العائلات الارستقراطية من دمشق في الستينيات من القرن الماضي.

أجابته يومها بأن والدها يعمل مقاولاً في البرازيل، وله مشاريع في أمريكا وعدة بلدان عربية لكن أمها أصرت على العودة إلى البلد فالغربة أخذت من حياتها الكثير ولم يعد بمقدورها البقاء بعيداً أكثر من ذلك.

كان يمكن تصديقها فالثياب التي اشترتها من بيروت مع أمها ومهيوب تدل على الفخامة، وكذلك سيارة المرسيدس الحديثة التي حصلت عليها مؤخراً يدل على أنها لم تكذب لأن الحصول على سيارة في بلد كبلدها يعني أنها من أصحاب الملايين، وقد تعمدت نسيان حقيبة يدها داخل السيارة لإرسال صبي الصالون لجلبها ليقوم بدوره بنقل الرسالة لإيلي صاحب الصالون، وهنا ستتمكن من الحصول على احترامه وتدليله لها كما يفعل مع الأخريات فقد لاحظت أن اهتمام الناس في هذه المنطقة بالمظاهر وبالمال أكثر من اهتمامهم بالأخلاق.

في تلك الأثناء كنت أريد الحصول على كل شيءٍ دفعةً واحدة، وأمي تثني علي فخورة بما أفعله دون أن تكلف نفسها بنصيحة تسديها لي، فكلما حصلت على شيء كان نصيبي منها مزيداً من الإعجاب بذكائي والفخر بما أفعله.

كم كانت أماً غبيةً حمقاء.. لا يهمّها إلا الحصول على المال، أمي هي جهنم التي لا تكف عن طلب المزيد.. ومهيوب عشيق أمي لم يكن ليتردد عن منحي كل ما أريد ليس حباً لأمّي بالطبع وإنما في الحصول على جسدي مهما كلفه الثمن، واستطاع ذلك بكل خسة ودناءة في ذلك اليوم المشؤوم حين ذهبت أمي إلى السوق لشراء فرش البيت الجديد الذي استأجره لنا مهيوب، رفضتُ الذهاب معها لأني أريد القيام بالتنظيف.. سمعت يومها حركة في الخارج وحين خرجت أستطلع زُرِعَ أمامي مهيوب بعينين تأكلان جسدي شهوة، خفت وتراجعت رافضة التصديق أن باستطاعته إيذائي.. عدت للمطبخ متحججة بصنع القهوة،

أعضاء جسدي أخذت ترتجف.. سمعت دقات قلبي المتسارعة إلى أذني، حاولت مسايرته وأنا ما زلت رافضة أن أصدق تحرشه بي اعتقدت أنه يمازحني فلقد جرت العادة أن يعانقني ويلاطفني أمام أمي، لكن اختلف المشهد الآن وطرحني أرضاً محاولاً تقبيلي.. جاهدت بدفعه وصده عني.. عجزت.. وحاولت وقاومت.. ورجوته ألا يفعل من أجل أمي.

تبتسم ساخرةً.. وهي مازالت تنظر للمرآة كم كنت بريئة.

أجابني بصوت مرتجف بشع والعرق يتصبب منه وهو يشدني إليه.

- أمك أصبحت عجوزاً تقترب من الأربعين.. لكن أنت!! فاكهة حان قطافها..

ألم رهيب في فضاء مزقه صراخي بالمنزل الذي ما زال خاوياً.. لم أعد أسمع شيئاً.. استسلمت لذلك الألم فلقد مضى الوقت المحدد لإنقاذي.. نهض عني لاهثاً كالثور، تراءت صورة وجهه أمامي بهيئة مصاص دماء يفترس كل حلم عشته حتى هذه اللحظة.. مصاص دماء تمضغ أنيابه آخر نبضات قلب عاشها أبي قبيل أن يراه مع أمي.. ودون وعي مني قفزت وأمسكت به.. ركلته بقدمي غارسة أسناني وأظافري في وجهه.. تحولت لمجنونة لا تعي ما تفعل.. ولم أعرف كم مضى من الوقت وأنا أقوم بضربه ولم أصحو إلا حين صفعني بقوة وقعت بها على الأرض.. كانت هذه الصفعة المؤلمة الثانية التي تلقيتها في حياتي.. أول صفعة كانت من أمي حين قتلت والدي وهذه الصفعة الثانية حين قتلني من تشارك مع أمي بقتل أبي.

صدقيني أيتها الشرسة الجميلة لم أكن أنوي ضربك لكنك ما عدت قادرةً على السيطرة على نفسك، قال هذا الكلام وهو يشعل سيجارته.

قلت له:

ـ سأحكي لأمي كل شيء.

فأجاب:

- إن أحببت الاستغناء عن هذه الرفاهية تكلمي.. إن أحببت العودة إلى الحي القذر والناس الموبوءين تكلمي.. إن رضيت الاستغناء عن حلمك الجميل.. فتكلمي.

وتكلمت ولم أكترث لتهديداته.. كنت حينها مستعدة للاستغناء عن كل شيء مقابل الابتعاد عن مصاص الدماء هذا.. وكنت على استعداد للعمل خادمة في البيوت بشرط أن يبتعد عن حياتنا.. وتكلمت وشرحت لأمي كل ما حصل بالتفصيل.. وكانت المفاجأة أن أكثر ما آلمها هو ليس ما فعله بي.. بل حين قال عنها بأنها عجوز!!

ظللتُ كورقة خريف سقطت عن غصنها لتتقاذفها رياح أم شريرة وزمن أشد شراً، واستمرت تلك الورقة مشردة في داخلها إلى أن تعرفتُ على إيزاك.

تتنبه على طرق الخادمة الباب لتخبرها بضيف ينتظرها في الصالون.

١٠

# الفصل العاشر

سنبقى سابحين
في الفراغ حين لا
نحاول أن نتعلم كيف
نغوص في العمق..

خطوات سيرين المتثاقلة تردداً لا تعباً.. تحكي كل خطوة منها عن ألف وجع لجروح سُكب فوقها ملح.. لا غرابة فكل شيء أصبح مالحاً كتربة الوطن.

دخلت سيرين المكتب المؤلف من طاولة فوقها مجموعة أوراق مبعثرة وكرسيين ممزقَي الجلد كأحلام رجل فقير.. وخلف الطاولة يجلس صاحب المكتب ووراءه يقف رجلان أحدهما على يمينه والآخر عن يساره كأنهما ملكا الموت.. جانو هو اسم صاحب المكتب كما قال لها حين صافحها بأصابع تزينها خواتم ضخمة لا تليق بأصابعه الثخينة والقصيرة أما رقبته فلا أثر لوجودها.. استغربت من تلك الحمولة الزائدة من مجموعة قلادات ذهبية تحكي قصة رجل حاول الانتقام من جوعه وانتصر، لا تدري لماذا انتابها شعور بأنه مهيأ للاختناق بين كل جملة وفاصلة وكأنه أخذ وعداً على نفسه بألا يتوقف عن كلامه حتى آخر نفس.. ليبدأَ رحلة التنفس من جديد.

ارتبكت لسؤاله عن الإجراءات اللازمة.. لكن ماهر أنقذها مستفسراً عن كل ما يخص عملية التهريب وعن تكلفة الرحلة.

أجابه جانو وكأنه يلقي محاضرة:

- هناك ثلاثة طرق للرحلات، كل بحسب ما يريد.. البالم والسعر المخصص له يبدأ من ١٠٠٠ حتى ١٣٠٠ يورو، والقارب السريع الذي يتسع لشخصين هما السائق والمسافر ولا يمانع صاحبه بتعليمك كيفية تشغيله وقيادته وهذا أمر سهل على كل حال، ثم استطرد بعد أن وجه نصيحته لهما بأنه يرى أن يقوم بالقيادة من يريد استئجاره بدون صاحب المركب فكثيرون من أصحاب هذه القوارب يقومون بإلقاء الراكب في عرض البحر بعد قيامهم بكسر المحرك ومن ثم العودة وقد قبض الثمن سلفاً.

تنهد قائلاً... (ناس ولاد حرام).. ثم تابع كلامه:

- وهذا يكلفك بين ١٣٠٠ وحتى ١٧٠٠ يورو، أما الرحلة الثالثة فهي في اليخت السريع والسعر يبدأ من ١٥٠٠ وحتى ٢٨٠٠ يورو

ثم أردف قائلاً:

- كما سبق وقلنا بأن المكتب مضمون ويتعامل بكل أمانة مع زبائنه وإذا أردت استرداد المبلغ فبإمكانك ذلك ولكنك ستفقده بعد مرور ثمان وأربعين ساعة.

سأله ماهر عن الضمانات التي تؤكد له بأن النقود ستعود له في حال حدوث طارئ؟

أجابه وهو ينهض عن كرسيه مودعاً لهما بلباقة قبل أن يعلنا هما خروجهما:

- لا تهتم لهذا الأمر فهذه الورقة يوجد بداخلها شفرة مكتوب عليها اسم المهرب الذي سيقوم بالمهمة طبعاً دون أن تنسيا بأن للمكتب عمولة خمسة بالمائة، وهذه لا تسترجع في أية حال.. ثم صاح كمن تذكر شيئاً مهما:

- آه.. لا تنسيا طبعاً أن الرحلة لا تقوم إلا ليلاً تفادياً للشرطة والمشاكل التي ممكن أن تؤدي لإعادتكما إلى المخيمات، ولم ينس أن يكرر إصراره بأنه لو حدث مثل هذا الأمر فلن يعود بإمكانهما استعادة أي مبلغ.

المال.. المهم فقط المال وألا يعيد ما دخل جيوبه.. مثله مثل كثيرين لا يهمهم غير هذا المعبود.

شيفرة؟!! ترددها سيرين وهي تمشي بخطى متثاقلة بعد حصولها على ورقة الهروب التي مزقها جانو من دفتر صغير كان أمامه على الطاولة.. بعدما وافق على قبض مبلغ ١٢٠٠ يورو بدلاً من ١٣٠٠ فكما قال.. لقد حزن من أجلها ولذلك قام بتخفيض مبلغ ١٠٠ يورو ولم ينس في غمرة حزنه عليها اقتطاع ٥ بالمائة طبعاً.

حين نظرت للورقة لم تجد بها شيئاً يُذكر سوى اسم الشخص الذي سينقلها مع آخرين بواسطة البالم للساحل اليوناني ممهورًا بتوقيع صاحب المكتب.

انتابها شعور بالقلق من تلك الورقة التي لا تحمل طابعاً ولا ختماً رسمياً ولا أي شيء يدل على إمكانية الاعتراف بها من مركز الشرطة في حال حدوث شيء.

شيفرة!!

**ورقة تشبه أوراق عمرها المشفرة التي ضاع منها الفرح برحيل**

**أمها وطفلها الوحيد وزوجها الذين أخذوا معهم الرقم السري الذي كان يفتح باب سعادتها.**

إذن علينا الانتظار حتى حلول الظلام.. قالها ماهر وهو يناولها كوباً من الشاي.

في الموعد المحدد والمكان المتفق عليه صعد الركاب الأربعون.. وتوزعوا على سيارتين كل منهما تتسع لستة عشر راكباً فقط، استطاعوا تدبير أنفسهم فالمسافة للشاطئ لا تزيد عن ساعة.. لكنها استمرت خمس ساعات اضطر السائق خلالها لتغيير مسار الطريق السريع واستبداله بطريق ترابية مهجورة نسبياً متفادياً مصادفة الشرطة، وعند طرف الغابة طلب السائق من الركاب النزول لإكمال سيرهم نحو الشاطئ مشياً على الأقدام.. صرخت امرأة مسنة بوجهه:

- لقد اتفقنا على أن يتم توصيلنا حتى الشاطئ وليس على طرف الغابة.. ثم إننا نجهل جغرافية المكان ونجهل ما قد يحصل لنا وماذا يمكن أن تواجهنا من مشكلات.

أجابها بأنه تلقى اتصالاً بتوخي الحذر، فالشرطة تقوم بتمشيط المناطق وحجز السيارات المشكوك بأمرها وإعادة اللاجئين، عموماً لا تهتموا لهذا الأمر فهناك شاب سيأتي الآن ويرافقكم ليدلكم على الطريق موجهاً كلامه للجموع.. اعترض قسم من اللاجئين وبان الغضب على وجوههم.. صرخ السائق بحنق وعصبية: من يريد المضي أهلاً وسهلاً به ومن يريد الاعتراض فليعد من حيث أتى وباي باي أوروبا.

الطريق وعرة وعليهم توخي الحذر فالظلام دامس وليس هناك إلا ضوء القمر الذي يظهر كل حين عند انحسار الأشجار الحاجبة لضيائه.. وعليهم في تلك الأثناء اتباع الخطوط التي طليت بدهان أبيض على

الشجر.. بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات واجههم انحدار مزروع بأشجار الزيتون ومنحدر وعر جداً تطلب منهم شبك أياديهم ليتراءى للناظر إليهم من بعيد وكأنهم حبل مرسى سفينة ينتفض ويتشنج ألماً مرتجفين خوفاً وغضباً.

الظلام دامس والساعة اقتربت من الثالثة فجراً وقد تجاوزوا المنحدر الوعر الذي تبعه منحدرٌ وعرٌ أكثر من سابقه، وقد أخذ التعب والإرهاق والجوع كفايته من أجسادهم وبطونهم.. طلبت امرأة شابة منهم التوقف للراحة لكن المهرّب رفض بحجة عدم الوصول مع بزوغ الشمس، لم يكد يتم كلامه حتى سقطت مغشياً عليها.. أسرعت سيرين ناحيتها طالبة من الآخرين الابتعاد كي تقدر على التنفس.. رفعت قدمي الشابة ووضعتهما على فخذيها.. في هذه الأثناء قدم لها ماهر زجاجة ماء غسلت بها وجهها وقدميها إلى أن استعادت وعيها وطمأنتها أنها بخير وبأن سبب ذلك حملها في الشهر الثاني.

**وجوه الأطفال كالحة بالهم والقهر.. صمتهم ألم كاوٍ يصرخ معلناً براءته من حقوق حماية الطفل.. تشرح إطارات السيارات المحمولة على أكتافهم لحمايتهم من الغرق غرق كل المنظمات الإنسانية في وحل الكذب.**

**حقوق الإنسان كذبة ضحكوا علينا بها بإعلانات دعائية صدقنا من خلالها أنهم إنسانيون لزيادة أرصدتهم في البنوك والتسول باسم أطفالنا تحت شعار حماية حقوقهم.**

**والمستفيد منها ليسوا الأطفال بل أباطرة مال يراقبون باهتمام وحرص أخبار البورصة أكثر من حرصهم على مشاعر أطفال أسهمها آخذة بالهبوط.**

تصحو من شرودها ولم تعلم كم سارت وهي تفكر بأولئك الأطفال الذين أنسوها قليلاً فقدان وحيدها المدفون بجوار قبر أمها وتخيلت منظره وهو يحمل إطار سيارة أثقل من وزنه الضعيف، هزت رأسها باستنكار وحزن بينما يستعدون للدخول إلى الحظيرة منهكين رامين أحمالهم مستسلمين للنوم غير آبهين بالتبن فأمام راحة نادرة كهذه وبظروف قاسيةٍ لهاربين من الحرب.. يتحول التبن تبراً والحظيرة قصراً.

**يا للعار حين نلجأ لبيوت الحيوانات للاحتماء بها من البشر.. يا لخجلي من الحيوانات التي ترفض تقليدنا وترفض ترك قطيعها بينما نهرب عند أول فرصة منسلخين عن قبيلتنا.. ليتنا نتعلم من الحيوانات صبرها وقوتها وعدم مبالاتها بمال أو بجاه.. ليتنا لم نكن بارعين في تقمص أدوارها.. تقمصنا مراوغة الثعالب، وجبن الطيور، وأذى العقارب.. وبلغ فينا المكر أن نتشفى فرحين حين نشاهد أسدًا أو نمرًا أو فهدًا محبوسين داخل أقفاصهم.. نتشفى لأننا مقتنعون بعجزنا وجبننا بالدخول عليهم حتى لو كانوا متخمين.. أصبحنا نشكل خطراً على أنفسنا من أنفسنا.. فالأزمات دوماً تجرّ وراءها ردود أفعال غير محمودة العواقب.**

يا للعار أمام أطفال أفراحهم مفخخة.. يا لحزن سيرين حين تخيلتهم وقد تحول كل منهم إلى ماوكلي فتى الأدغال وإلى بطل مات غرقًا أمام مرأى من العالم دون عمل شيء سوى الاستنكار والتأسف وفتح المزيد من المعارض التصويرية التي تَمنح مبالغ ضخمة لمصوريهم الذين يقدمون للمعرض الصورة الأكثر تأثيراً في العالم.. ومن شروط التصوير أن يكون الطفل ميتاً تخلو من جسده مناظر العنف والدم (يفضل أن يكون غريقاً) كي لا يؤذي بمنظره مشاعر الغربيين.. كأن العالم أصبح منافقاً وكل ما فيه مزور، الأشخاص والثورات والأبطال الوهميون والعُملات والحبر والجرائد والكتب ونشرات الأخبار.. حتى الفقراء المشرّدين على

الأرصفة ليسوا أكثر من أداة لكاميرا صاحبها محترف تزوير.

**ماذا ينفع العالم هذا التقدم العلمي حين يعجز عن تقديم بسمة لطفل في واحة أمان يتنفس فيها هواء غير ملوث بالجشع والطمع والمتاجرة ببراءته وأعضائه؟؟**

ولمَ ألقي باللوم على العالم؟ العيب فينا حين لم نكن يوماً شعوباً تفكر بصنع مصيرها بيدها وتركت نفسها ألعوبة بيد الآخرين، نحن من قمنا بقتل أنبيائنا ومعلمينا وجاء اليوم دور الحساب.

يا للعار على أبناء البلد الواحد الذين رفض معظمهم استقبال أبناء جلدتهم من الذين قُصفت قراهم المحيطة بالعاصمة ونزح سكانها إلى دمشق، يا للعار حين رفع تجار الأزمة أسعار السلع بكافة أنواعها.. و يا للعار من رفع إيجارات بيوتهم أمام النازحين من داخل البلد دون أدنى شعور لاحترام نقطة ماءٍ شربوها معاً من نبع ماء واحد كان يغذي المدينة كلها.. ودون وخز من ضمير يوقظ فيهم مروءةً غطّت في النوم ولم يوقظها معرفة أن أكثر من استجدى لقمة أو مسكناً كان سيداً في منطقته.. يا للعار حين نزعنا أقنعتنا وبانت وجوهنا البشعة على حقيقتها عند أول أزمة.. **يا للعار حين تتحول أزمة الوطن إلى أزمة أخلاق.**

# الفصل الحادي عشر

ككرة مطاطية تقفز
وحلمها الوصول
للقمر.. والهر يعتقد
أنها تلاعبه...

يُفتح باب الزنزانة بصريره المخيف.. يسحب الملازم مهجة من زاويتها المكومة بها كجنين.. يجرّها من ياقة قميصها وراءه كنعجة جاهزة للذبح.. لم تستطع التفوه بأي كلمة، فخوفها كان أقوى من الكلام.. يجرها في الممر متجهاً لغرفة الضابط وتلحقها أصوات التعذيب دون أن يسمعها أحد من العالم المتخفي وراء جمعيات حقوق الإنسان والجمعيات الإغاثية.. تكاد تتقيأ وهي تشم رائحة الدم الذي لم تستطع المنظفات إزالتها هذا الصباح كما كل صباح.

نزع يده عنها بعد أن دفعها إلى الحائط، وحين لم تتمالك نفسها قام بركلها بقدمه آمرًا إياها بالوقوف.. كانت ركبتاها ترتجفان فمدة شهر قضتها في المنفردة جعلتها تأخذ وضعية معينة لا تستطيع من خلالها الوقوف لفترة طويلة.. لم يطل وقوفها كثيراً إذ أدخلوا ركبتيها داخل إطار سيارة تستقر ركبتاها بداخله على كومة من الحديد.. داخلتها حالات من الاستنفار والذعر والخوف سيطرت على كل جزء من أعضاء جسدها.. مضى حوالي أكثر من نصف الساعة في غرفة المحقق وهي على

الوضعية ذاتها معصوبة العينين.. لا حركة ولا نفس ولا سؤال سوى سماع دوي باب يُصفق بشدة ومباغتتها بصفعة قوية على وجهها كل عشر دقائق بحسب توقيت ذعرها.

- ما هي اعترافاتك بما نُسب إليكِ؟ سألها الضابط بهدوء:

- لا أعلم شيئاً ولا أعلم لماذا أنا هنا.

صرخ..

- لا تكذبي فالإنكار لن يفيدك.

- أليس من الأفضل فك العصبة عن عيني، وستشاهد إن كنت أكذب أم لا.. أليست العيون تفضح أصحابها؟.

- مممممم.. أمر الضابط بفك عصبة عينيها وإبقاء يديها مقيدتين.

التفتت إليه مسترجعةً بصرها بعد عدة ثوانٍ نتيجة العتم.. رأته شاباً وسيماً يوحي شكله باللامبالاة والاستهتار واللؤم.. رجلاه على الطاولة موجهة تماماً صوب وجهها.. يداه تعبثان بورقة يحركها بفوضوية، ووجهه بحالة من الاشمئزاز والكره وعيناه تبوحان برغبةٍ في دفنها حية.

بصوت خفيض لا يخلو من الحنق قال لها:

- عيناك تكذبان، وأنت كاذبة.. اعترفي قبل أن ينفذ صبري.

سمعت اصطكاك أسنانه، شعرت بخوفٍ شديد وأخذت تستجديه أن يصدقها.

- صدقني حتى هذه اللحظة لا أعلم ما الذنب الذي اقترفته.. أتوسل إليك أن تصدقني.. أقسم لك بأني لا أعلم أي شيء كل ما أعرفه هو أنني كنت في طريقي للبيت عندما خرجت من الجامعة وكان بالقرب

من شارعنا مظاهرة يطالب أصحابها بالحرية.

قبل أن تكمل كلامها انتصب واقفاً كثور هائج وركلها بقدمه على وجهها!!

- هذا ما تريدونه؟ حرية؟ ألستم أحراراً بما يكفي من الحريات.. ماذا تريدون بعد؟

أجابت بصوت مرتجف وهي تبكي وخوف العالم قد سكن كل جزء في جسدها:

- ولكن ما ذنبي أنا حين أتواجد في مكان حصلت به تلك المظاهرة.

أجابها وكأنه قد وصله خبر عاجل بأنه هو من اكتشف الجاذبية الأرضية بنفس الثقة تماماً:

- ذنبك أنك.. أنك.. كنت هناك.. بالطبع لأنك كنت هناك.. صحيح ماذا كنت تفعلين هناك؟؟

أصابتها الدهشة.. يا إلهي كل هذا الغباء لا أصدق.

- أجيبي على سؤالي.. هيا قالها صارخاً وهو يهوي بكفي يديه على وجهها.

- من الضروري أن أمر من الشارع ذاته فبيتي في تلك المنطقة كيف لا أكون هناك!!

بذعر وضعف وخوف تستجديه أن يصدقها!

ـ عفوك سيدي ألم تطلع على الإضبارة التي بها كانت تلك المظاهرة.

- طبعاً طبعاً.. ثم استدرك نفسه بأنها هي من يقوم باستجوابه..

وصـرخ بهـا

- اخرسي، هل تحققين معي أو تعتقدين يا.... بأني لا أعلم شيئاً؟

أجابته بينها وبين نفسها:

أقسم بأنك لا تعلم أي شيء!

كان يروح ويجـيء أمامها وهـي ما زالـت جاثية على ركبتيها فـوق كومة الحديـد محتملـةً ألماً لا يُوصـف، وممـا زادهـا توتـراً وخوفـاً.. توجيـه سـؤاله بحـدة وعصبية:

- أين الفيسبوك خاصتك؟

رفعت رأسها باتجاهه مندهشة.

- عفـواً لـم أفهـم قصـدك مـاذا تعنـي بسـؤالك؟ لقـد قـام العناصـر بمصـادرة هاتفـي الجـوال وبإمكانـك البحـث عمـا تريـد.

احتقن وجهه باحمرارٍ غَضِب والذعر نائب عنها في حالتها تلك.

صرخ بها ممسكاً شعرها يلوح به رأسها بيديه.

- أيـن أخفيـت الفيسـبوك، لأيـة جهـة أعطيتـه قبـل مصـادرة جوالـك.. الفيسـبوك الـذي بداخلـه شـبكة ارهابيـة.

أدركـت لحظتها بأنه كلما ازداد جهله بالأشياء ازداد معه حـدة انفعالاتـه وبطشـه، وعرفـت بأنـه علـى جبهـات حربٍ بينـه وبيـن التكنولوجيـا.. معتقـداً بأن الفيسـبوك هـو مجـرد أوراق والشبكة العنكبوتية للتواصـل الاجتماعـي هـي شـبكات إرهابيـة تهـدد أمـن الوطـن.. كادت تضحـك رغـم كل الخـوف حتـى البـكاء.. كادت تطلـق صرخـاتٍ وجـع تقـول لـه بهـا.. يـا أسـفي حيـن يحكمنـا أمثالـك..

أجابته بعد أن وشوشتها صديقتها الأفعى:

- ارفعي رأسك وجاوبيه جواباً يشبه غباء سؤاله.

- أخاف أن يؤذيَني

فحت في أذنها هامسة:

- حين ترفضين الدفاع عن نفسك فلا تلوميه هو، بل لومي نفسك، هيا اختاري الآن جواباً على قياس جهله.. هيا.

- لقد مزقتُه يا سيدي.. لأن الفيسبوك خاصتي لا يحمل سوى محاضرات الجامعة وحين نقلت المحاضرات إلى الورق مزقته فما حاجتي إليه؟

قالت هذا الكلام وهي تحدث نفسها بعد أن انسحبَ قسمٌ كبير من الخوف الذي بداخلها كجيشٍ مهزوم.

سأجاريه بجهله وإلا قتلني لجهله بعلمي.

جلس على كرسيه يجر انتصاراته العلمية ومعها ورقة الفيسبوك التي اقتنع على ما يبدو بأني مزقتُها أو ربما هو من أراد التصديق، إذ لا خيارَ لديه غير ذلك طالما أنه لا توجد حقيقة غيرها يعلمها.. على الأقل حتى الآن.. صديقتي الأفعى كانت محقة.

قال لها ببرود يشوبه الاشمئزاز نفسه:

- لو لم تعترفي لكنت الآن تصعقين بالكهرباء.

**لن يكون يا سيدي أشد إيلاماً ممن واجبه حمايتي لا قتلي.. قالتها بينها وبين نفسها فالجرأة التي تتعدى الحدود في مكان كهذا تعني القتل.**

أخرجها الملازم نفسه الذي أحضرها بعدما وقعت على أوراق مُنعت من قراءتها.. فهنا هم يكتبون ما يحلو لهم ممهوراً بتوقيعنا نحن.. لم يعيدوها إلى الزنزانة الفردية بل إلى جهةٍ أخرى.

# الفصل الثاني عشر

الحنين هو المسكن
الفعال للروح..

تقترب زيزي من الضيفِ المفاجئ.. وجهه ليس غريباً عني.. تقولها محاولة استرجاع ذاكرتها، وقبل أن تسأله عن هويته عرفها عن نفسه.

أنا رضا، جاركم في الحي القديم، تذكري جيداً كنت أعمل في محل لبيع وتأجير أشرطة الفيديو.

تذكرته زيزي جيداً.. كان يقوم ببيع الأفلام الإباحية صباحاً، ويعمل حارساً شخصياً لراقصات الملاهي ليلاً حين يلزم الأمر.. دخل السجن أكثر من مرة، باختصار هو خلاصة قذارة مجتمعة داخل شخص.

تبالهت مدعية أنها لم تعرفه.

- لا تأبه قل ماذا تريد، ومن دلك على بيتي؟

- ما شاء الله لقد أصبحت مشهورة مثل بطلات الأفلام، هل هناك من لم يسمع عن السيدة زيزي سيدة المجتمع الراقي والتي لا تكف عن تقديم المساعدات للفقراء والمحتاجين بجمعياتها الخيرية؟

- قل ماذا تريد لا أحب سماع ديباجة من هذا النوع.. كم تريد من المال؟

انحنى محاولاً تقبيل قدميها راجياً أن تحميه وسيكون خادماً لها مدى العمر.

دفعته بعنف حين دخل ثلاثة رجال أمسكوا به وطرحوه أرضاً.

توقفوا.. صرخت زيزي بهم ودعونا وحدنا إنه ابن إحدى صديقات أمي.

خرج الرجال ورضا غير مصدق لما رآه.. من أين أتى هؤلاء؟ إنه متأكد من أن البناء كان خالياً تماماً من الناس.

عرفت زيزي بما يفكر لذا طلبت منه ألا يُتعب نفسه بالتفكير بأمور لا تعنيه، وسألته بهدوءٍ حذر.

- لماذا أحميك؟ وممن؟ ولم اخترتني أنا بالذات؟

وقبل أن يباشر كلامه رفعت إصبعها في وجهه وبتعابير وجهها الهادئة وبصوت لا تخلو نبرته من التهديد محذرة إياه من مراوغتها أو الكذب عليها.

- سأقول لك الصراحة، مع أني وقبل دخولي إلى هنا لم أكن أنوي قول الحقيقة كاملة.. سأشرح لك قصتي بالكامل.

عملت ببداية حياتي أجيراً في محل صغير لتأجير أشرطة الفيديو وبيعها بالإضافة لعملي كحارس شخصي للراقصات وبنات الليل، وفي هذا العالم تعرفت على راقصة اسمها قمر، وأحببتها لدرجة العشق وهي أحبتني (هكذا قالت وصدقتها)، استمرت علاقتنا عاماً ونصف العام وفي تلك الأثناء اضطررت لتشكيل عصابة تقوم بسرقة البيوت والمحلات والسيارات، إذ لم يعد بمقدوري تغطية مصاريف السهر ومصاريف قمر التي لا تقف عند حد.. كنت أغرق دون أن أشعر بأن مياه النهر قد جرفتني

ولم يعد بمقدوري الخروج إلا بمعجزة، والمعجزة هي أن نقوم بخطف أولاد الأغنياء وطلب فدية، وبالفعل نجحنا حيث قمنا بخطف أولاد تجار وكسبنا الملايين من الليرات.. هذه الأحداث بدأت بالتصاعد بعد مضي عام ونيف على ما أسموها ثورة، في تلك الأثناء أصبحنا نتعامل بالدولار نتيجة هبوط الليرة، وأما التجار فيتم خطفهم بعد استدراجهم عن طريق فتيات، أشكالهن مغرية وماهرات بصيد الرجال بحيث يصعب على أي رجل أن يقول لهن لا.. كن يدخلن محلات هؤلاء التجار المشهورين بشرائهم بحجة الشراء وبعد زيارتين أو ثلاثة تخبره إحداهن بأنهن يملكن صالة للمساج تعتمد بعملها على السرية التامة فكما تعلمين مثل هذه الصالات ممنوعة في المدينة.

أغلب التجار الذين وقعوا فريسة تلك الفتيات هم رجال مشهورون يخافون على سمعتهم في السوق أو داخل مجتمعاتهم الراقية لذلك كان أكثر ما يشدهم هو جملة (بسريةٍ تامة) ومن خلال تلك الكلمة السحرية يقع التاجر فريسة لهن، حيث يتم استدراجه، وبعد وصوله للصالة والتي هي عبارة عن كراج للسيارات يتنبه بأنه وقع فريسة مكيدة، وأثناء محاولته الهرب أكون قد حضرت مع الشباب وقيدناه في الكراج نفسه بعد تفتيشه وأخذ هاتفه وإغلاقه حتى اليوم الثاني الذي نطلب فيه أن يكلم أهله أو أبناءه مطالباً بفديةٍ معينة يحضرونها لمكان نختاره بعد تحذيرهم وتهديدنا بقتله إن حاولوا الاتصال بالشرطة.. الجميل بالأمر أنه ما من أحد من هؤلاء الضحايا قد أخبر الأمن لسببين.. أولهما خوفهم من الفضيحة والحفاظ على سمعتهم ومراكزهم، وثانيهما أنهم يعلمون تماماً بأن الشرطة لن تصل لنتيجة، بل سيتم ابتزازهم بالنقود كما جرت العادة حين يلجأ أحد للشرطة بشكوى سرقة ما.. فيقومون بالدفع لهم أكثر من المبلغ المسروق.. وبدون نتيجة.

سارت الأمور على ما يرام وأصبح المال يزداد يوماً بعد يوم، وقمر

سعيدة.. إذ اشتريت لها سيارة في عيد ميلادها وبيتاً سجلته باسمها قريباً من الملهى الذي كانت تعمل به بناءاً على طلبها.. ذات يوم طلبت الزواج منها وطالبتها باعتزال الرقص كي تتفرغ لي ولبيتنا.. فرفضت بحجة أنها لا تفكر الآن بهذه المسألة التي يمكن أن تلهيها عن عملها الذي استطاعت من خلاله تسجيل أخيها في الجامعة وشراء بيتٍ لأمها وأخوتها في إحدى المحافظات.. قلت لها: بأني سأكون المسؤول عنهم لكنها بقيت مصرة على رفضها.. مضت ستة أشهر وأنا لا أتردد جاهداً في كل مناسبة محاولاً إقناعها بالزواج وهي مصرة على الرفض.. إلى أن جاء يوم ألقت الشرطة القبض فيه على صبي من صبياني يحاول كسر نافذة سيارة معترفاً بالتحقيقات عني وعن البقية فقامت الشرطة باقتحام بيتي وأخذي.. وبعد التحقيقات حُكِم علي بالسجن مدة عامين بتهمة السرقة الموصوفة.. لكني خرجت بعد عام واحد حين قمت بدفع مبلغٍ كبير من المال لأحد المسؤولين وتمّت تبرئتي بعد إعادة النظر بالقضية لعدم كفاية الأدلة.. خرجت من السجن غير مصدق متى سأتمكن من الوصول للبيت ومفاجأة قمر التي كانت تزورني ولا تكف عن البكاء طيلة الزيارة وهذا ما زاد من حبي لها وخوفي عليها.. لهذا السبب دفعت كل ما أملك للخروج والبقاء إلى جانبها.

خرجت ودقات قلبي تسبقني قبل خطواتي، فرؤية وجهها ومعانقتها هي الحياة.. وجودها بقربي سيمحو كل قهر عشته وراء القضبان.. أنا لم أكن حرًّا عندما خرجت من السجن بل ستتحقق حريتي حين أرى قمر.. فقط قمر حبي وعشقي وملاذي ومستقبلي وعمري.. قمر هي أوكسيجيني الذي أتنفس من خلاله عبق كل شيءٍ جميل في هذا العالم.. دموعها التي كانت تنزل لقاع قلبي كلما زارتني تؤكد لي بأنها لن تتردد بالموافقة على الزواج مني.. خطواتي تتسارع ومعها دقات قلبي كلما اقتربت من المنزل.. لم يتبق سوى عشرين خطوة تقريباً وأفتح الباب وتستقبلني

بدموع الفرح.. كانت الخطوات تلك تساوي عمراً كاملاً من الانتظار، كانت أصعب عشرين خطوة في حياتي.. وصلت أخيراً، فتحت الباب.. كان المكان مليئاً برائحة التبغ.. اعتقدت بأن إحدى صديقاتها في زيارة لها فقمر لا تشرب السجائر، وعلى الطاولة رأيت زجاجة ويسكي تكاد تكون فارغة وقدحين أحدهما لم ينته صاحبه من شربه بعد.. جبُنت بالدخول لغرفة النوم كانت مشاعري مختلطة بين التصديق وعدمه.. بين النعم واللا.. بين الممكن والمستحيل.. بين دموعها وبين حبي.. استجمعت قواي ودخلت أخيراً.. تجمدت كبطلٍ مات على خشبة المسرح حقيقةً لا تمثيلاً.. جرَّت اللحاف لتغطي به جسدها.. وعشيقها أو حبيبها لا أعرف سمّه ما شئت، يحاول تهدئتي وشرح الموقف كما يحصل في الأفلام العربية الهابطة.. بكل هدوء طلبت منه ارتداء ملابسه والخروج.. بدا منظره مضحكاً وهو يرتدي ملابسه على عجل ويتعثر ويقع كلما رفع قدمه.. صرخت به أن يخرج ليكمل ارتداء ملابسه بعيداً عن وجهي.. لا أريد قتله.. أريد قتلها وحدها كي لا يشك بي أحد.. قتلتها.. نعم قتلتها بزجاجة الويسكي التي شهدت حديثهما وقبلاتهما وعناقهما.. غرزت نتوءاتها بعدما حطمتها على طرف السرير الذي كان شاهداً على أحلى أيام حياتي.. غرزت ألمي وغبائي وقهري في جسدها الذي تلوى أمامي فيما مضى رقصاً كنت أعشقه، رقصاً تهتزّ أركاني عشقاً له كلما هزت بخصرها.. ثم سكبت في أذنها قبل أن تغادر الحياة...... الآن ارقصي رقصتك الأخيرة.

امرأة هزت عرش حياتي وهي تتلوى أمامي كأفعى مصدقاً لسنوات أنها أحبتني.

بقيت متوارياً عن الأنظار فترة طويلة.. لم أتردد خلالها بتقصي الأخبار التي يرددها الناس في تلك المنطقة.

سرت إشاعات كثيرة ولم تذكر شائعة منهم ذكراً لي.. فأغلب الذين

يعرفوننا لا يعرفون أني خرجت من السجن.. ومن مثلي لا يقوم أحد بزيارته.. ربما خوفاً أو تفادياً للاشتباه به، والبلد مليء بالفوضى وما من أحد مستعد للاعتقال تحت شعار محبته وزيارته لي.. فالأخطاء والتباس الأشياء وتداخلها وارد نتيجة الحاصل في المدينة.

- إن كنت قد تواريت عن الأنظار كما قلت.. كيف تحركت بكل تلك الحرية حتى لو كنت ماهراً بالتواري؟ أين كنت تنام وأين كنت مختبئاً.. كيف كنت تأكل ومن أين؟

سألته وهي ترسل نظراتها كأنها محقق بارع.. نظرات لا يمكنه أمامها إلا الاعتراف.

- سيدتي.. قالها وابتسامة ترتسم على وجهه:

- إن أفضل مكان للاختباء هي الأماكن المزدحمة، الأسواق المكتظة والحدائق، كنت أتسول الطعام من المحلات وأقوم بالسرقة كلما سنحت لي الفرصة.. لم أكن أتصيد الفريسة ولم تكن السرقة عملي.. لكن الصدفة كان لها الفضل الأكبر بذلك، صحيح أني خرجت من السجن بإعادة محاكمة وبرأني القاضي.. **لكن داخلي يرفض تلك البراءة.. ولذلك ترينني أعيش خائفاً.. الخوف ليس من الناس والشرطة بل من نفسي وممن قتلتها.. تبرئة أي قاتل ليست بيد المحكمة بل بيد المقتول نفسه.. من أين لي بإعادة قمر وسماع حكمها علي؟**

استمر في كلامه ويداه ما زالتا بين ركبتيه مخفضاً عينيه للأرض تارة ناظراً إليها تارة أخرى.

- سئمت من الهرب حيث استطعت سرقة حقيبة من يد فتاة لأجد بداخلها جوالاً ونقود، رميت الشريحة التي كانت بالجوال واشتريت

أخرى جديدة ثم اتصلت بأحد الشباب الذين كانوا يعملون معي في محل تأجير أشرطة الفيديو.

تواعدنا مساءً بعد أن طلب مني أن أنزل من سيارة الأجرة قبل الحاجز بعدما رسم لي خارطة أسير من خلالها بين الحارات تفادياً للحواجز والسين والجيم، فعلت ما طلبه مني ووصلت المنزل في إحدى قرى دمشق والتي لا تبعد عنها سوى خمسين كيلو متراً وكان ما رأيت مفاجأة فهمت من خلالها لم طلب مني عدم الدخول بسيارة أجرة فالحواجز الموجودة والسواتر الرملية والجنود جعلتني أظن بأني هبطت فجأةً فوق جبهة الجولان.

أبدت زيزي اهتماماً واضحاً على غير عادتها، فطبيعتها برصد انفعالاتها والتحكم بردود أفعالها جعلت تعابير وجهها مع الوقت جامدة لا تعبر عن شيء سواء أكان الحدث مفرحاً أم مؤسفاً، لكن في هذه المرة اختلف الأمر بالنسبة لها ولا أحد يعلم سبب خروجها عن طبيعتها والتفاعل مع الأحداث.. وقبل أن يتمّ حديثه طلبت من الخادمة إحضار ركوةَ من القهوة بعدما طلبت منه أن يحدثها باستفاضة عن مجريات اللقاء وحين سألها وهل ذلك مهم بالنسبة لك؟؟

أجابت: بل هو الفضول ولم تكن تكذب.

سحب يديه من بين ركبتيه بعدما شعر بأريحيةٍ أكثر من ذي قبل مكملاً حديثه.

- أخبرت صديقي فاكر كل ما جرى معي بالتفصيل ووعد بمساعدتي على قدر المستطاع وحين سألته كيف؟

أجاب:

- لا عليك.. فسيدنا أبي حفصة سيتولى أمرك بعد أن أحدثه عنك

وستعترف أمامه بالتوبة النصوح.

ستتوب أليس كذلك؟ أنا متأكد أنك ستتوب وأنك نادم على كل ما ارتكبته من ذنوب.

ذُهلت ولم أدرِ ماذا أقول، لكني كنت مضطراً لقبول أي شيء مقابل حمايتي وطعامي وإيجاد ملجأً للنوم

ثم هز كتفيه ومطّ شفتيه ساخراً يقول:

- توبة.. توبة.. فليكن، ولكني بقيت حذرًا خاصةً بعدما رأيت لحية فاكر التي كادت تصل بطولها للشارع وبلباسه الأفغاني الذي أدهشني حقيقة حين رأيته لأول مرة بعيداً عن شاشات التلفزة ونشرات الأخبار التي كانت تعنى بالشأن الأفغاني.

- لا بد لنا من الدفاع عن ديننا، دين محمد وآل بيته.

قالها فاكر وهو ينظف سبطانة الرشاش الأمريكي!!

- ما هذا الذي تتفوه به؟ أنا لا أصدق أني أمام فاكر الذي كان......

قاطعني بحدةٍ صارخاً بوجهي:

- صه.. قاتلك الله.. اطلب المغفرة من ربك عما تفوهت به، لقد قبل الله عز وجل توبتي وتأتي أنت الآن لتضعفني بالعودة للماضي.. ثم قطب حاجبيه وأكمل تنظيف رشاشه الأمريكي وهو يتمتم: أستغفر الله أستغفر الله.. ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

قررت من لحظتها تجنّب أي كلامٍ ممكن أن يؤثر على علاقتنا.. فما كان يهمني هو الحماية فقط لا غير.

بعد مرور أسبوعين سمح لي بمقابلة أبي حفصة والذي لا يبعد بيته

أكثر من نصف كيلو متر عن سكن فاكر.. وعرفت فيما بعد بأن جميع الفصائل تلك اتخذت من تلك المنطقة منطقة حدودية لها لا يفصلها عن حاجز النظام سوى بضعة أمتار وسواتر رملية!!

قبل أن أدخل قام شاب لا أعرفه بتفتيشي تفتيشاً دقيقاً وذكرني بالوصايا التي يجب علي تنفيذها بالحرف وإلا سأعاقب عقاباً خالياً من الرحمة وعلى قائمة الوصايا وأهمها هو عدم النظر في وجه أميرهم مهما كان السبب.

دخلت غرفة فسيحة تنبعث منها رائحة بخور كاد أن يخنقني.. واستطعت بثوان معدودة أن ألحظ أبا حفصة أو أمير المؤمنين كما كانوا ينادونه متربعاً على الأرض وعلى جانبيه عدة رجال ملثمين ومدججين بالسلاح اصطفوا عن يمينه وعن شماله.. وقد أحاط المجلس عدة رجال باللباس الأفغاني نفسه والسلاح المتنوع بين الروسي وبين الأمريكي.

بقي بصري منخفضاً للأرض كما أوصاني الحارس في الخارج و فاكر ممسكاً بذراعي إلى أن وصلت إلى الأمير وجثوت على ركبتي أمامه.. مد يده لأقبلها.. ولأرجوه أن يقبلني خادماً عنده وأن يوصي الله بي ويطلب لي منه المغفرة

نفذت الوصايا بالحذافير وبقيت على الوضعية ذاتها ونظري مثبت بالأرض وهو يحدثني بصوت هادئ:

- لا عليك يا بني فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.. فالغاية تبرر الوسيلة والبارحة ذهب مع البارحة ونحن أولاد اليوم بثوب طاهر جديد وقلب يمتلئ حباً بالله، واليوم كي يقبل الله منك عليك أنت أيضاً أن تنفذ أوامره.. لقد أزف الوقت لنصرة هذا الدين، دين محمد عليه الصلاة والسلام وعلى آله الطيبين وكانت تلك المرة

الأولى والأخيرة التي رأيت بها أمير المؤمنين وغرفته الواسعة ورجاله وأسلحتهم وبخورهم وخرجت باسمي الجديد الذي أطلقه علي والذي لازمني طيلة فترة تواجدي معهم... أبو ماريا.

مع مرور الوقت ثبت لي بأن فاكر لم يكن يمثّل علي كما كنت أعتقد بل إنه فعلاً قد تلبسته حالة من التدين لدرجة متطرفة قميئة ومزعجة، لكني كنت مجبراً على تحمل كل شيءٍ إلى أن أجد طريقة أهرب بها، فكل ما يدور لا يبشرُ بالسرور أو الراحة رغم الأموال الطائلة التي كانوا يغدقونها علينا بعد كل تنفيذ لمهمة، مهمة ممنوع علينا الاستفسار عنها أو الخوض في الحديث عنها حتى بعد إتمامها، حاولت كثيراً توطيد علاقات مع المقاتلين الذين كانوا يشاركوننا المنزل لكنني فشلت، فالكلام ممنوع حتى بين بعضنا البعض وحتى حديثي مع فاكر أصبح مقتضباً جداً وكلامنا مجرد إلقاء السلام والدعاء لبعضنا البعض عند كل مهمة توكل إلينا.

مرّت الأيام والشهور والسنة الأولى وأنا لا أرى ذلك النصر المؤزر الذي حدثونا عنه.. والجميع ينتظرون لحظة الاستشهاد ليحظوا بالحور العين أكثر من استعادة البلاد، كانت الحواري يلهينهم عن التفكير بأننا محميون جدًا من الطيران العسكري حين ننتقل أرتالاً من مكان لآخر بسيارات الدفع الرباعي الحديثة وبالأسلحة المتطورة جدًا وبالأموال التي تُرمى إلينا كما كانت ترمى على راقصات الملاهي الليلية.

بات عقلي مشوشاً والأفكار تروح وتجيء، لكني لا أجرؤ على الكشف عما أفكر به لأحد، فمع هؤلاء المغسولة أدمغتهم لا يمكنك أن تتوقعي إلا الشرّ نتيجة جهلهم وغبائهم، وكانوا كلما شاهدوا رجالاً شقرًا وبعيون زرقاء يدخلون ويخرجون من غرفة الأمير يسرعون لصلاة الشكر لله لأن الأمير استطاع إقناع أولئك الكفار بالدخول في الإسلام!!

ذات يوم وبينما كنا نتهيأ لمهمة جديدة لا نعرف عنها شيئاً كالعادة لاحظت وأنا أقوم بتنظيف سلاحي وتهيئته بعينين تراقباني، كانت نظراتنا تفسر الخوف والحرص وحاجة كلينا للكلام ولكن كيف؟

صادف أن اختار نائب الأمير تواجدي مع ذلك الشاب والذي عرفني عن اسمه... أبو الصعب.

خلال الاشتباكات مع الكفار كما كانوا يطلقون عليهم أتت الأوامر بالانسحاب وكان انسحابنا مفاجئاً، فقد كنا على وشك دخول مطار دمشق الدولي والسيطرة عليه لولا أوامر القيادة لنا بالتراجع، حصلت يومها ارتباكات في صفوف قادة المجاهدين وسيطرت حالات من الذعر لا أذكر أني رأيتها قبل اليوم بادية على وجوههم وفي أثناء تلقينا للأمر بالانتظار في أحد بساتين الغوطة التابعة للمطار استندنا أنا وأبو الصعب إلى شجرة ضخمة وهناك تحدثنا بصوت خفيض كي لا يسمعنا أحد، بدأ أبو الصعب كلامه بصوت مبحوح حزين يحمل كل هموم الوطن والعالم والشوق لأطفاله ولزوجته الذين لا يعلم عنهم شيئاً منذ أن التحق بهؤلاء المنافقين.

دهشت والتفت حولي تحسباً لأحد قد سمعه ثم حملقت فيه ورجوته ألا يتكلم وإلا كان مصيرنا كمصير غيرنا... القتل.

لم يبد أي اهتمام بل بقيت نظراته اليائسة معلقة في البعيد البعيد دون أن يرف له جفن.. بدا التعب على وجهه الذي حملت تعابيره اليأس والحزن والقرف ثمّ أردف قائلاً:

- لم يعد مهمًّا حين نُقتل فنحن مقتولون الآن، نحن لم نعد نحن.. ولا هي الثورة التي خرجنا من أجلها.. ألم نخرج كما أوهمونا للقضاء على الفساد الذي استشرى ولم يعد بالإمكان لجمه إلا بثورة تنقلب على

رؤوس كل من يسمون أنفسهم مسؤولين؟ وبينما هم في الواقع ليسوا إلا زعماءَ مافيات تمتص دماء شعب أخرجوه من دائرة العيش إلى دائرة الخوف حتى من نفسه.. وحتى من بعضنا البعض، صرنا نتجنب أي حديثٍ يخص وضع البلد لدرجة أننا لا نجرؤ على الاعتراض حين يرتفع سعر البضائع، فقط علينا دفع المطلوب من فم ساكت والسير لبيوتنا والمشاجرات مع نسائنا وأطفالنا.. ففي البيت فقط يمكنك الشتم والضرب.. وفي العمل يشتمك ويلعنك رب عملك ورب عملك يشتمه ويلعنه أرباب عمله وهكذا ،تدور الدوائر ونحن لا نملك إلا الصمت بقهر أخذ كفايته منا.

أراك يا رضا تنصت لحديثي وكأنك غريب عن البلد، ألم تعاني من هذا كله؟ ما بك مشدوه كالأبله تنظر إلي وكأنك قادم من كوكب آخر؟

- أنت محق ولكن كنا نعيش رغم تلك الظروف التي تحدثت عنها بأمان، كنا مناطق واحدة نعيش معاً بسلام، ثم هل أنت سعيد بما يحصل من إراقة للدماء وقتل وتشريد؟ وهل يبعث على السرور منظر عائلات بأكملها ملتحفة بالبرد في الحدائق ومخيمات اللجوء؟

- أي أمان تتحدث عنه؟ وأي عيش ذلك الذي عشناه بسلام دون أن نعي مرة بأننا كشعب يجب عليه أن يعيش بالواجبات التي تقع على كاهل الدولة لا عليه وحده، أية مناطق واحدة تلك التي تتحدث عنها؟ لقد تم تقطيع أوصال المدينة وعزلها عن بعضها البعض بأمر من نظام لم يشعر يوماً بالأمان لأنه كان يعلم تماماً بأنه مرفوض شعبيًّا ولم يستطع أن يضمن ولاء الناس له لذلك عمل على زرع الغرباء الذين أحضرهم من الجبال وأعطاهم حارات بأكملها خصصت لهم للعيش فيها ما ساهم بخلل داخل النسيج الاجتماعي والجغرافي خاصة في مدينة دمشق.. ثم جعل الطرق الواصلة إليها

بشكل يسهل عملية مرور الدبابات والآليات الحربية في حال حدوث أية انتفاضة هو يعلم تماما أنها ستقوم ذات يوم، ناهيك عن زرع الأفرع الأمنية بين المناطق السكنية كي يسهل عليهم معرفة ما يقوم به الأهالي ومعرفة ما يحصل حتى ببيوتهم.. وهذا ليس من أجل حماية المواطن بل من أجل حمايتهم هم وتفادياً لأي خطر ممكن أن يلاحقهم، إنها سياستهم التي لم يتخلوا عنها.. سياسة الرقابة المتواصلة في دوائر الدولة على الموظفين ورقابة الناس في الحارات والمطاعم والمسارح والمقاهي والنوادي الليلية وصالات الألعاب الرياضية ورياض الأطفال والأسواق ودور العبادة، نظام مخابراتي وأمني هدفه السيطرة على البلد ومن فيها.

يا صديقي إن أي نظام استلم الحكم بدباباته لن يعرف يوماً طريقاً للحوار السلمي.. هذه الثورة هي من كشفت أسراراً لم نكن نعلمها وكشفت زيف معظمنا كأفراد شعب.. وكشفت معها زيف العالم كله.

والدستور؟

ابتسم أبو الصعب ساخراً بقهر.

الدستور طائرة ورقية.. فمن يتحكم بالسلطة والقانون ويقمع كل من يعارضه. قادر على قمع الدستور حين يتمرد عليه.

نعم كنا نعيش.. لكن بخوف وبقهر وذل ووجع، أي نوع من العيش هذا حين تتحول بلدك لسجن كبير تتحرك به بناءً على شروط صادرة تمنع تجمع أكثر من ثلاثة شبان في ساحة عامة لأكثر من خمس دقائق؟ ما هذه الحياة التي لا تمنحك فرصة للحياة إلا بشروط مسبقة؟ ثورتنا كانت سلمية ولا يمكن لأحد إلا الاعتراف بذلك، لم يحمل أحد منا السلاح في وجه النظام.. بقينا ستة أشهر نخرج بالمظاهرات التي تنادي بالحرية

وبالسلمية، واجهنا الرصاص وقتل معظمنا وهو أعزل والشواهد كثيرة، قُتلنا أيضاً بأيادي التجار الذين رفعوا أسعار بضاعتهم بحجة ارتفاع الدولار.

ثم أردف ساخراً:

بربك قل لي.. ما علاقة باقة بقدونس يقوم الفلاح بزرعها بأرضه بسعر الدولار؟

ألسنا بلداً منتجاً؟ نزرع وننسج ونحيك ونقوم بصناعات حافظنا عليها منذ مئات السنين؟ أين احتياطي النفط الذي لم يتجرأ أحد منا على البوح به ولا حتى همساً؟.. أين جبال الماس الممنوع علينا حتى ذكرها بيننا وبين أنفسنا؟ أين ثروات البلد من معادن وحديد ونحاس وألمنيوم وقطن و و و..؟ حتى أراضينا أخذوها بحجة توسيع الطرق وبناء المشافي والمدارس، كلها أراض للشعب سلبت منه باسم المدينة الحديثة.. طردونا منها كي ينعم بها غيرنا من أثرياء البلد باستثمار أموالهم بالعقارات والعمارات الشاهقة بعدما منحونا تعويضاتٍ تكاد لا تُذكر.. أليست هذه أموال الشعب؟ أليس من حقنا أن ننتفض؟ تعبنا من الضرائب المفروضة علينا، تعبنا ونحن نجر أجسادنا كل صباح لأعمالنا كجثث تنازع للحصول على معاش ينازع هو الآخر معلناً موته بعد مضي أيام قليلة من الحصول عليه على أكثر تقدير، تعبنا ونحن مضطرون لتقديم الرشاوى تحت اسم هدايا للمعلمات والمعلمين كي نبعد عنهم خطر الانتقام من أولادنا والعطف عليهم بمنحهم فرصة يستطيعون من خلالها تسميع دروسهم التي حفظوها دون تجاهلهم من المدرسين الذين يقدمون الفرص والمنح والأولوية لأولادهم وأولاد أقاربهم الأغبياء، أصبحنا نخاف الحديث عن السياسة وكأنها قنبلة ستنفجر بنا حين نأتي على ذكر الحاكم وحاشيته، وها هي الثورة أتت كذلك الطفل الذي قال للملك العاري ولكنك عار أيها الملك!

قلت:

- لكن كان الأجدر بآبائنا عمل ذلك، ما ذنبنا حتى أن نتحمل وزر صمتهم وتخاذلهم طوال تلك السنين؟

أجاب:

- أعتقد أنهم كانوا أكثر ذكاء منا وحنكة، رؤيتهم للسياسة وقذارتها من وجهة نظر مخضرمة لشعب عانى ما عانى فيما مضى من احتلال وانقلابات ورؤساء خانوا البلد وقيام بعض العائلات الأرستقراطية بالتجسس على بلدهم ومازال أمثال هؤلاء يحكمون حتى اللحظة، وربما لهذا السبب آثر أجدادنا الصمت كي يتفادوا الاصطدام.. ولن أشك للحظة بأن آباءنا قد أحبوا البلد أكثر منا بألف مرة وكانت لديهم رؤية واضحة لما سيدور فهم عاصروا قذاراتهم أكثر مني ومنك فلا تلمهم.

الموت لم يعد شرفاً من أجل البلد بل هي حرب من أجل المصالح، هل لك أن تقول لي لأجل ماذا ولمن يموت هؤلاء ونحن معهم؟ هل تصدقني إن قلت لك بأني ومن خلال انضمامي لهؤلاء المنافقين الخونة المتعاملين قد أدركت بأن البلد ليست لها قضية تحارب من أجلها.. وبأن الحاكم مستعد لإعطاء البلد بأكمله للعدو مقابل أن يزهو بنفسه أمام من وقفوا في وجهه وقالوا له: ارحل.. لا تستغرب ولا تحملق بوجهي كالأبله، نعم هو أتفه من ذلك بكثير.

الشعب بالنسبة له حشرات ليس لها وزن أو قيمة وربما نسي في لحظة غرورٍ أن النمرود قتلته بعوضة، إنه مجرد ستار ولا يشكل أية قيمة في التاريخ ولن.

**من يفتح أبواب السجون أكثر من أبواب المدارس والجامعات لا**

**يليق به لقب زعيم، من يقتل العلماء والمفكرين والشعراء ومن ينفي إلى الخارج ضباطاً شرفاءَ خوفاً من أن ينقلبوا عليه لا يستحق شرف الرئاسة، من يستبدل الأراضي الزراعية بالإسمنت ويجفف بردى لا يليق به أن يحمل شهادة مهندس البلد.**

نحن هزمنا منذ أن قبلنا بأخذ رواتب لكل مهمة نقوم بها.. ومهزومون سلفاً حين عرفنا بأن السلاح الذي نحمله صناعة أمريكيةً وروسية، وغضضنا الطرف وكتبنا عليه الله اكبر.. وخاسرون ونحن ننتقل بسيارات الدفع الرباعي التي قدمتها إحدى الدول العربية للنظام وأغلقنا أفواهنا ورقيناها بالرقى الشرعية كي لا ينضب خزان وقودها، نحن قذرون حين قبلنا باغتصاب النساء بحجة أنهن سبايا حرب كما أمر أمير المؤمنين وكنا مؤمنين من داخلنا بأن هذه ليست أخلاقيات الحرب ولا أخلاق ديننا.. لكننا جبنا أمام أنفسنا وشهواتنا وألصقنا عقوبة فعل الزنا برقاب شيوخ السلطان المتهاوين طربًا ولذة بسماع صراخ النسوة اللواتي دخلنا عليهن دون أدنى شرف أو إحساس بصراخهن وترجّيهن لنا ألا نفعل.. كنا قذرين حين قبلنا أن نبيع الوطن مقابل الدولار ونستبدل القبلة بكهوف الحشاشين، قل لي كيف لا يزهو ذلك التافه بنفسه حين يرى ويسمع عن أمثالنا؟

بدأت المعركة بالدفاع عن أرض تحمل خارطة وطن كبير ثم تحولت لمعركة مال يضحك قادتها من تلك الخارطة.. ثم استبدلوها بخارطة صغيرة تحمل مالهم وأعمالهم وباعوا بما قبضوه من أموال خارطة الوطن الكبير.. يرفعون كؤوس نخب انتصاراتهم على جثث أبرياء وحتى أصدقاء داسوا عليهم بالأحذية العسكرية التي سرقوها من جنود كانوا يقاتلون من أجل ذلك الوطن الكبير.

سحرة الكهنوت القادمون من كواكب أخرى يعبثون ويلهون بوطن

عربي تمزق كقميص عثمان، سحرة متآمرون يرسمون خارطة وطن ممزق وداخل كل وطن يتآمرون لتمزيق بلد.. وداخل كل بلد يتآمرون ليمزقوا الشارع.. وداخل كل شارع يتآمرون ليمزقوا الحي.. وداخل كل حي يتآمرون ليمزقوا الحارات.. وداخل كل حارة يتآمرون ليمزقوا كل بيت.. وداخل كل بيت يتآمرون ليمسكوا بالمواطن العربي الممزق سلفاً ليلقوا القبض عليه.. ونحن أغبياء لا نعي أن اللعبة حتى الآن هي مؤامرة للقضاء على عروبتنا وإسلامنا للأسف.

نحن لم نفلح لنكون أولياء أمور راشدين حين جبنّا ولم نجرؤ على الاعتراض على مناهج معطوبة تفسدُ عقول أطفالنا فكيف بنا أمام وطن!!

سألته زيزي بهدوء:

- ألم تنفصل عنهم طيلة العام ونصف؟

- لا لم أنفصل عنهم.. إلى أن كنت شاهدًا على قتل أبي الصعب بيد أحد أصدقائه بعد مشادةٍ كلامية دارت بينهما على إثر اقتسام غنائم سرقوها من بيوت قتلوا أصحابها.

قررت بعدها الهروب مهما كلف الثمن.. واستطعت أن أهرب من المشفى حين أُصبت بقدمي اليسرى.. قامت بمساعدتي إحدى الممرضات التي أعطيتها مبلغاً كبيراً من المال.

قطع حديثهما دخول مهيوب ووالدة زيزي التي رحبت بالضيف أيما ترحيب، هي لم تتعرف عليه بالتأكيد لكن شبابه وعضلاته هما ما لفت نظرها كعادتها مع كل شاب تصادفه يملك تلك المواصفات، أما مهيوب فبدا ممتعضاً منه وقابله بجفاء واضح دون أن يصافحه، تجاهلت زيزي نظرات مهيوب المتسائلة حين غمز لها وأومأ برأسه ناحيته بمعنى من يكون؟ ثم نادت الخادمة طالبة منها تحضير الغداء للشباب ومعهم رضا

ثم اتصلت بحارسها الشخصي كي يحضر ويأخذ رضا للإقامة معه ومع بقية الشباب.. وقبل خروجها من الصالون التفتت إليه قائلة:

- أراك لاحقاً.

١٣

# الفصل الثالث عشر

سر ببطء.. فكثر
من أسرعوا وتعبوا
دون أن ينجزوا
المطلوب..

تحولت الحظيرة لبيدر من القصص والحكايات، قصص أحرقت رائحة الرطوبة الممزوجة برائحة روث الحيوانات الكريه، حكايات تتطاير كلماتها لتعيد أزمنة مضت وذكريات عاشها اللاجئون في بلدهم قبل طردهم منها.. في زاوية الحظيرة رجل عجوز نحيل جلس القرفصاء لتكاد ركبتاه تصلان لذقنه ويداه مقيدتان بجنازير غير مرئية ضمهما لصدره.. التفت الجميع إليه حين تنهد بحسرة قائلاً:

**عندما يغيب شيء من أشيائك فإنك تشعر بأنه من أهم الأشياء لديك طالما أنه معك.. وغيابه يعني اضطراب الأمان والطمأنينة ريثما يعود إليك.. هذا إن عاد.. فما بالكم ببلد ينحسر من أيادينا كرملٍ ينساب من بين الأصابع على شاطئ بحر.. بلد تمرغنا على عشبه في الغوطة وتحمّمنا فيه بماء بردى المقدس.. وتفيأنا تحت شجر الجوز والخوخ وحفرنا أسماء حبيباتنا على الشجر، بلد منحناه كل ما نملك من حب وذكريات طفولة.. وأحلام شباب لينتهي بنا المطاف داخل حظيرة للحيوانات ريثما نركب البحر.. ومن يعلم هل سننجو أم**

**سيبتلعنا هو الآخر كما ابتلعت الحرب بلادنا.. ستأكلنا القروش ثم ستتحدث عنا نشرات الأخبار.. وتستنكر المنظمات الإنسانية وبعدها يبتلعنا النسيان إلى قاع مهجور.. لنبقى بلا قبور ولا شواهد يحفر عليها تاريخ ميلادنا وموتنا.... ثم أخفى وجهه بيديه وأجهش بالبكاء.**

ساد الصمت في المكان.. والعيون ترسل حزناً سجنت الدموع داخلها كمعتقل يستجدي الخلاص بصمت من خلف القضبان.

يا للحياة القاسية حين تتحول لريح عنيفة تمزق ثياب أحلامك وتجردك من أبسط طموحاتك.. ثم ترميك عارياً أمام عيون تأكلك شهوة، منتهزةً الفرصة للانقضاض عليك، يا لقسوتها حين تتجبر أمام دموعك وتوسلاتك ساخرةً.. تتسلى برعبك وذعرك.. أي عدل ضحكت به علينا أيتها الحياة.. فالأطفال تقتل.. والأجنَّة بعمر أيام مرمية في حاويات القمامة، أي نبلٍ هذا الذي تتشدقين به.. والقلوب تنزف من شظايا قهر يمزق بألمه كل أملٍ بالعيش؟ أي عدل.. وما الحكمة من صمت هذه الحياة حيال ما يجري من تشريد للعائلات.. ومن القصف ومن القتل ومن سلب حلمهم بالأمان؟

**من أين حصلتِ أيتها الحياة على رداء الجبن المصنوع قماشه من تخاذل وسلبية وصمت إزاء كل ما يجري؟؟ من هو الحائك الماهر الذي فصَّل لك هذا الرداء المقاوم للشجاعة والمروءة والعدل واستطاع بحنكة وخبث وحرفة نادرة صد هجمات الرحمة حين حاول المظلومون الإمساك بطرفه للاحتماء بك؟ أنت لست الحياة، أنت وحش ضل طريقه حين خذله قطيعه ونسوه حين كان يشرب من البئر.. وجئت تنتقمين ممن منحوك الخلود لتقضي عليهم مقابل أن تحيي، لا خلود ولا أبدية لك حين تحيط باتجاهاتك الوحشية والقهر وغياب العدالة.**

الغبار يتناثر بالمكان بعد عودة الأطفال للعب.. وكأنهم لم يستمعوا

قبل قليل للمهرب وهو يزجرهم كي يخفضوا أصواتهم تحسباً لأي طارئ، أما ذووهم فلم يكلفوا أنفسهم أن يسكتوهم.. وتركوا المهمة لغيرهم دون أي اعتراض.. كأنهم سئموا من الكلام والمشاجرات.. كأن وجعهم بات أكبر من الكلام، كأن قلقهم خائف من فتح فجوة لإحساسٍ غامض يقول بأن هذه هي المرة الأخيرة التي سيلتقون بها هنا في الحظيرة عشرات الأسئلة محشورة داخلهم.. ورغم ضيقها إلا أنها ترفض الخروج خوفاً من أجوبة لن تكون أقل خطراً مما يشعرون به.

هل أخطأنا بخروجنا من البلد؟ هل كنا على حق حين طردونا بكل تهذيب بسياسة (التطفيش) قائلين لنا بصمت (من غير مطرود).. هل كنا سنقضي بقية حياتنا في الحدائق العامة أم سيتم ذبحنا على معبد الطائفية المقيتة التي صنعوها وأججوها؟ وإن نجونا منها.. فهل سننجو ممن يدَّعون الوطنية؟ أولئك الذين يحاصروننا بمناطقنا بحجة حمايتنا بينما يبيعوننا الطعام المقدم لنا كمساعداتٍ ويقبضون ثمنه أضعافاً مضاعفة.. ومن لا يملك ثمن الطعام والدواء فليمت جوعاً وذلاً أو فليأكل من خشاش الأرض..لا يهم، لا يهم طالما أنهم متخمون بالطعام والقومية.. يا للفجيعة حين نموت على أيدي الجميع من الأعداء والأصدقاء على حدٍ سواء.

صرخت سيرين غاضبةً على غير عادتها بعد صمت طويل.

- ما معنى إرهاب؟

التفت أحد الأطفال وقد ترك اللعب قبل أن يعود إليه حين جاوبها..

- الإرهاب يعني أن بيوتنا بغير أبواب.. ومدارسنا لا تقرأ الكتاب.. وأجسادنا مشتاقة للجديد من الثياب!!

ضحك الجميع باستثناء ماهر وسيرين والعجوز، لقد قال أشياء أكبر من

سن طفولته ولو فهمها الجالسون لاستبدلوا ضحاتكهم بالبكاء.. إلا أنهم ضحكوا ظناً منهم أنه حين قالها بميوعة وعلى القافية يعني أنه مجرد طفل يلهو غير مدركٍ لما قاله وكم كانوا مخطئين.

اقترب العجوز من سيرين وهو يمشي ببطءٍ وكأنه على حبلٍ مشدود ومازال يمسح دموعه.

- صدقيني يا ابنتي حتى الدول لا تعرف معنى تلك الكلمة، كلٌ يصنعها على مزاجه.. وكلٌ يراها من زاويته وبحسب ما تقتضيه مصالحه، آلاف المؤتمرات عُقدت وآلاف الاجتماعات حضرها المسؤولون والمحللون وممن يدعون الفكر ثم عادوا بخفي حنين.. يا ابنتي، إن الثورة بغير فكر إرهاب.. والحرب التي تفتك بأبنائها بحجة الدفاع عن الوطن إرهاب.. الرجل الظالم في بيته إرهاب.. والمرأة العاجزة عن تربية أبنائها إرهاب الفشل إرهاب.. والعجز إرهاب.. والغني الذي لا يشعر بالفقير إرهاب أما الجهل ومعه الفقر.. فهو التطرف بالارهاب!!

ثم قال مبتسماً وهو ينظر حوله..

- هل تعلمين من هم المسالمون؟

إنهم هؤلاء الحيوانات الذين لجأنا إلى حظيرتهم هاربين من البشر، هاربين من الشرطة ومن اللصوص، هاربين من أبناء بلدنا الذين رفضوا استقبالنا في بيوتهم، هاربين من حكوماتنا التي لم تقدر على حمايتنا، هاربين ممن يقيمون الصلاة وعلى خصورهم مسدساتهم.

ثم أردف ساخراً:

- وتريدين بعد ذلك أن تتفق الحكومات لشرح كلمة إرهاب في الوقت الذي يجهلونها هم أنفسهم؟!!

شعور سيرين بالتعاطف مع العجوز دفعها للاهتمام به ومرافقته بعدما دخل المهرب طالباً منهم الخروج.. مهدداً بأن أي تأخير سيضطرهم للمكوث ليلة أخرى.

سيرين سعيدة برفقتها للعجوز أكثر من سعادتها برفقة ماهر، على الرغم من حرص الأخير على مساعدتها وتقديم كل مايستطيع عمله من أجلها منذ أن اجتمعا مصادفةً بمطار بيروت حتى اللحظة، صمتها طيلة الرحلة لم يمنع ماهر من الاسترسال بالكلام متجاهلاً لا مبالاتها بمعظم أحاديثه وكأنه مجبرٌ على فعل ذلك لكن ما الذي يجبره؟ لا أحد يعلم إلا هو نفسه!!

غابت الشمس وراء الأفق البعيد.. وأيادٍ ممسكة ببعضها كقيدٍ بقي عالقاً بيد مساجين هربوا من معتقلٍ رهيب.. تسمع من خلال أنفاسهم صليل جنازير قهر مختبئ خلفه احتقار لمدعي الإنسانية والذين هم في الواقع وحوش تدعو للسلام، أتراها الأساطير كانت حقيقية حين رسموا على جدران كهوفهم أجساد بشر ورؤوس وحوش؟

تعثرت قدم سيرين حين كانت منهمكة بالتفكير، رفعتها يد العجوز وساعده ماهر الذي كان يمشي خلفهم، فهذا المنحدر أشد خطورة ووعورة من المنحدرات السابقة، الظلام دامس ولا يمكن لأحد رؤية الآخر بوضوح إلا حين ظهور القمر بين الفينة والأخرى حين ينحسر الشجر، فالمصابيح قد نفذ شحن بطارياتها والاستدلال على الطريق هو من خلال تتبع الصوت وضوء القمر، صوت سيرين حين وقعت جعل أحدهم يقول لننتظر قليلاً فخلفنا امرأة سقطت أرضاً ربما تحتاج للمساعدة، ليأتيه صوت آخر قائلاً: دعها ولنمض في طريقنا فليس لدينا مزيدٌ من الوقت.. ما يدريك؟ فلربما كانت منيتها هنا من يعلم؟

وضعت سيرين يدها على فم ماهر حين حاول شتم ذلك الرجل.

دعه أرجوك ولنمض في طريقنا أنا بخير والحمد لله.

حاوطها العجوز ممسكاً بذراعها وهي تعرج على قدمها محدثة نفسها:

لا لم تكن أساطير، كانت حقيقة!

١٤

# الفصل الرابع عشر

لا عاشت الحرية
حين تتحول الى قيد
يسجنك في دائرتها..
فالحب المشروط
مرفوض..

كل أبجديات العالم لن تستطيع شرح ما أشعر به الآن، كل فلاسفة العصور لن يقدروا على شرح انفعال واحد من الإحساس بالضياع والخوف كما يسكنني الآن، هكذا كانت مهجة تحدث نفسها وهي تصعد لسيارة نقل المواشي بعد خروجهن من المحكمة التي أصدر بها القاضي بعد الإدلاء بشهاداتهن قراراً بتحويل معظمهن إلى سجن دمشق المركزي في عدرا إحدى ضواحي دمشق ثم عرفت من إحدى السجينات بأنهم سينقلونهن إلى الإيداع في قسم الشرطة بحي ركن الدين الدمشقي.

جسدها مع كل مطب يرتطم بأحد جدران السيارة المصفحة بالحديد الملتهب بحرارة الشمس.. ليعود لذهنها تقنية ثور النحاس المعد للتعذيب في القرون الوسطى.. ساعاتنا تكذب فقد أعادنا سجانونا للعصور الوسطى، الكلام ممنوع والنظر من خلال الثقوب المفتوحة مسموح إن كنت بارعاً باستراقه.. إنها مذعورة وخائفة وما زاد في خوفها هو جهلها للشوارع التي يمرون بها كأنها ليست هي، كأن الشوارع ليست شوارع بلدها والناس ليسوا هم الناس الذين عرفتهم.. بل وجوه تحولت

إلى قهر وهم وحزن يمشي في الشوارع، السجينات يتحركن كمن نفث الضبع أنفاسه في وجوههن.. مستسلمات له لا حول ولا قوة، تكاد تصاب بالجنون وهي تنظر من خلال الثقوب.. أين انا؟ سألت الضابط والحراس سألتهم مراراً وتكراراً لكن دون جدوى، وكأنهم تحولوا لأصنام تحول كل شيءٍ إلى حجر.. أية لعنةٍ حلت بنا كلعنة الملك الذي يحول كل ما يلمسه إلى ذهب.. ذهب؟ تبتسم ساخرة.

ما الفرق حين يفقد الإثنان قيمتهما الحقيقية.. الملك لن يقدر على سد جوعه برغيف خبزٍ من ذهب.. والقلوب لن تقدر على منح الرحمة والإنسانية حين تتحول إلى حجر؟

يصرخ الضابط:

- لا أريد أية فوضى انزلن بهدوءٍ وكلٌ بدورها.

- إذن وصلنا، توشوشها إحداهن.

- هل تحملين نقوداً؟ أريد منكِ أن تقرضيني القليل منها.. لقد أخذوا محفظتي في الفرع ولم يعيدوها إلي.

تنظر إليها مهجة بذهول.

- نقود؟

- أجل نقود هل قلت شيئاً غريباً؟

- هيا أسرعن هذا ليس وقت الكلام الفارغ.

هبط الجميع من السيارة.. وصوت صليل الجنازير يزعج هدوء المساء، دخلن القسم مطأطآت رؤوسهن كما طلب منهن الضابط.. هبطن الدرج ووصلن باب السجن الذي فتحه الحارس الذي جذب النساء من أياديهن

ليدفعهن بقسوةٍ للداخل.. ولم يكن يهمه أين ترتطم تلك الاجساد والرؤوس.. فوظيفته أن يؤمن عليهن في الداخل ليبدأ تسليته الجديدة بشتمهن بأبشع الكلمات وأقذرها.

مازالت تدور في رأس مهجة كلمة نقود، فهي منذ اعتقالها وحبسها بالزنزانة الفردية كانت قد نسيت تلك الكلمة.. نقود.. يا إلهي كيف نسيت أهم ما يتقاتل العالم لأجله.. كيف نسيت من لأجله تُقام الحروب؟ كيف نسيت من لأجله تحترق البراءة حين عقد صفقات السلاح؟ كيف نسيت من لأجله يقتل الأخ أخاه؟ والعدو يتحول لصديق حين يراه بيد عدوه؟ كيف نسيت من لأجله تُباع أوطان بأكملها؟ كيف نسيت من لأجله تُقام الشعائر والصلوات تحت اسم الدين؟

قطعت حبل أفكارها إحداهن تسألها أين نحن؟ قالوا لي قبل أن نأتي إلى هنا بأننا في قسم ركن الدين هل هذا صحيح؟ وكم سنمكث هنا؟ وماذا سيحصل بعد ذلك؟

بقيت مهجة صامتةً فالأسئلة ذاتها تكررها بينها وبين نفسها ولا جواب لديها.

جاوبتها إحدى السجينات القابعات في الزاوية ساخرةً بينما كانت تشعل سيجارتها.

نحن هنا في مجلس وزير السلطان، تتم تهيئتنا ريثما ننقل للقصر الكبير في منطقة عدرا مدللات متبرجات (على آخر طرز).. حتى انظرن.. وأشارت بإصبعها إلى كدمةٍ زرقاء تحت عينيها ثم أطلقت ضحكةً مجلجلة جعلت الحارس يشتمها بأفظع مما قام بلفظه قبل قليل.

صمتت قليلاً دون أن يرف لها جفن مما سمعته وكأنها معتادةٌ عليه، تحركت من مكانها تمشي على ركبتيها واقتربت بفضول من المرأة التي

كانت تسأل:

- ما هي تهمتك ياحلوة؟

- إرهاب.

وقفت أم فيفي كما عرفوا اسمها من الحارس ومن النسوة اللاتي كن معها

- آهاااا.. أنتن جماعة الحرية إذن؟

- حاشا لله وهل تركت حريةً لأحد؟ أظن أنك استهلكت كل الحريات الممكنة في هذا العالم فمنظركِ وهيئتكِ لا يستطيعان إنكار أخلاقكِ وماضيكِ المجيد على ما أظن.. قالتها المرأة الأخرى بنفس اللهجة الساخرة التي حدثتها بها أم فيفي.

أغاظ الكلام أم فيفي التي أمسكت بشعر المرأة وأطفأت السيجارة بوجهها ثم طرحتها أرضاً.. والنساء جامدات بأماكنهن لم تجرؤ واحدة منهن على التدخل إلى حين دخول الحراس الذين أبعدوا أم فيفي بعدما أوسعوها ضرباً.

ارتعدت مهجة من الخوف، تجمدت كتمثالٍ من الشمع المسلط عليه نار.. ها قد بدأ أملها يذوب بالخروج من هذا المعتقل.. فسجون بلدها عكس سجون العالم، ففي كل العالم اسمها مصحات يعيدون فيها بناء الإنسان.. أما هنا فهم يحطمونه لتتحول كل سجينة فيه إلى أم فيفي.

انحنت على نفسها كالجنين وأدارت وجهها باتجاه الحائط مستحضرة أصدقاءها علّها تستطيع جرّ بعضا من قوة لم تكن بحاجة إليها كما الآن.

همس الأرنب في أذنها.. أنتِ أنا الآن.. لكن إن بقيتِ على حالتك هذه.. فستكون النتيجة مزيداً من الضعف ومزيداً من السخرية والتسلية

للآخرين في ظروفٍ كهذه انفضي عنك سلميتك وإلا وضعوك على مسلخ هواياتهم وجعلوا من فروك قبعةً لأطفالهم.. في أمكنة خطرة كهذه عليك التحول لأرنب بري يلهث الصياد خلفه ثم يعجز عن الإمساك به فهو يتقن فن الاختباء.

ارتمى الثعلب في حضن مهجة مغشياً عليه من الضحك.

يا للأرنب المسكين المسالم.. الأرنب يبقى أرنباً سواء أكان برياً أم مدللاً، المسالمة هي طبيعته التي لا يستطيع الانسلاخ عنها.. فهي جزءٌ من عالمه وما الأرنب البري إلا أرنب أكبر حجماً والصياد الماهر سيستطيع الحصول عليه وقد هيأ نفسه لمزيد من الجهد، فهنا تكمن متعته.

همس الثعلب بعينين نصف مغمضتين.

في ظروف صعبة كهذه عليك بنسج فن المراوغة وحياكته على مقاس كل شخص يحاول التلاعب معك أو تصيدك.. نحن الحيوانات نتبع نظاماً واحداً لا نحيد عنه.. أما أنتم كبشر فإنكم تعانون من التناقضات والتقليد وأخذ أدوار غيركم، ومن هنا تفقدون الانسجام في داخلكم وتضيع بساطتكم حين تعقدونها بما ليس لكم، أتقني فن المراوغة فهذا الزمن ضاعت به فضائل كثيرة، تعلمي الخبث كي تتفادي خبث الآخرين، في هذا الزمن الصعب امنحي فضيلتك هدنة ريثما تستعيدين حقك فالشيطان كان سيد الملائكة.

تصحو مذعورةً على يدٍ تهزها، تمسح المرأة بيدها على رأس مهجة وتطمئنها بألا تخاف.

كنت تهذين وأنت نائمة.. لا تخافي.. اطمئني.. تعالي لتناول العشاء، ناولتها قطعة من الدجاج المشوي الذي اشتراه لها الحارس بمبلغ مضاعف أربع مرات بعدما أخذ حصته من الطعام محتفظاً ببقية النقود.

اسمي سمر سأكون بجانبك دائماً، حزنت كثيراً لأجلك فمثلك لا تليق بها هذه الأمكنة.

لم تعتذر مهجة عن تناول الطعام.. كانت جائعة لدرجة لم تلحظ كيف أن الأخريات كن يراقبنها وهي تأكل بتلك الشراهة دون أن ترفع عينيها إلا بعد التهام قطعة الدجاج الفاخرة قياساً بالوجبات التي كانوا يقدمونها لها في الحبس الانفرادي المؤلف من برغل ممزوج بالماء والرمل الناعم وقطعة بطاطا مسلوقة لا تخلو من العفن على جوانبها.

مضى يومان والمشاجرات لم تكف بين أم فيفي ونزيلاتِ الإيداع، يومان فقط هو الزمن الذي تقضي به السجينات فترة الإيداع ريثما يتم نقلهن إلى سجن النساء.

أصوات القصف ترتفع كلما اقتربن من منطقة السجن وهذا مؤشرٌ سلبي يحمل الكثير من الخطورة.. فكما سمعت مهجة من سمر نقلاً عن أخريات بأن الجيش الحر يحاول كل مرة ضربَ الحواجز المنصوبة على طريق السجن التي سيمر بها الباص الذي ينقل السجينات.. محاولين مساعدتهن على الهرب، لكن محاولاتهم تبوء بالفشل في كل مرة واليوم رفض الضابط إدخال السجينات من الشارع الرئيسي الموصل للسجن نظراً للقصف الشديد.. لذلك اضطر لإنزالهن على بعد حوالي الكيلو متر بعدما طلب من العناصر عصب أعينهن وفك قيودهن وإعادة وضعها بيمين يد امرأة ويسار يد امرأةٍ أخرى.

من خلال صوت صليل الجنازير وهدوء أصوات القصف بشكلٍ كبير وصدى همهمات الحراس عرفت مهجة أنه تم إدخالهن في نفق، فالرطوبة تشبه الرطوبة في سجنها بالفرع.. تذكرت أصوات التعذيب الصادرة من الغرف الأخرى، تذكرت سكب الماء على وجهها لإيقاظها كلما نامت، تذكرت ركل الباب الحديدي بأقدام الحرس.. تذكرت رائحة الدم في الممرات.. تذكرت أهم شيء... لماذا هي هنا؟

# الفصل الخامس عشر

الجينات المحملة
بالسفن هي حياة
أخرى للبلد المتوجهة
إليه بالفائدة أو
بالضرر..

لـم يتبـقَ الكثيـر.. أسـتطيع رؤيـة البحـر مـن هنـا اصبـري، قالهـا ماهـر بكثيـر مـن الاهتمـام والحـرص علـى سـيرين.. أمسـك بيدهـا الأخـرى.. والعجـوز مـا زال ممسـكاً بذراعهـا خوفـاً عليهـا مـن التعثـر مـرة أخـرى، أم تراهـم كانـوا بحاجـةٍ لهـذا التعاضـد وجـاء تعثـر سـيرين ليحقـق المطلـوب؟!

حيـن وصلـوا الشـاطئ لـم يصدقـوا بـأن كل هـذه الأعـداد قـد سـبقتهم، مـن أيـن أتـى هـؤلاء؟ فعددهـم تجـاوز الخمسـمائة شـخص وعـدد البالمـات أحـد عشـر فقـط!

قبـل أن تلقـي هـذه الاسـئلة علـى ماهـر اقتـرب منهـم شـاب تونسـي عرفتـه مـن لهجتـه.. وطلـب منهـم رمـي حقائبهـم للتخفيـف عـن البالـم، استنكـر غالبيـة الاشـخاص الموجـودون.. وتعالـت الأصـوات وكـادت تحصـل مشـاجرة كبيـرة لـولا أن حضـر أربعـة شـبان مدججـون بالسـلاح وقامـوا بتهديـد اللاجئيـن ثـم سـحب الشـاب التونسـي مسدسـه وأطلـق رصاصتيـن فـي الهـواء صارخـاً بهـم.

هيا ارموا حقائبكم أو أعيدوها معكم من حيث أتيتم، هنا إما الامتثال للأوامر أو يتبخر حلم أوروبا.. ها.. ماذا قلتم؟ رمى الجميع حقائبهم بينما سيرين تراقب حالة صغيرة مظللة سوداء ماركة مرسيدس واقفة قرب الشاطئ نزل منها شابان انضما للشباب الآخرين وقبل أن يُغلق الباب لمحت جانو بداخلها ما هذا الذي يحصل؟ لا أحد يعلم.

كان الاتفاق أن يحمل البالم عشرة أشخاص ومنهم سيرين، لكن رغماً عنهم أرسلوا معهم عشرين آخرين معظمهم أفغان مزعجون ومشاكسون جاهزون للمشاجرة في أي وقت!

توزّعوا لفرق.. كل فرقة مؤلفة من ثلاثين شخصاً بانتظار دورهم للصعود.. وحين جاء دور فريق سيرين هجم الأفغان وكأن القارب سيهرب ويتركهم على الشاطئ.

صعد الجميع وسارت الأمور على ما يرام، الجو لطيف ومياه البحر هادئة والجزيرة لن تحتاج للوصول إليها سوى عشرين دقيقة.

سيرين تحدث نفسها وهي تسترق النظر للأفغان بطرف عينيها.

**لقد أصبحت بلدي مرتعاً لوحوش العالم من الغرباء الذين نسبوها لأنفسهم بكل وقاحة ثم رموها لغرباء آخرين، مزقوا رداء طهرها وأعلنوا تبرؤهم منها حين حصلوا على ما يريدون، هل هذا ذنب البلد أم ذنبنا نحن حين تفرد كل منا لنفسه بعدما قطعنا كل تواصل إلى حد وصلنا فيه لإخراج مشاكل الوطن من حساباتنا وتركناه يتألم بينما نحن مشغولون بواجباتنا التي تخصنا فقط؟ من منح الغرباء شرف الانتساب للبلد وإعطاءهم هوية وقيد نفوس وبيان عائلي ورقم خانة؟ نحن من ساهمنا بمنحنهم كل هذا حين فقدنا الثقة بأنفسنا وبالآخرين، فالمصلحة طغت على الأخلاق، والمال.. توجناه سيداً وكان سيد البلاء.. لأجل المال نتصنع ونتجمل ونجامل ونتملق وننافق ونكذب.. حتى بأحاديثنا فقدنا الثقة، والدليل أننا لا نكمل**

**جملة بحديث دون أن نقسم بأغلظ الأيمان على أننا صادقون فيما نقول!! ومع ذلك وبعد كل قسم بروح ميت وحياة نبي وخلود إله لا يتردد الآخرون بسؤالنا: حقاً؟!!!**

أغمضت سيرين عينيها وقد بدا أنها بدأت تتمزق قبل وصولها لأوروبا، تتمزق قبل معرفتها بما ينتظرها من مفاجآت، كانت تحلم بزيارة سواحل العالم وأن ترقص في هاواي رقصة آلوها هولا التي طالما استهوتها حين كانت تقرأ عنها.. وأن تتناول العصير الطازج البارد وتبني على كل شاطئٍ قصراً من الرمال يرفرف فوقه علم وطنها.. لكن جلبة الركاب وأصواتهم جعلتها تفتح عينيها على كابوس بعدما غافلهم الكوماندوس اليوناني كما سمعت من أحد اللاجئين وهو يصرخ: إنهم الكوماندوس اليونانيون، واليخت الذي يستقلونه يوناني.. لباسهم يدل على ذلك أنا متأكد إنهم قوات مشتركة أوروبية، مالذي يحصل؟ ماذا هناك؟ الجميع مذهول بمشاهدة القناص اليوناني موجهاً سلاحه اتجاههم بينما اليخت يدور حولهم مرة.. اثنان.. ثلاثة.. إلى أن توقف ورمى أحد الرجال حبالاً طالباً من اللاجئين الصعود لليخت، سيطر الذهول على اللاجئين ذهولاً ممزوجاً بالذعر، ففي موقفٍ كهذا يصعب على المرء التفكير إلا بما هو سلبي ولا خيار أمامهم إلا الامتثال للأوامر.

بعد صعودهم إلى اليخت اليوناني قام الكوماندوس الملثمون بتصويرهم فرادى وحين انتهوا أوسعوهم ضرباً ثم قاموا بتفتيشهم وسحبوا منهم جوازات السفر والجوالات، لم يجرؤ أحد على الاعتراض او التساؤل أو الدفاع عن نفسه.. فهناك من اعتقد بأنهم سيعيدونهم إلى تركيا وهناك من اعتقد بأنها اتفاقيات بينهم وبين المافيات وتوالت أسئلة داخل كل منهم، أسئلة عجزوا عن إيجاد أجوبةٍ لها ثم سلّموا أمرهم لله وللملثمين بعدما عجزوا من شدة الخوف التساؤل لِمَ حصل ذلك أو ماذا ستكون النهاية؟!!

نزعوا بقية الحقائب التي يحملها اللاجئون ورموها بالبحر ثم طلبوا من الجميع الهبوط للبالم بعدما انتهى أحد رجالهم الملثمين من ربط البالم بحبال ربطت مع اليخت نفسه وقام بنزع المحرك ورماه في البحر.

إذن هو الموت لا محالة، وحلّ محل الشك يقين بسوقهم للموت بطريقة اختارها هؤلاء الرجال نتيجة أوامر عليا ربما لم يعد مهماً ممن جاءت الأوامر ولم يعد مهماً معرفة الأسباب بعدما توضحت حقيقة واحدة مسحت كل غموض الأجوبة التي لم تجد لها مكاناً بأسئلة الناس قبل قليل، إنه الموت.

العشرون دقيقة التي كانت الفاصل الزمني للخروج إلى حياةٍ أخرى تحولت إلى دهور من الذعر والخوف وانتظار الموت، يبدو أنه ليس زمن الأحلام إنه زمن الكوابيس والذعر.

بدأت حرارة الشمس تشتد، واللاجئون موزعون داخل البالم كنباتات الصبار المسلطة عليها شمس آب الحارقة. صامتون وبداخلهم عالم يعجزون عن الإفصاح عنه، ترقب وتعب وعطش أخذوا كفايتهم من اللاجئين المنتظرين حتفهم بين لحظة وأخرى أمام ملثمين ما زالوا يدورون في نفس المكان بعد جرهم من النقطة التي أخذوهم منها.

**كم يشبه لباس الرجال الأسود جلاداً يتسلى بضحاياه قبل أن يقرر موتهم في لحظة مزاج هو وحده من يحددها.. ألهذه الدرجة أصبح قتل الآخرين سهلاً؟ ألهذه الدرجة أصبح الانسان عدواً لأخيه الإنسان، أطفال ونساء ورجال يساقون للموت دون الجرأة على الصراخ أو حتى الاعتراض ماذا حل بالعالم؟ بل ماذا حصل للإنسانية حتى تحولت لوحش من نار يحرق كل من يصادفه؟! ما الذنوب التي ارتكبوها حتى تتم محاسبتهم بهذه الطريقة البشعة؟ يا للأسف حين تتحول الشعوب بنظر القادة لمجرد قمامة يكنسونها من وطنهم.**

توقف اليخت بعرض البحر دون وجود أي أثرٍ لليابسة، قطع الملثمون الحبال ثم أطلقوا أربع رصاصاتٍ على البالم وذهبوا بعيداً بعدما نال اللاجئون نصيباً وافراً من الشتائم بلغاتٍ عدة وكأن لغةً واحدة لا تكفي ليشفوا غليلهم بها

ضاعت الاتجاهات عنهم ولا عاصم لهم من هذا الماء سوى الدعاء، يجب عمل شيء فقد بدأ الماء ينفذ لداخل القارب.. الأمر الذي استدعى فتاة بالقيام بنزع حجابها الذي بللته بالماء وسدت به الثقب، ما فعلته جعل أخيها يهتاج كالثور الغاضب حين رآها دون غطاء على رأسها، هجم عليها يصرخ متوعداً أن يقتلها ويغرقها دفعته عنها بقوة مما جعل القارب يهتز هزاً عنيفاً لولا أن تدارك اللاجئون ذلك الخطر ممسكين بأخيها وتوزعوا بشكل يمكن له استعادة توازن القارب.. صرخت به:

كان الأجدر بك أن تُرينا رجولتيك أمام من دفعوني للقيام بذلك.. أم أن النوم هطل على شجاعتك أمامهم؟

تصرخ: رأسي مجلبب بحزنٍ لا حد لمرارته.

تصرخ بصوتٍ أعلى: رأسي مجلبب بالخوف.

تصرخ بكل قوتها: لقد سلخت الجبن عن رأسي لإنقاذك وإنقاذي وإنقاذنا جميعاً.

تصرخ صراخاً هستيرياً وكأنها صوت آلاف النساء القابعات المستكينات بداخلها منذ مئات السنين.

صرخت وكأنها وجدت الذريعة لصراخها وقتل خوفها وجبنها وذعرها.

هذا ليس وقته الآن قالت جملتها بصوتٍ مبحوح وهي تحاول السيطرة على انفعالاتها، هيا فلينزل الرجال ولتبقَ النساء والأطفال داخل القارب، رفض الأفغان الاثنين النزول فما كان من ماهر إلا أن جرّهما رغماً عنهما

وبمساعدة رجل آخر أمسك بالحبل المقطوع يسحبه بيد ويسبح باليد الأخرى كذلك فعل الآخرون أما النساء فقد نزعن الثياب عن أطفالهن لسد باقي الثقوب.

مضت أكثر من ست ساعات وهم يصارعون الموت أملاً بالنجاة، يجدّفون بيد ويسحبون القارب باليد الأخرى وما من فائدة أو أمل يفاجئهم بيابسة أو قارب آخر أو مساعدة، بدأ صبرهم ينفد والحر والعطش يزدادان قسوة على الجميع، تباطأت حركات الرجال ولم يعد بمقدورهم المضي أكثر فقد أنهكهم العطش والحر وفقدان الأمل إلا بالموت.

كيفية النجاة أشد خطراً من منح أمل مفقود، هذا ما قالته امرأة حين بدأوا يتندرون بأي اتجاه سيسيرون حين بدأ البحر يتعكر صفوه وبدأ ينذر بالهيجان مثل غول استيقظ على جوعه.

الموج يعلو.. وكلما تقدموا عشرة أمتار أعادهم الموج ثلاثمائة متر، ماهر يصرخ مؤكداً على الجميع ألا يتركوا الحبال وإلا فقدوا حياتهم.

الأيادي تشتد بقوة أكبر تتحدى جبروت البحر.. وكأن الروح لا تسكن إلا في أذرعهم. ومن يعرف السباحة منهم بذل جهداً مضاعفاً كأنه يقول للبحر ها أنا ذا جاء دوري لافتراس غدرك.

الروح غالية وليس من الممكن تسليمها بتلك السهولة، صحيح أنهم استسلموا للموت قبل ساعاتٍ أمام رجال الكوماندوس وأيقن الجميع بأنهم سيُقتلون، لكنها الحماقة حين تظهر قوتك أمام رصاصة جاهزة للانطلاق من مخزن العدو الواقف قبالتك على مسافة خمسة أمتار.

صراخهم المحبوس يعلو كلما اقتربت موجة من بعيد، صراخ لا تسمع به إلا كلمة يارب وكأن مقابلة الموت تمحو ما عشته بسجل حياتك لتختصره بكلمة يا الله.

ضاقت السماء وتخلت عن زرقتها ووداعتها، بات كل شيءٍ محاطاً بالموت.. كئيباً كالموت.. موت تتقاذفه أمواج البحر الحاملة بطياتها أصوات الصراخ غير المنضبطة طبقاتها كلما ارتفع الموج وانحسر.

يصرخ ماهر والآخرون محذرين ومؤكدين عدم ترك الحبال، المقاومة تشتد والأذرع تجذف مستجديةً الحياة بأرواحٍ سُلمت للقدر.. لكن اليأس لم يستطع النيل منهم مقتنعين بأن من يقاوم سينجو حتى آخر رمق، كل ضربة يضربون بها الماء هي بمثابة إعلان التمرد على الموت والتشبث بالحياة وبأحلامهم رغماً عن أنف كل ما عانوه.

الصراخ يعلو أكثر وكذلك الدعاء والتشهد، فالبحر أعلن العصيان هاج أكثر وماج حين اقتربت موجةٌ عالية جداً جعلت الحبل يفلت من يد الطفل مصطفى ليرحل بعيداً.. بعيداً.. بكلماته البريئة التي قالها البارحة في الحظيرة حين كان يلهو، الإرهاب هو بيتٌ بلا أبواب.. الإرهاب هو مدرسةٌ لا تقرأُ كتاب.. الارهاب هو الحاجة للجديد من الثياب.

أخذ البحر مصطفى وأخذ أحلامه وذكرياته، اقتلع ما تبقى من نافذة صغيرة نظر منها ذات مرة متلهفاً لحلوى الغربة، لكن خانته طفولته، فالحلوى سيأكلها هناك في جزيرة الكنز، بعدما اختطف القراصنة بيته وحارته ورفاقه ومدرسته، ابتلع البحر مصطفى أمام عيني أمه التي ترجوه ألا يذهب، افترش صوتها الفضاء.. وتوقف كل شيءٍ معلناً الحداد على فقدانها ابنها، كأن الموت نال من الجميع مؤقتاً وتجمد في داخلهم كل شعورٍ بالحزن أو الخوف أو البكاء.. حتى هدير البحر أخرست أصواته وتجمد هو الآخر مكانه أمام صوت نحيب لأم صارخة بصوتٍ مبحوح.. أين الانسانية حين يُقتل ابني أمام عيني وأنا عاجزة عن إنقاذه؟

**أين ضمير البشرية التي ميزتنا عن حيوانات الغاب؟هذا ليس عدلاً حين بات العالم وحشاً بهيئة إنسان مشلول بقوائمه الأربعة، أين**

**العدل حين يخطف الموت ابني لأعيش متحسرةً على فقدانه طيلة العمر؟ أين العدل حين يموت الضعيف ليعيش القوي؟ أين العدل حين نساق كالأغنام لنكتشف أن الذئب لبس ثوب الراعي؟!!.. عد يا بني، تصرخ أم مصطفى بشكل هستيري، أعلم أنك تمازحني ارجع.. فليس وقت المزاح الآن.. ارجع مصطفى وأعدك بأن ألبي كل ما تطلب.. لن أزجرك حين تعبث بأشياء شقيقتك، لن ألومك لأنك أوسخت ثيابك.. عد أرجوووك يامصطفى.. مصطفى.. مصط ف ى!! تحول مصطفى إلى موج بحر وغادر.. هو لم يمت لكنه سئم تلك الرحلة حين لم يعد بمقدوره الرجوع إلى القهر.. ولا اللجوء لجزيرة أحلامه.. لتذوقي ايتها الأم طعم اللوز المر بقية حياتك.**

كان يجب علينا القيام بتفصيل الزمن بما يتناسب مع أحلام صغارنا لا أن نقوم بترقيع ثياب أحلامهم الممزقة كحياةٍ عاشوا من خلالها لا يرون إلا القهر والحزن وقتل الطموحات، ما الزمن بالنسبة لهم إلا وحدة قياس يمارسون به شعائر فرحهم من خلال دمية أو حذاء جديد، وما الزمن بالنسبة للكبار إلا ألعاب قذرة يمارسون من خلالها جشعهم، يا لبشاعتنا حين نجر أطفالنا للعبة القتل ونغرقهم بعدما قدمناهم وجبة لأسماك القرش ثم بكينا عليهم ووقفنا أمام المؤسسات نتسول باسم طفلنا الشهيد.

١٦

# الفصل السادس عشر

صعب علينا إيجاد
المفاهيم دون حمل
مصباح ديوجين
الذي كان يبحث عن
الحقيقة من خلاله
في وضح النهار..

يحضر الجرسون كأساً آخر من الويسكي بدون ثلج، يحاول رضا جاهداً أن يوقفها بعدما لاحظ إسرافها بالشراب.. لكنه لا يعلم بأن تلك عادتها فهذا اليوم هو الأول له للعمل بعدما اختارته حارساً شخصياً لها.

موسيقا صاخبة.. يصرخون معها بكل ما فيهم من غضب مكبوت غضب من أشياء يعرفونها وأشياء لا يعلمون عنها شيئاً، في مكانٍ كهذا الكل هارب من نفسه، اختاروا السهر ليمارسوا ما عجزوا عن ممارسته نهاراً بحجة أنهم عاقلون، هنا فقط يعلنون العصيان على كل شيء بممارسة الجنون.. دون دفع ضريبة البريستيج الاجتماعي، الجميع متشابهٌ هنا.. الرقص نفسه، الضحك الهستيري ذاته، الهروب من كل شيءٍ إلى اللاشيء، الجميع يأبى الاعتراف بضعفه.. الجميع يرفض الاعتراف بهزيمته أمام كل الاشياء المعلنة وغير المعلنة، الكل متفقٌ بصمت على عدم الوثوق بالآخر، حبال تربطها حلقات تاريخية وسياسية واجتماعية بهزائم لا تنتهي، هزائم يسمونها انتصارات ليهربوا من الاعتراف بحقيقتهم.. حقيقة كل شيء، حقيقة زيزي الآن بتمردها على حريتها التي قيدتها بدلاً من أن

تجعل منها أيقونة يعلقها رجل ما على صدره ويضمّها حين تحتاج إليه، أيقونة معلقة على ثوب طفل طالما حلمت بإنجابه، أيقونة معلقة على باب منزل تنتظر به زوجاً لا يأتي.. تتناثر أفكارها تحت تأثير الكحول مصوبة حنقها على خيباتٍ كانت للأمس القريب تمثل لها انتصارات.!!!!

ما الذي يتبقى من النفس حين يخترعون الأكاذيب نفسها والمجاملات ذاتها ويضحكون بوجوه بعضهم البعض مخفين أنيابهم بحرص ريثما ينتهي كل منهم من مصالحه مع الآخر؟ ماذا يتبقى من المشاعر حين تتحول لمواد أولية بأيدي آخرين يصنعون بها ما يحلو لهم دون أن يجرؤ أصحابها على المطالبة بالبوح بجزء من ألم؟ ماذا يتبقى من الروح حين يعلنون أنهم أقوياء وبداخلهم ظهور تُجلد بسوط المكابرة والتبجحات؟ ماذا يتبقى من امرأة أمضت عمرها ملوحة بسأم وملل لكل عابر سبيل نسيت أن تسأله عن اسمه قبل أن يغادر سريرها صباحاً.

ترمي زيزي في جوفها ما في الكأس دفعة واحدة مطلقة ضحكة عالية: تنادي من مكانها:

- رضا.. تعال إلى هنا!

يركض مسرعاً وهو يقفل أزرار الطقم

- أمرك ست زيزي

- اجلس

ولكن

تصرخ: قلت لك اجلس.

تعاود ضحكها من جديد، انهض لململم لي الأقنعة التي سقطت قبل قليل.

رضا لا يخفى عليه أنها أسرفت بالشراب

يقول لها مسايراً:

أمرك سألملهم جميعهم

- اخرس، تقولها بعصبية مرسلةً شرراً من عينيها جعل رضا يتجمد مكانه.

تسايرني إذن؟ ما من أقنعة على الأرض، إنها ما زالت تعلو وجوههم ولو نزعت واحداً.. فاجأتك عشرة أقنعة غيرها حتى هم أنفسهم قد نسوا وجوههم الحقيقية.

تكمل كلامها وهي تهزّ بساقها مستهزئة بقرف.

هل ترى الرجل القبيح هناك في الزاوية الذي يغازل فتاة صغيرة بعمر ابنته.. مصدقاً بحماقة أنها تحبه؟

لا تشر بإصبعك.. أراك تثمل وأنا التي تشرب.

إنه رجل الأعمال المعروف لطفي زوج سيدة المجتمع ابنة الحسب والنسب التي ورثت عن أبيها الكثير من العقارات وملايين الدولارات وأحبت هذا التافه الذي عمل سائقاً عند والدها، أنجب منها ثلاثة أبناء، وفي غمرة العشق الذي مثله عليها منحته وكالة غير قابلة للعزل، فقام بعد فترة بنقل كل ما تملكه لإسمه ما تسبب لها بشلل نصفي لم ينفع معه العلاج في جميع مشافي العالم، وما يعرفه الناس كما أُشيع لهم هو أنها تعرضت لحادث سير حين كان سائقها مخموراً وتمت محاسبة السائق الذي اختفى ولا يعلم أحد شيئاً عنه حتى الآن، ولربما كان اقتصاص الزمن من جدها.

- وما علاقة جدها؟ لم أفهم

- يقولون بأن جدها كان خائناً وعميلاً للفرنسيين الذين احتلوا دمشق، كان قد تطوع لديهم وشكّل فصيلاً مؤلفاً من بعض الأفراد الذين يشبهونه بخيانتهم، وقد سلم الكثير من الرجال الوطنيين في وقتها كي يحصل على مكاسب سلطوية ومادية.. حتى أن أصابع الاتهام تشير بأنه هو وفصيله من قاموا بتعطيل الألغام التي زرعها الرجال الوطنيون لتفجير الدبابات الفرنسية وإن أصابع الاتهام التي تناقلتها الألسن تشير إليه بقتل قائد وطني كبير برصاصة غدر في ظهره وكتب التاريخ أنه (أي القائد) استشهد في المعركة، وقائد الفصيل الخائن جد زوجة لطفي هو من نزع العربة عن خيل ذلك القائد وجرها بدل البغل مع آخرين في شوارع دمشق بحجة أنهم يرفضون ضرب دمشق.. ولو لم يقتل القائد الوطني لتغيرت معادلات كثيرة في مسار التاريخ ومستقبل السياسة لصالح بلادنا.

ضحكت مندهشة قائلة:

- لا أعرف ما الذي دفعني لقول ذلك ربما لأن هذا ما يكرره لطفي دائماً حين يحضر لمنزلي مخموراً كعادته ويبدأ الموشح نفسه بخيانة جد زوجته التي يشكو لي من تصرفاتها متوهماً أنها الطريقة المثلى لأحنو عليه، تبتسم ساخرة.. يتحدث عن الخيانة وكأنه جاء إلى صومعتي ليصلي.

غبي.. ككل الرجال المساكين الذين تتلبسهم حالات الحماقة الممزوجة بالبلاهة حين يفقدون السيطرة على تصرفاتهم لأجل ساعةٍ من المتعة.

أما الرجل الجالس على الطاولة المقابلة التي يصدر أصحابها ضحكاتهم كلما تحدث، مصدقاً ببلاهة أن الباعث على ضحكهم هو خفة ظله، بينما هم يضحكون موفرين على أنفسهم الخوض بأحاديثه المملة حد التثاؤب، هذا مدير مصرف عقاري اسمه هاشم.. أنشأ جمعيات وهمية

تحتال على الناس بحجة تشغيل أموالهم بدون فوائد.. مستعيناً بفتاوى بعض الشيوخ بأن المال الذي يتم تشغيله إن لم يحدد له مبلغ ثابت فلن يتم اعتباره ربا، مستغلاً حاجات الناس وركضهم وراء لقمة عيش ليس من السهل الحصول عليها في مناخٍ فاسد سيطر عليه أمثال هؤلاء القابعين في قصورٍ بُنيت على حساب أولئك المساكين.

كم من امرأة اضطرت لبيع مصاغها، وكم من الأشخاص سلموه كل ما ادخروه لسنين طويلة وكم من أحلام بنوها.. وكم.. وكم.. وكم.. ثم عدلت من جلستها وابتلعت ما في الكأس مكملة حديثها.

أما صاحب الطقم اللامع وربطة العنق الرفيعة والكرش الكبير فقد قام بفتح مكاتب تجارة يستورد من خلالها بضائع مقلدة لأشهر الماركات العالمية من مصانع متخصصة في الصين كالنظارات والحقائب والأحذية وبيعها على أنها ماركات أصلية بأسعار خيالية.. وكما يقولون (رزق الهبل عالمجانين) إذ من يستطيع في بلدٍ كهذه يعاني من ظروف اقتصادية متدهورة، شراء حذاءٍ يصل سعره إلى ما يقارب ٤٠٠٠ دولار بينما دخل الفرد لا يتجاوز ٧٠ دولار.. من يفعل ذلك سوى المنتفع الذي لا يختلف عن صاحب الكرش الكبير بإجرامه ولو بدرجات متفاوتة.

ضحكت ضحكة عالية وأكملت..

وذاك العجوز الذي يتحرك باتجاه الحمامات وكأن أدوية مدرات البول لا تأخذ مفعولها في جسده إلا هنا.. هذا السيد هاشم وهو رب عمل لأطفال الشوارع الذين نراهم أمام إشارات المرور وأمام المحلات، أعمالهم موزعة ما بين تنظيف السيارات وبيع الورود والتسول وأشياء أخرى.

معظم هؤلاء يعتمدون على أشخاص (كسبة) هم المسؤولون عن العمليات المباشرة وكما يقال.. (بالواجهة) وحين اكتشاف أمرهم

يقومون بزج هؤلاء (الكسبة) بالسجون، وأما المنتفعون الكبار فعادة ما يتم تهريبهم خارج البلاد وربما عمل قسم منهم بالسياسة كمعارضين، تسبقهم أموال وُضِعت باسمهم في البنوك الخارجية إلى أن يتم التحضير لأشخاصٍ منتفعين جدد ينوبون عنهم بسرقات جديدة وجمعيات جديدة يديرها أمثال هاشم بالخفاء كطاحونة هواء تدور وتدور دون أن يعلم أحد متى تتوقف، ومتى يتغير مسار الرياح.. رياح قانون يسلب الناس إنسانيتهم ويجردهم من قوتهم ومن إيمانهم ومن فكرهم ومن علمهم ثم يرمونهم كحبة قمح في رحى تدور بأياد تطحنهم دونما رحمة.

لم يُكشف أمر هاشمٍ وأمثاله حتى الآن أتعلم لماذا؟ سأشرح لك.

الفساد السياسي في بلدنا يتخذ شكلاً هرمياً، أساسه مبني بمنح رأس الهرم الصلاحيات لأقاربه من باب المحاباة، وقس من هذه النقطة كم من الأشخاص الفاسدين الذين استغلوا هذا النفوذ لمصالحهم الشخصية تحت اسم المحسوبية، ثم تأتي الفئة الثانية من المنتفعين المحسوبين على أقارب رأس الهرم وهؤلاء يمثلهم أعضاء البرلمان الذين يلجؤون لأقارب رأس الهرم ليدعموهم مادياً في حملاتهم الانتخابية عن طريق الاقتراض من بنوك الدولة مع الاتفاق على نسبةٍ يحصل عليها أقارب رأس الهرم من المرشحين الذين سيعيدون المبلغ الذي افترضوه مع فوائده دون أن ينسوا أنهم سيعملون لاحقاً لصالح من دعمهم مالياً في تلك الحملات، الفئة الثالثة والتي تسيطر على القضاء المنبثق عنه سيادة القانون والذي من المفروض أن تكون مهمته نشر العدل والتعامل بحزم مع أي خطأ يمكنه المساس بالدولة والأمن.. هذه السلطة يدعمها أعضاء البرلمان الذين نجحوا في الانتخابات المزورة، وهذه الفئة تعتمد على الرشاوي والابتزاز مما يسهل حركة النشاط الإجرامي والمخدرات والدعارة.. وهي أيضاً ستعمل لصالح الفئة الثانية.. أما الفئة الرابعة فمهمتها تقويض الهيئة التشريعية للتقليص من استجواب مسؤولين

دارت حولهـم الشـبهات بمسـائل فسـاد ومـا شـابه ذلـك وهـذه سـتعمل لاحقاً لمصالـح الفئـة الثالثـة.. ثـم تأتـي للفسـاد الإداري الـذي لا يـردع الموظفين عن تأخير المعاملات وتأجيلها إلى حين حصولهم على رشوات يأخذونهـا بشـكل مباشـر مـن أصحـاب المعامـلات أو عـن طريـق وسـطاء، هـذا مـا عـدا الظلـم الـذي يلحـق بموظفيـن أكفـاء وشـرفاء واسـتبدالهم بموظفيـن آخريـن اختارهـم المديـر (لسـرعة بديهتهـم).

الفسـاد والابتـزاز والرشـاوي هـم السـوس الـذي ينخـرُ فـي خشـب المؤسسـات التـي سـتنهار لاحقاً مـع انهيـار الديموقراطيـة المتهاويـة أصـلاً حين تزعمها رأس هرم تفرد بالحكم لمصلحته، حاكم مصاب بغرور مرَضي يعتقـد فيـه أنـه هـو الحاكـم والمفتـي والعبقـري والطبيـب والمهنـدس والعالـم والفيلسـوف والمرشـد والمحيـي والمميـت والقـادر والمقتـدر ومالـك الملـك الـذي يتحكـم بثـروات البلـد وأهـل البلـد وبأنّ مـن حقـه مصـادرة الأراضـي بحجـة توسـيع الشـوارع أو بنـاء أبنيـة حديثـة وحـرق الـزرع لاسـتبداله بالإسـمنت، وتحويـل ميـاه الأنهـار والينابيـع لقصـوره وقصـور مساعديه ومـد مياه الآبار التـي يشـرب منهـا الشـعب المتوهـم أنـه يشـرب مـن نبـع الفيجـة.. كمـا يرى أن مـن حقـه فـرض الضرائـب ومصـادرة الأمـوال، ومـن حقـه أيضـاً وضـع مـا تنتجـه أمـوال تلـك الثـروات والمصـادرات وغيرهـا فـي البنـوك الخارجيـة.

أشـعلت سيجارتها وسـحبت نفسـاً عميقاً منهـا.. مرسلة نظراتها إلـى رضا الـذي بـدا مشـدوهاً.. ضاحكـة بسـخرية تكمـل بهـا كلامهـا

تخيـل أن رأس الهـرم لا يأخـذ ولا حتـى إجـازة مرضيـة لشـدة خوفـه علـى بـلاده.. لذلـك فقـد قـرر منـح الحريـة والعدالـة والديـن والأخـلاق والتربيـة والتعليـم إجـازات مفتوحـة حتـى إشـعار آخـر.

مثـل هـؤلاء تجـد أكثرهـم فـي صالـة القمـار يدخلـون إليهـا بابتسـاماتهم

ولطفهـم.. يجلسـون حـول الطاولـة بلباسـهم الإيطالـي الأنيـق وربطـات العنـق والعطـور الباريسـية، لكنّهـم عنـد الخسـارة يتحولـون إلـى نيرونـات لا يمنعها شيء من إضرام الحرائق معتقدين بذلك أنهم سينجحون باستعادة مـا خسـروه قبـل أن يرميهـم موظفـوا الصالـة للخـارج حيـن تماديهـم وحيـن الوثـوق بـأن جيوبهـم قـد فرغـت تمامـاً، لقـد مـات الكثيـرون حـول طاولـة القمـار حيـن لـم تحتمـل قلوبهـم الإفـلاس وكـم ذهـب ضحيتهـا عائـلات لا ذنـب لهـم بمـا يفعلـه المقامـر بمسـتقبلهم، وكـم غـدر هـذا الفيـش بزبائنـه المكرميـن.. وكـم أصـاب ذلـك النـرد صاحبـه بالخيبـة حيـن وثـق بـه ثـم رمـاه النرد بعنف على أرض الخسارة التي لم يسعفه بها نرد آخر رماه على أمل استرداد حق الاعتبار، لم تشفع أرقام النرد لا لسلطان ولا لوزير ولا لأمير وكلمـا خذلهـم همـس بآذانهـم سـاخرًا.... العـوض بسـلامتي.

كنت كلما نظرت إلى وجوههـم طالعتني بها قطـع آثار، تنفرني منهـم لكنـي مضطـرة علـى الابتسـام.. مشـمئزة مـن رائحـة تقرحـات أجنابهـم علـى الكرسـي نفسـه.. روائحهـم التـي يخفونهـا بأغلـى أنـواع العطـور، أتقيأهـم قرفـاً كلمـا قلبـت سـجلاتهم وتاريخهـم المزيـف وأوسـمتهم التـي حصلـوا عليهـا رمـز بطولـة كلمـا احتـل غريـب أرضـاً.. كل أعمالهـم تتـم فـي السـر يبيعـون ويشـترون سـرّا، يزنـون سـرًّا، يثملـون سـرًّا، يقامـرون سـرًّا، يحرصـون علـى بيـع نسـائهم سـرًّا، يودعـون أموالهـم فـي البنـوك الأجنبية سـرًّا، تحبل بناتهـم سـرًّا ويجهضـن سـرًّا، يحاربـون ضـد أشـقائهم سـرًّا، يقفـون أمـام المنابر الثقافيـة صارخيـن للديموقراطيـة وحريـة التعبيـر ثـم يوقعـون علـى منـع نشـر أي كتاب لا يمـر تحـت مجهـر رقابتهـم تحـت طائلـة المسـؤولية، فقـط مايفعلونه علنـاً هـو شـتم العـدو بخطـاب وشـتائم يلقونهـا، خطابـات كَتَبَهـا لهـم العـدو نفسـه.

فـي تلـك الصـالات يجتمـع كل العـرب مـن جميـع الجنسـيات.. يختلفـون علـى كل شـيء.. ويتشـاجرون لأتفـه شـيء.. يتصالحـون حينًـا ويتخاصمـون

حينًا آخر، منهم من يقامر للتسلية ولا يهمه ما يخرج من دفاتر شيكاته حتى لو خرج ولن يعود.. ومنهم من يقامر حباً بالتحدي للفتك بنفسه قبل أي شيء آخر، لكلٍ طريقته ولكنهم نسوا بأن مصيرهم واحد مشترك وهذا المصير هو الخسارة!!

يا لهذه الطاولة الصغيرة التي تشبه الوطن العربي الكبير.

١٧

# الفصل السابع عشر

لقد اقتبسنا من نار
الكلمات وحولناها
لمرثيات.. أكثر مما
اقتبسنا من ضوء
القمر..

**المـوت لـم يعـد مخيفـاً بقـدر الحيـاة التـي تميتنـا كل يـوم ميتـاتٍ مختلفة، ميتة من غدر صديق.. و ميتة بحقد عدو.. و ميتة من حسد الأقارب وميتة بإيلامنا لأنفسنا كل لحظة لأشياء فعلناها خارجة عن إرادتنا وحماقات ارتكبناها نتيجة طيبة دفعنا بها ثمن سذاجتنا.**

توقفـت أم محمـد عـن كلامهـا حيـن دخلـت مهجـة للمهجـع مـع بقيـة النسـوة.. وبقيـت تلك الكلمـات محفـورة بذاكـرة مهجـة حتـى بعـد خروجهـا من السجن فيما بعد، استقبلتهن النسوة بحفاوة وكأنهن ينتظرن بلهفة سماع قصص جديدة تحكي لهن ما يحصل في الخارج.

عينا مهجة تجوسان في المهجع خائفتين، منكمشة على نفسها محاولة البحث عن زاوية تهرب إليها كقطٍ مذعور، تقترب منها صبية محاولة طمأنتها بعدما لاحظت ارتباكها وخوفها.

تضع يدها على كتف مهجة وتطبطب عليه قائلة:

- لا تخافي ياعزيزتي، اسمي أميرة تعالي أعرفك على بقية الصديقات.

شعرت مهجة بارتياح كبير بعدما انهزم جيش الخوف الذي كان يحاصرها، وكأن المصير المشترك الواحد بينهن هو وجودهن في المكان ذاته على اختلاف التهم.. وهذا ما جعلها تشعر بالراحة غالباً.

تصرف أميرة الإنساني أنساها للحظات ما عانت منه خلال الشهر الماضي، تستقبلها خمس نسوة كن قد اتخذن زاوية لهن في المهجع، أما البقية فاتخذن الطريقة نفسها.. وكأن كل مجموعة اختارت ما يناسبها من الصديقات، هذا ما لاحظته حين مشت نظراتها باتجاه الجميع.

اختفى ارتباكها بعد مدة قصيرة من جلستها معهن وكأنهن يعرفنها منذ زمن بعيد، كن لطيفات جداً والمهجع لم يكن كما تصورته قبل قدومها إليه، فهو حديث نوعاً ما وجدرانه مطلية ونظيفة لكن ككل السجون لا يخلو من كتابات تعلو جدرانه من آيات قرآنية وأدعية ومقولات، لقد اعتنى المسؤولين بالسجن وأدخلوا عليه تحسينات بدلاً من هدمه.

بادرتها سهير وهي مهندسة مدنية بالسؤال المألوف:

- ما هي تهمتك؟

تنهّدت مهجة بأسف وقالت:

- لا أعلم لقد قضيتُ في زنزانة فرع التحقيق قرابة الشهر بل وأكثر قليلاً بعدها أرسلوني مع مجموعة معتقلات إلى القضاء العسكري، مكثنا هناك قرابة الساعتين لكنهم لم يعرضونا على ضابط أو قاض وبعد مضي الساعتين أرسلونا بشاحنة لنقل المواشي إلى الإيداع في قسم شرطة ركن الدين الذي قضينا به ليلة إلى أن جاؤوا بنا إلى هنا.

تجيبها امرأة اسمها وداد.

- نعم هذا ما يحصل تماماً، إنه الروتين والإجراءات المتخذة مع جميع المتهمات بالإرهاب.. لكن ما لا تعرفينه هو أنك بعد فترة ستمثلين أمام قاضي التحقيق الذي سيصدر حكمه بالمدة التي سيحددها من خلال الجرم المنسوب إليكِ.

والحكم الذي سيصدر بحقك يتوقف عند من يستطيع مساعدتك في الخارج من خلال رشوة القاضي.. فكلما ارتفعت قيمة الرشوة كلما خفض القاضي مدة قضائك في السجن.

تقول مهجة بحزن:

- لكن أهلي لا يعلمون أين أنا، ولم أستطع رغم كل المحاولات أن أرسل لهم رسالة عن مكان وجودي.

تجيبها أميرة

- لا عليكِ أعطني رقم هاتفهم أو عنوانهم إن أحببت، وأنا ساقوم بدوري بإعطائه لأحد أفراد عائلتي حين يأتون لزيارتي الأسبوع القادم، الحمد لله أننا نستطيع عمل ذلك فالكثيرات من النساء حضرن من محافظات أخرى.. وكما علمنا ممن جيء بهن فيما بعد بأن المناطق التي جئن منها قد تضررت وهجر سكانها ولم يعد بالإمكان معرفة أماكن وجودهم، ومنهم من غادروا خارج البلاد وأولادهم في السجن وبات من شبه المستحيل معرفة أماكن بعضهم البعض ثم تابعت كلامها..

أنت لا تملكين المال، أعلم ذلك فاللواتي أتين إلى هنا صودرت هواتفهن المحمولة ونقودهن.. لا تهتمي لهذا الأمر سأقوم بمساعدتك قدر الإمكان ريثما تتواصل عائلتك معك.

يقطع حديثهن صراخ امرأة من المهجع الآخر.. تنتفض مهجة من مكانها مذعورة، تعانق أميرة وتخفي وجهها في صدرها،تمسح أميرة على رأسها مهدئة من روعها قائلة لها:

- اسمعيني جيداً

جئت إلى هنا منذ أحد عشر شهراً، تهمتي هي الإرهاب.. قمت بخطف ضابط بمساعدة شقيقي وسلمناه للجيش الحر، شهقت مهجة محملقة بعينيها غير مصدقة ما سمعت ثم سألتها بصوت منخفض يكاد لا يسمع:

- وكيف أمسكوا بك؟

- كانت وشاية من مقربين منا ثم استدركت قائلة:

- ولم تخفضين صوتك؟ زمن خفض الصوت انتهى.. والثورة أغلقت أبوابها بعد ستة شهور من انطلاقتها حين حولها النظام من ثورة تطالب بالكرامة إلى ثورة مسلحة.. ورغم كل ما فعله الا أن الخوف غادرنا وإلى الأبد.

ترد عليها فتاة تجلس في آخر المهجع ساخرة منها بلغة عربية ضعيفة.

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. لقد جعلت دموعي تسقي الأرض لشدة تأثري بوطنيتك، وهل كنت مسالمة حين قمت بخطف الضابط؟

توجه أميرة كلامها لمهجة وهي تستعد للنهوض قبل التوجه إلى الفتاة قائلة:

- آها.. لقد عرفتك على صديقاتي ونسيت أن أعرفك على بقية السجينات، أشارت بإصبعها إلى الفتاة التي سخرت منها قبل قليل وهي تمد ذراعها نحوها بطريقة مسرحية ساخرة.

هـذه لونـا.. والمـرأة التـي بجانبهـا هـي والدتهـا الدكتـورة سـحر التـي اشـتهرت قصتهـا فـي المدينـة حيـن تحـدت الجميـع وتزوجـت مـن حبيبهـا الأرمنـي المحامـي آفيـن المشـهور الـذي توفـي قبـل عاميـن.

هي تسخر مني لأني خطفت ضابطاً في الجيش، لكن هي ماذا تفعل هنا مع أمها؟ ثم التفتت إلى لونا مطلقة ضحكة عالية.

- تراك سئمت من منزلك الكائن في أرقى أحياء دمشق وجئت إلى هنا للاستجمام؟

اقتربت أميرة أكثر من لونا وتهيأت النسوة لصدّ أي هجوم مرتقب من الامرأتين.

- سيدة لونا، نعم أنا قمت بخطف ضابط ولست نادمة.. لكنك تعلمين أن الأسـباب التـي دفعتنـي لاختطافـه هـي عمليـة تبـادل مـع شـبان اعتقلهـم الأمـن لخروجهـم فـي المظاهـرات ومنهـم أطفـال لا تتجـاوز أعمارهـم الأربعـة عشـر عامـاً.. أمـا أنـت وأمـك وخطيبـك فقـد قمتـم باسـتغلال الثـورة لصالـح السـفالة التـي تسـكنكم كمـا فعـل البعـض، ثـم قمتـم بخطـف رجـال أعمـال لطلـب فديـة تسـتر عجزكـم المالـي كـي تبقـوا محافظيـن علـى البريسـتيج الاجتماعـي والسـفر لبيـروت كل أسـبوع لقضـاء عطلتكـم، خسـارتي ربـح لـي حيـن أتألـم مـن أجـل غيـري، لكـن الرذيلـة الاجتماعيـة التي يمارسـها أمثالكـم هـي الخسـارة العظمـى، فأنتم تتكالبون مسعورين على المال لتنفقوه بكل دناءة حفاظاً على مركزكـم المـادي والاجتماعـي بـكل وضاعـة.

التفتت امرأة إلى لونا قائلة:

- ليتك بقيت صامتة كي توفري على نفسك سماع كلام لن يرضيك..

قفـزت لونـا مـن مكانهـا وعيناهـا تقدحـان شـراً، ممسـكة بشـعر أميـرة

لتطرحها أرضاً، اشتد العراك بين الامرأتين ولم تستطع النسوة تخليصهما إلى أن دخل المسؤولون عن المهجع، في تلك الاثناء انسحبت مهجة لزاويتها ترتجف من الخوف، وقد عاد صراخ المرأة من الخارج الذي لم تعرف سببه مهجة حتى الآن.

**الموت أرحم من نزع الموت وها نحن نصارع الحياة لنستمر.. رغم أن الحياة تصارعنا بآلامها لكننا مصرون على العيش.**

رقد الجميع وبقيت مهجة مستيقظة تفكر، رغم تعبها وحاجتها الشديدة للنوم.. لكن ما إن بدأت تغفو حتى جاء صوت يصرخ راكضاً باتجاهها قائلاً:

انتظري جئت لأحكي لك قصة قبل أن تنامي

لكنك لست من أصدقائي.. وأصدقائي نائمون.. وأنت لا تشبههم.. من أنت؟ كأنك تشبه القبر؟

أجل أنا القبر.. وأريد جواباً منك لسؤال أرقني حين رأيت خوفك اليوم وشعورك وأنت تستمعين لقصص أدهشتك بغرابتها وكأنك خارج هذا الزمان.

- سؤالي.. من أصدق فينا أنا أم العيش.. أقصد الموت أم الحياة؟

وشوشته بحذر خشية إزعاج نوم الأخريات.

- يقولون إن الحياة خداعة وفيها المزيج من الخطأ والصواب..والحب والكره..والجد واللهو.. والطمع والقناعة.. والعدل والظلم.. أما الموت فهو نهاية هذا كله.

- وماذا تعرفين عن القبر؟

- هو آخر منزل يسكنه الإنسان دون مطالبته بضريبة العيش.

- وماذا عن ضريبةِ الآخرة؟

تلعثمت ولم تجد جواباً لسؤاله..

أجابها مبتسماً:

- الإنسان هو جزءٌ من كل.. والإيمان هو الحقيقة التي تتفرع عنها أجزاء من الكل، والمؤمن.. هو فقط من يعيش تلك الحقيقة ويعمل على كسب الحياة حين لا يعتبر نفسه أنه جزءٌ من كل.. ويجاهد مستمراً بمحاولاته كي يعيش حقيقته الإنسانية كاملة، ومع ذلك ربما لا ينجح.. لأنه لم يخلق كاملاً أصلاً، وسعيه للحقيقة الإنسانية هي إيمانه بأنه لن يخلد.. وأن الخلود هو خلود الروح وخلود الأعمال وما يقدمه في دنيا بعثه الله إليها ليكمل الإنسان ما ابتدأه الخالق وما زرعه في قلب المؤمن من شك ويقين وما هي واجباته اتجاه الآخرين، وأنه مهما هرب من قدره فلا بد من عودته لي، للقبر.

في منزلي.. حين أستقبل الميت ويهيلون التراب فوقه ويحزنون لفراقه ويموتون هم أيضاً موتاً مؤقتاً حين يأخذون إجازة من أعمالهم لينصتوا للحزن والذكريات.. ثم لا يلبثوا أن يعودوا بعد الأربعين ليفتحوا وصيته متقاسمين ما خلّفه وراءه وغالباً ما ينسون حزنهم عليه حين لا تعجبهم القسمة.. الطمع تتفاوت نسبته بين شخص وآخر، لكن في النهاية اسمه الطمع الذي يفسح المجال لأصحابه بالتخلي عن إنسانيتهم والتحول لوحوش ينقض بعضهم على بعض ليلقي كلاً بصاحبه في هوة سحيقة تجعل منهم مجرمين ليحققوا أطماعهم دون رادع أو ضمير.. بينما أنا أواسي الميت الذي أسكنته بيتي الأبدي دون أن أساله ماذا كان منصبك أو كم هي أرصدتك في البنوك.. وأي البلاد التي سافرت اليها قد

أعجبتك وتريد العودة إليها.. أنا مهمتي أن أساله.. ماذا قدمت لدنياك.. وكم محتاجاً ساعدت.. وكم أرملة سترت؟ وكم يتيماً آويت؟ وكم منزلاً للفقراء بنيت؟ وكم من اليتيمات أفرحت؟

قبل أن أذهب أود قول شيءٍ لك؟ تذكري أن هناك أناساً يحل لهم قتل أشياء دون أن يحاسبوا.

- ما هي تلك الأشياء؟

سألته باندهاش..

أجابها:

- قتل الشهوات، قتل الطمع، قتل البخل، قتل الظلم، هذه الأشياء وما يتفرع عنها يحدثون ضجيجاً وفوضى تمنعهم من الإنصات لما هو حقيقي وإنساني.. أنت الآن مثلاً ميتة مع وقف التنفيذ، حياتك ميتة حين لا تنتجين فيها أو تبدعين.. لكن اطمئني فهذا موتٌ مؤقت لن يدوم.. لكن حين تخرجين اعملي في حياتك ولحياتك ماينجيك من أسئلتي.. فما من إنسان مهما بلغت قوته وجبروته.. إلا قادم إلي.

استيقظت مهجة على أصوات مشاجرة بين امرأتين، إحداهما تزجر الأخرى دفاعاً عن سجينة اسمها سمارا.. وكما عرفت قبل قليل من أميرة بأن سمارا سجينة مسالمة جداً ومسكينة تنكرت لها الدنيا كما تنكر لها الجميع.. حُكِم عليها بالسجن لمدة عامين بتهمة الإرهاب وهي بريئة من تلك التهمة، القصة وما فيها أنها وبينما هي جالسة أمام باب منزلها وإذ ببعض شبان المظاهرات يركضون هرباً من الأمن، أحد هؤلاء الشباب أوقع سمارا من كرسيها ودخل البيت.. شاهده أحد رجال الأمن يدخل المنزل ولحق به وقام مع بقية أفراد الأمن بتفتيش المنزل إلا أنهم لم يعثروا عليه لأنه هرب عن طريق السطح واختفى.. اعتقلوا

سمارا ولفقوا لها تهمةً أنها تقوم بإيواء العصابات المسلحة في منزلها.. وبدلاً من وقوف أهلها إلى جانبها.. ونتيجة خوفهم من بطش الأمن واعتقال رجال العائلة.. أعلنت أسرتها التبرؤ منها وأن لا علاقة لهم بها.. حضرت إلى هنا منذ عشر شهور ولم يزرها أحد باستثناء زوجها الذي جاء مرة واحدة حين رمى عليها يمين الطلاق ومضى دون أن يجاوبها عن سؤالها بخصوص طفلتهما، لكن بعض السجينات قاسيات القلوب جعلن منها متنفساً لغضبهن، يقمن بضربها وزجرها والصراخ عليها.. وما من شيءٍ تفعله سوى الإنزواء في زاويتها متكومة على نفسها لا تجرؤ على النطق بحرف، تنام على الأرض فهنا لا فراشاً تنام عليه أو سريراً أو وسادة لأنها لا تملك المال.

تتنهد أميرة بحزنٍ قائلة وهي تنظر إلى سمارا.

- إنه الظلم القديم ذاته بأشكاله المتعددة التي تعرضت له المرأة منذ سنين طويلة، ومنذ أن حرمت بأن تكون لها سيادة على نفسها، ليجعلوا منها شخصاً تابعاً إما للزوج أو الأخ أو الأب أو العم أو الجد، دون أن يكون لها رأي خاص بها يمنحها الحق بالسكن وحدها إن تعرضت لظلم مجتمعها وعائلتها في غالب الأحيان، هم نادوا كثيرا بمساواة المرأة مع الرجل بالحقوق والواجبات، لكن تم التحفظ على هذا الامر بشكل كبير، ولو كان القرار حقيقياً لما حرمها من منح جنسيتها لأطفالها ولما تمّ هجرها من قبل الزوج حين يقرر الزواج بأخرى ليضعها أمام مفترق طرقٍ بين مطرقة الزوج وسندان المجتمع، وبين حاجاتها الجسدية ورغباتها، وبين حضانتها لأطفالها والإنفاق عليهم في ظل غياب زوج ادعى بأنه سيعدل بين زوجتين، والشاهد على ذلك قضاء فاسد يدعي وقوفه إلى جانب المرأة وبأنه في حال الزواج بأخرى فيجب إعلام الزوجة بذلك وموافقتها، بينما الواقع مختلف تماماً حين يتم زواج زوجها بالسر عنها.. وحين تلجأ للقضاء

فإنها لـن تجـد سـوى قضـاء خاضـع لمنظومـة فسـاد ليـس بمقـدور الزوجـة فعـل شـيء عندهـا إلا الصبـر وانتظـار الفـرج..

ظلـم الدولـة، ظلـم المجتمـع، ظلـم الأهـل، ظلـم القضـاء، ظلـم المحيـط، أي قلـب يسـتطيع تحمـل ذلـك كلـه.

ثم أردفت تقول:

- حتـى الطعـام المقـرف اليومـي نفسـه والمؤلـف مـن برغـل وفاصوليـاء وبطاطـا، بالإضافـة إلـى حبـة طماطـم وحبـة بصـل.. إلا انـك تريـن أن مسؤولة الطعام مع مساعدتها يقمن بسرقة حبة الطماطم والبصل مـن حصـة سـمارا وأخريـات لا يملكـن المـال.

غيـر أن أحداثـاً تغيـرت قبـل مجيئـك بيوميـن حيـن أحضـروا سـجينة كانـت تمـول المشـافي الميدانيـة فـي منطقتهـا واسـمها ناديـا لاحظـت المـرأة مـا تفعلـه النسـوة بسـمارا وتولـت أمـر إطعامهـا وشـراء فـراش وغطـاء لهـا، مدافعـة عنهـا كلمـا اقتربـت إحداهـن منهـا.

فـي مـكان كالسـجن لا تسـتطيعين يـا عزيزتـي تقمـص شـخصية الأم تيريـزا دائمـاً إلا فيمـا نـدر، فالغالبيـة ظروفهـن الماديـة متشـابهة ومنهـن لا يتلقيـن إلا الجـزء اليسـير نظـراً لفقـر عائلاتهـم التـي لا تسـتطيع تأميـن الكثيـر مـن المـال لهـن، فكمـا تريـن نحـن ثلاثـون سـجينة فـي هـذا المهجـع ومـن يمتلكـن المـال هـن سـت سـجينات فقـط

**أسـلاك شـائكة اسـمها الفقـر هـي مـا تجمـع بيـن المـوت والحيـاة وعوالـم متناقضـة الأفعـال تفصـل بينـه وبيـن الغنـى والإنسـانية، حاجـزٌ يقـف بيـن الجـوع والشـبع وبيـن البطـر والحاجـة.. ونحـن مؤرجحـون بيـن تناقـض الفعـل مـع القـول وبيـن تناقـض الفعـل مـع العمـل.**

**- مـاذا يتبقـى مـن الإنسـانية حيـن يـرى الأغنيـاء الأحيـاء يمشـون ميتيـن**

وقـد أحنـى ظهورهـم حمـل همـوم تكسـرهم فـي كل لحظـة دون أن يشـعر أولئـك بمسـؤولياتهم تجاههـم أو الشـفقة عليهـم؟ مـن فيهـم الميـت؟ فقيرٌ يحيـا بالمـوت والعـوز والحاجـة أم غنـي يعيـش بضميـر ميـت وقلـب أغلقـت صمامـات شـرايين إنسـانيته؟ مـا بـال البشـر باتـوا بخـلاء حتـى علـى اللـه حيـن طلـب منهـم أن يقرضـوه قرضـاً حسـناً؟!!

١٨

# الفصل الثامن عشر

أن تضل الطريق
وتصر على المضي
والبحث.. خير من
عودتك لنقطة
الصفر..

وجـوه متبرمـة، عيـون حاقـدة باشـمئزاز، زوابـع بداخلهـم تتهيـأ لهيجـان الارتفـاع، والـدة مصطفـى تنتحـب بصمـت مـرددة بألـم:

- مصطفـى لـم يمـت، بـل سئم الرحلـة واختـار أن يكـون مـوج بحـر ويرحـل كمـا رحـل غيـره آخـرون.

هـدوء يحمـل داخـل طياتـه قلقاً وخوفاً وترقباً وجـدوا أمكنـة لهـم فـوق قـارب المـوت بانتظـار اللاشـيء.

اللاجئـون عبـارة عـن غضـبٍ مكبـوت يؤجلونـه ريثمـا ينتهـي مـزاج الوقـت مـن تسـليته بهـم.. بعـد أن يتخـذ قـرار بتحديـد مصيرهـم.

صامتـون.. وبداخلهـم عالـم يعجـزون عـن الإفصـاح عنـه، إنـه الشـعور بالدونيـة ضـد وجودهـم، مبعثـرون بحـزن داخلهـم.. يحملـون موتهـم ومـوت الآخريـن، يرمـون بحبـال ذكريـات يمضغونهـا ويبتلعونهـا بمـرارة وألـم كألـم تشـنج حلـق لا يقـوى علـى البـكاء.

حالة انتظار للاشيء و ترقب للموت، الشمس ستبدأ بالمغيب وحلوقهم صبّار بري ينخز شوكه حناجرهم وقلوبهم.

توقفت الثرثرة.. وتوقف كل حلم كان يسكنهم.. وتسلل اليأس مطلقاً صافرات إنذاراته بالموت المحتم، محنية أجسادهم، متعبون من حمل هموم وذنوب ارتكبها غيرهم ورموها عليهم ثم وقفوا يراقبوهم من بعيد، أحمال وضعها قرصان بري ما زال ينتشي فرحاً لعذاباتهم، قرصان قتلهم كي يتسلى.

الاسترخاء في هذه اللحظاتِ يعني الموت، إثنان من اللاجئين لم يستطيعا الاستمرار في تلك الرحلة المجهولة فقاما برمي أنفسهما في البحر، بقية اللاجئين لم يصدر عنهم أي صوت أمام منظر الانتحار ولا حتى شهقة اندهاش أو اعتراض، أسدل الصمت ستاره على الجميع.. فهم أيضاً ميتون مع وقف التنفيذ، بدوا وكأنهم عبارة عن كهف مهجور نسج عنكبوت على بوابته خيوطه منذ ألف عام، هل ينتهي كل شيء هكذا؟

لا اتصالات.. لا أمل.. لا أحلام، فقط سماء واسعة وبحر محيط بهم ولا أثر لليابسة و جوع وعطش وجلود أحرقتها شمس آب، صوت تدفق طيات الموج الصغيرة تبعث على الاطمئنان قليلاً.. ولكن من يدري متى يغدر البحر.

كأنّ السماء أُنهكت نيابة عنهم وبدت حزينة وقاتمة لأجلهم.

همست سيرين في أذن العجوز:

- الاستسلام للموت بحجة النوم أفضل من مقاومة لا طائل منها ولا فائدة.

وما إن أسقطت رأسها للخلف مغمضة عينيها حتى انتفضت لصوت العجوز وهو يصرخ بصوت يشبه هدير موج تكسر على الصخور رغم

ضعفه وارتجافه... رفع يديه للسماء مستجيراً.

**يا الله... لقد سألك موسى.. يا رب أين أجدك فقلت له: عند المنكسرة قلوبهم، وهل هناك أناس منكسرة قلوبهم أكثر منا يارب؟ ياربي لا عاصم لنا من هذا الماء سواك، نستجيرك بكليمك موسى أن تخلصنا إما بالحياة أو أن تأخذنا إليك فلم يعد لنا قوة على عمل شيءٍ يارب... ثم أجهش بالبكاء.**

وما هي إلا دقائق حتى حصل شيء لا يصدق، حالة من الذهول استمرت لثوان أو دقائق أو دهور لا أحد يعلم.. أحد اللاجئين يشير بيديه وقد فقد القدرة على الكلام من هول المفاجأة، التفت الجميع وإذ بباخرة يعتقد أنها باخرة شحن تتوسط البحر، صرخ الرجل العجوز لا بد لنا من لفت أنظار طاقمها، وقف ماهر وخلع قميصه ملوحاً.. لكن على ما يبدو أن ما فعله لن يفضي لنتيجة فالباخرة عملاقة ومركبهم يبدو مثل حصاة صغيرة على ظهر جبل.

يصرخ شاب آخر محتجاً وشاتماً ماهر على نزع قميصه لأن فعلته هذه لا تليق أمام فتيات لا يجوز لهن النظر إلى جسد رجل عار.

تقترب امرأة من ماهر وهي ترسل نظرات إزدراء ممزوجة بالاشمئزاز والغضب إلى الشاب المعلن عصيانه على العري.. تناول ماهر إبنها ذات الست أعوام قائلة له دون أن تزيح نظراتها الغاضبة عن الشاب:

- من الأفضل أن تحمله على كتفيك وتناوله قميصك ليلوح به.. ربما بذلك نستطيع عمل شيءٍ للفت أنظارهم إلينا.

يلوح الطفل بيديه الصغيرتين والمرأة تنظر لذلك الشاب بعينين يتطاير منهما الشرر والغيظ قائلة لطفلها بحنق وبطريقة لا تخلو من الاستفزاز:

- أحسنت يا بطلي.. لوِّحْ بقميص الرجل الذي سينقذنا حين تعرّى.. لوِّحْ

يا صغيري.. لوِّحْ أكثر.. فحزام العفة المثقوب كاد يودي بنا إلى التهلكة.

الباخرة تقترب.. واللاجئون يتدافعون وكأنهم نسوا أن الموت كان محيطاً بهم منذ دقائق.. كأنهم نسوا مصطفى.. كأنهم نسوا اللاجئين اللذين انتحرا قبل قليل.. كأنهم نسوا أن الحياة غير ممكنة من غير أشخاص آخرين كانوا يعيشون معهم.. وأن الموت قبره لن يتسع إلا لشخص واحد.

على ظهر تلك الباخرة ظهر رجل ملوحاً بيديه.. استطاع رؤيتهم مرسلاً إشارات اطمئنان، ورمى بنفسه من ظهر الباخرة سابحاً باتجاههم، وما إن وصل حتى تناول الحبل المتبقي المربوط بالبالم وأمسك به.. ثم أومأ بيده للرجال الذين على ظهر السفينة كي يلقوا إليه بسلم مصنوع من الحبال.. متحدثاً بالإنجليزية طالباً بأن يتمّ إنقاذ النساء والأطفال أولاً.

جسده عبارة عن مجموعة وشوم رسم عليها حكايا لم يكن هناك متسع من الوقت للشرح عنها.. بالإضافة إلى حلق مغروس في أذنيه وأنفه وفمه وفوق سرته، تبين فيما بعد أنه من الهند تلك البلاد المشهورة بكرهها للدم والعنف.

بعد أن انتهى البحارة الموجودون على ظهر السفينة من سحب الأطفال بواسطة الحبال جاء دور النساء ليصعدن أيضاً وخلفهم البَحَّار منتظراً صعود الرجال والشبان.

أخذ الجميع يتدافعون وكأنهم في طابور لبيع الخبز في بلادهم الفوضى ذاتها، يا للخجل حين نعجز عن تبرير أخطاءٍ لا تُبرر.

تقرأ سيرين في ملامح البحَّار خيبة ظنه واحتقاراً ممزوجاً بالحزن حين رأى الشبان يضربون بعضهم ويصرخون لأولوية كل واحد منهم بالصعود أولاً.

أمر بإنزال سلماً آخراً كي ينهي تلك المهزلة.. لكن المهزلة استمرت

بخجل أكبر حين ترك الجميع سلم الحبال الأول الذي كانوا يتقاتلون من أجله متسابقين للسلم الثاني.

لم يكتفِ البحّار بالمشاهدة التي رآها والتي سيسجلها بالخط العريض في صفحات تاريخ رحلاته على أنها أغرب ما رآه.. وبأن أسماك القرش لها أشكال بشر، بشر إن عادوا لحقيقتهم فستراهم قناديل بحر لطيفة طالما أنك بعيد عنها، كان بودّ سيرين أن تقول للبحّار ألا يؤاخذهم على أفعالهم فهم دائماً يسيئون للأشياء دون قصد.. كانت تود أن تقول له:

- نحن شعب يتلذذ بالشتيمة أكثر من تلذذه بالضرب.. ولا تستغرب أيها البحّار أنهم في غمرة الموت قد نسوا أن يظنوا بك كعادتهم أنك فخ نصب لهم.

ودّت سيرين أن تشرح له أكثر من ذلك.. إلا أنها تذكرت بعدم اتقانها اللغة الإنجليزية.. وبأن البحّار متفرغ الآن لنقل الأطفال الذين بدأوا بالتقيؤ نتيجة الملح الذي ابتلعوه.. وكذلك الجميع.

مشت سيرين بإتجاه ماهر لتساعده بسكب الماء على قدمه.. إذ التصق جوربه بالجلد نتيجة الملوحة، حاول عدم إظهار ذلك الألم فتفكيره منصب على كيفية التخلص من الجورب العالق بجلد قدمه، تقدم العجوز حين لاحظ ارتباك سيرين أمام الموقف ومدّ يده نازعاً الجورب بقوة خرج معها الجلد، صرخ ماهر وأُغمي عليه ولم يستيقظ إلا حين سكب عامل في السفينة كحولاً فوق جلده المكشوط.. ليستيقظ ألماً محترقاً

تمتم ماهر محاولاً التغلب على وجعه:

- نحاول جاهدين التخلص من أشياء تؤلمنا لكننا نضطر بظرفٍ ما للمواجهة، مهما حاولنا تجاهل تلك الأشياء.

ابتسمت سيرين ابتسامة لا تخلو من السخرية قائلة:

**- معك حق هناك تشابه كبير بين جوربك الذي علق بجلدك وبين حياة أفنت أرواحنا، نسينا معالجة قروحها في زحمة أحلام تصورنا أننا قادرون على تحقيقها سابقا.. ثم جاءت لتذكرنا بأنه لا قيمة لنا حين تواطأنا مع ذاتنا بعدم إعطاء تلك الحياة معنى تستحقه الحياة الإنسانية.. لا الحياة الفوضوية.**

أجابها العجوز:

- معك حق ولكن لتكن حياتك الآتية عبارة عن قصر كبير ممنوع أن يدخل إليه مريض مصاب بالإحباط.

قطع حديثهم البحار الهندي حين ناولهم طبقاً مليئاً بحبات البطاطا المسلوقة وماء.. كما فعل مع الجميع.. ثم عرض عليهم الاتصال من هاتف الثريا بأصدقائهم او أقاربهم ليطمئنوهم، وفعل ذات الشيء مع بقية اللاجئين.

انتظر أحد اللاجئين ذهاب البحار الهندي وتقدم من ماهر وسيرين والعجوز قائلاً بصوتٍ تشوبه الريبة:

- لاحظت منذ دقائق حصول أشياء غريبة لا أستطيع إيجاد تفسير لها ففي أثناء إغمائك قبل قليل.. وبينما الآخرون منهمكون بالطعام حضرت سفينة أخرى وأشار بيده إليها، تلك هي.. مازالت قريبة من سفينتنا.. وقف ماهر وسيرين والعجوز كي يتسنى لهم رؤيتها:

- وما الغريب في ذلك؟

قال ماهر دون أن يخفي شعور الحذر الذي انتابه:

- لا أدري لكني أشعر بأن هناك شيئاً مريباً يحصل.

طلب منهم ماهر الانتظار ريثما يتأكد من البحَّار فهو رغم حذره إلا أنه

لم يشك بالبحار على أنه خائن أو لص أو مجرم.

تقدم من البحَّار محاولاً الاستفسار بطريقة لا تجعل الأخير يشعر بما يحاول ماهر التقصي عنه.. ولفت نظره سلاح ثقيل مما جعله لا يستطيع إخفاء ريبته وخوفه.

البحار ذكي لدرجة أنه فهم ما يعتري ماهر من شعور، فبادر بالكلام قبل أن ينطق ماهر بحرف بعد أن أخفض الجهاز المحمول قائلاً:

- لا تخف يا أخي.. فتلك السفينة التي قدمت باتجاهنا سفينة يونانية تطالبنا بإنزالكم، فكما تعلم ممنوع على سفن الشحن نقل أي شخص في عرض البحر، وإلا تحملنا المسؤوليات وخاصة أننا ما زلنا في المياه الإقليمية اليونانية.. وما نفعله الآن هو محاولة إلهائهم ريثما ندخل في المياه الإقليمية التركية ويتسلمكم هناك خفر السواحل التركي الذين تواصلت معهم.. وأنا الآن أحاول إلهاء اليونانيين قدر الإمكان كي نتجنب استخدام السلاح.

مد البحار يده على كتف ماهر يشرح له:

- أرجو منك أن تهدأ.. فما فعلته يصب في مصلحتكم وصدقني لن تنفدوا منهم هذه المرة إلا بعد أن يقضوا عليكم ويرموكم وجبات لأسماك البحر.

- البحار محق.

قالتها سيرين حين نقل لها ماهر مادار بينهما من حديث.. رغم إحباطها ويأسها بأنها لن تنجح خطتهم باللجوء إلى أوروبا حين يستلمهم خفر السواحل التركي.

مضت نصف ساعة تقريباً وسفينتهم ما زالت تناور السفينة الأخرى عن

طريق أجهزة اللاسلكي.

حين رأى اللاجئون قدوم قوارب سريعة من بعيد تحمل جنوداً أتراك مدججين بالسلاح وعلى ظهرها مجموعة من القناصين.. عرفوا أنهم قد دخلوا المياه الإقليمية التركية.

بدأت القوارب السريعة تأتي تباعاً إلى أن حوطوا خفر السواحل اليوناني محذرين وطالبين إنزال أسلحتهم.. فهم قد أصبحوا في المياه الإقليمية التركية، انسحب خفر السواحل اليوناني وصعد أفراد الخفر التركي لنقل اللاجئين.

البحَّار ورفاقه صامتون يراقبون المشهد بأسى.. واللاجئون يلوّحون بأيديهم للبحَّار الذي كان يلوح بعينيه الجميلتين.. مرسلاً من خلالها شيفرة تحمل كل أسرار بحار العالم.. وحزن وغضب وتحدي العالم.

أحد اللاجئين طلب التعرف على اسم البحَّار الذي رفض الإفصاح عن اسمه قائلاً:

**- ماذا يتبقى من الإنسانية حين يفصح أصحابها عن أسمائهم ليشتهروا على حساب أناس مساكين؟**

غابت الشمس.. وحل الظلام وهاهم من جديد على الشاطئ الذي غادروه ريثما يتم نقلهم إلى إزمير.

# الفصل التاسع عشر

لا طعم لا لون لا
نكهة في حياتها
قبل أن يسكنها
الحب..

يستأذن رضا بالدخول.

- يجب علينا وضع أوزان متماثلة بالوزن لا بالحجم طبعاً.

- وهل يمكننا قياس وزن الكفة الأخرى بالضمير مثلاً؟ هل يتوازن الضمير مع الأخلاق؟ هل هما كفتان متشابهتان بالأفعال؟

- لا أعتقد فالضمير لا يقاس بالأوزان ولا بالأحجام، إنه ثابت لا يباع ولا يشترى.. ولا يتجزأ.. ولا ينقص ولا يزيد.

والضمير نابع من الأخلاق.. ومن فقد الأخلاق فقد الضمير.. وحين تفقد تلك الأشياء يصبح حتى الوزن.. لا وزن له.

- وأين تجد نفسك أنت من خلال مافعلته في حياتك؟

صمت طويلاً ثم قال وهو يشعل سيجارته:

- أنا لا أنتمي لأي منهما ففيما مضى كنت مجرد وحش آدمي يهجم

علـى كل مـا يمكنـه أن يحقـق لـه سـعادة، سـعادة اكتشـف متأخـرًا أنهـا مؤقتـة لا تـدوم، خطئـي أننـي أغفلـت عامـل الزمـن ولـم أفكـر بمـا سـتؤول إليـه أيامـي وسـنيني.

- أما زلت لا تنتمي إليهما؟

**- أحـاول لملمـة شـظايا نفسـي المبعثـرة بيـن الحانـة والمسـجد.. وبيـن رائحـةِ طهـارة أمـي المدهونـة بمـاء الوضـوء وطعـم صلاتهـا، كل مـا بداخلـي غيـر مسـتقر.. فحيـن أنشـد الفضيلـة تأخذنـي قدمـاي لصالـة القمـار لأن هنـاك مصـدر رزقـي بوظيفـة مراقـب للاعبيـن وحيـن أنشـد التوبـة أضطـر للخـروج معـك للمراقـص فواجبـي حمايتـك وحيـن أنشـد الحـلال تظهـر أمامـي نسـاء لا أقـدر علـى لجـم رغباتـي أمامهـن.. كيـف سـأنتمي إلـى أصحـاب الأخـلاق والضميـر وأنـا مشـتتٌ بيـن مـا أريـده وبيـن مـا يريـده غيـري لـي؟**

أنا إن صحّ التعبير رجـل مضعضـع.. مسـلوب مـن نفسـي ومهـزوم، وميزانـي لا يتقيـد بقانـون.. وفـي كفتيـه خيـر وشـر.. ولا أعلـم أيـة كفـة سـترجح فـي النهاية.

دخلـت الخادمـة تحمـل القهـوة ووضعـت الصينيـة علـى الطاولـة وقبـل أن تخـرج قالـت لزيزي:

- لقد جهزت لكِ الحقيبة والأغراض التي طلبتِها يا سيدتي.

- جهـز نفسـك أنـت أيضـاً فالزيـارة هـذه المـرة سـتطول، ربمـا لأسـبوع أو عشـرةِ أيـامٍ بحسـب الظـروف.

- بيروت أليس كذلك؟

- أجـل.. ولكـن فـي هـذه المـرة سـتكون رحلتنـا مختلفـة وتتطلـب منـك

الكثير من الحذر والكتمان.

ثم أشارت بإصبعها حتى كادت تلمس وجهه.. بالأخص مهيوب.

- سامحك الله، وهل قمت بغير ذلك طيلة الفترة الماضية التي عملت بها لديك؟

- لا ولكن الحذر واجب، وتنبيهي لك لا يعني فقدان ثقتي بك.

أشعلت سيجارتها وسحبت نفسًا عميقًا وأخذت ترشف من قهوتها.

- هل تسمحين لي بطرح سؤال؟

- بالتأكيد!

- أراك اليوم على غير عادتك. وكأنك تريدين البوح بشيءٍ لكنك عاجزةٌ عن قوله، لاحظت شرودك منذ الصباح وقمت بإغلاق جوالك وأعطيت الأوامر بعدم السماح باستقبال أحد، هل حصل طارئ لا سمح الله؟ اعذريني على تطاولي لكنك تعلمين بأني مستعد أن أفديك بروحي وهي أرخص ما يمكن تقديمه.

- آآآه يا رضا.

قالتها بحرقة وهي تعيد فنجان القهوة إلى الصينية.

- آآه لو عادت أيامي لزمن أختاره لها، لأبدأ من تلك النقطة من جديد لكنه أمرٌ مستحيل ونتجاوز التفكير به لعجزنا عن تحقيقه.

بدأت تتحدث على غير عادتها وكأنها تنتظر هذه الفرصة منذ زمن، ربما استبدلت مرآتها التي كانت تبث لها همومها بمرآة حقيقية تمثلت برضا وبدأت تنبش تراب قلبها الحزين الذي غطت غشاوة دمعه على كل ما هو جميل في دنياها وتابعت تقول:

**- أحببت دوماً البدايات ربما لغموض ما تخبئه، أو أن بداية كل شيءٍ هي بمثابة ولادات جديدة نفرح بها أو نحزن لأجلها قبل الدخول في التفاصيل المملة والمستهلكة.**

وفاة والدي تركت جرحاً غائرًا في أعماقي.. لم تستطع السنين محوه والسبب لم يكن حبي له، بل حباً ممزوجاً بالشفقة عليه وهذا أمر شرع الأبواب لسيطرة مشاعر الحزن والحقد لمن تسبب في أذيته وأولهم أمي.

تعاملت مع الحياة كأننا في حلبة للمصارعة، مرة تهزمني ومرة أنتصر عليها.. ومرات كثيرة بادرت للاستراحة قبل ممارسة اللعب من جديد، فيما مضى كرهت المدرسة ووالدتي شجعتني على ذلك فهي امرأة لا تتحمل مسؤولية أي شيء مهما كانت سهولته.. وإيقاظها صباحاً لتسرح شعري كان ينتهي دائماً بالصراخ والغضب واللعن والشتم، إلى أن بدأ والدي بأخذ دورها ولو كلفه ذلك زجر مديره لتأخره عن وظيفته والمدرسة لا تختلف طباع معلماتها عن طباع أمي ولو بنسبة أقل فالطالبات الفقيرات يأتين دوماً في المؤخرة سواء بالمقعد المدرسي أو بالاهتمام أو التشجيع، الفقيرة منا بمثابة نموذج للفشل والكسل والتقاعس والخمول.. ودائماً هناك سهم يشير إلينا بما سيحصل حتى قبل وقوعه وكأننا علامة استدلال لشارع مليء بالقاذورات، ممنوع على ابن المعلمة أو ابنتها أو ممن تنتفع من أهاليهم الاقتراب منا وكأننا جذام.

أكثر ما كان يحزّ في نفسي هو تفوق أبناء المعلمات دائماً رغم غبائهم، وجلاؤهم المدرسي عامر بعلامات مرتفعة. وشهادات الامتياز التي يحصلون عليها بتكرار مقيت سبب لي عقدة ما تزال تصاحبني حتى الآن لدرجة أنني كنت أقتصد من مصروفي لأشتري شهادة منها من المكتبة القريبة من مدرستنا، طالبةً من صاحب المكتبة كتابة اسمي عليها.. إلا

أنه هو الآخر لم يكن ليفعل ذلك لولا زيادة ليرة او ليرتين أجرة يده.

لم أفاخر يوماً بتلك الشهادة.. ولم يكن القصد منها إغاظة صديقاتي بل للاحتفاظ بها بين دفاتري والعودة إليها كلما حصل ابن المعلمة الغبي على علامات تفوق، لأثبت لنفسي أن الامتياز الذي حصل عليه سببه جهود أمه.. كما جهود صاحب المكتبة، قد سلبت تلك الشهادة عقلي وباتت جمرة كلما خفت نارها أشعلها حصول ابن أو ابنة معلمة على امتيازٍ جديد.. وصرت أشبه الأعور الذي لا يرى بعينه الواحدة في المدرسة إلا المرحى والامتياز.. أما الجمرة الثانية التي ألهبت قلبي هي رحلات المدرسة لغوطة دمشق؟ فالغوطة تعني نهر بردى والسواقي والشجر والخوخ والكرز والدراق والتدحرج على العشب والتفيؤ تحت أشجار المشمش والتوت واللعب واللهو.. والأهم من ذلك كله الهروب من البيت أكبر وقت ممكن.

رحلات الغوطة تركت في نفسي جروحاً لا تُنسى.. سببها الذل وقلة الثقة بالنفس، حين كان يتم تجميع الطلاب خارج صفوفهم ووقوف مديرة المدرسة في منتصف الباحة تطلب بصوت عال من الطلاب المقتدرين مادياً بالمساهمة بدفع تكاليف الرحلة للفقراء مصرحة عن أسمائنا أنا ومن هم مثلي، قتلتني نظرات العطف والإشفاق.. آلمني عدم رفض والدي قبول هذا العطاء تحت وطأة العجز.. وكنت فرحة بالوقت ذاته.. فلطالما حلمت بتنفس هواء الغوطة الذي سمعت عنه في الكتب المدرسية ومن جيراننا الذين كنت أنتظرهم كل يوم جمعة جالسة على مصطبة البيت ليحدثوني كيف قضوا نهارهم وعما رأوه.

تتنهد زيزي مسهبة في كلامها.

- أما عيد الشجرة.. فقد كان بالنسبة لي بمثابة رد اعتبار لذاتي، فالاحتفال يتطلب من الطلاب إحضار أصص من الزريعة مع كلمات

تعبر عن حب الطبيعة ليلقوها أمام لجنة تحضر خصيصاً للمشاركة وسماع مواضيع الإنشاء التي كانت تبدأ جميعها بجملة (ازرع ولا تقطع) ولم نكن نعلم لغباتنا بأنهم كانوا يقطعون غابات ويحرقونها لبناء قصورهم. وأن الينابيع فقد مدت منهم أنابيب مخصصة لجر مياهها لبيوت المسؤولين والأغنياء في مناطق محددة من دمشق.. أما باقي الشعب فكان يشرب من الآبار متوهمين أنها من نبع الفيجة.

كم احتاج اختياري للزريعة التفكير ساعات وساعات محتارة أي أصيص أختار.. إلى أن يقع اختياري لنبتة تحبها أمي.. ربما لإغاظتها أومعاقبتها.. لا أدري.

كم تعثرت ووقعت وأنا في طريقي إلى المدرسة حاملة أص الزريعة التي منعتني شتلاتها من رؤية الطريق أمامي جيدًا.. وأما فرحتي فتعني الإسراع بالوصول مبكرة قبل الآخرين.. وقبل أن تكتشف أمي السرقة فأنا أخذتها دون علمها.. أمي رفضت دوماً إهداء ولا حتى شتلة صغيرة للمدرسة معتبرة إدارة المدرسة لصوص في وضح النها.. وأنهض بعد تعثري بكل شموخ، أسير مرفوعة الرأس.. متجاهلة ألم ركبتي.. فاليوم هو عيد رد الاعتبار بالنسبة لي.. لا عيد الشجرة..

هذا الاحتفال يعني أن تتحول المدرسة لمرج أخضر يستطيع من خلاله الطلاب الاعتناء بالنباتات والاهتمام بها طيلة العام الدراسي، هكذا أوهمونا.. ولكن بعد الانتهاء من الاحتفال وقبل الانصراف تقوم المعلمات باختيار ما أعجبهن من تلك الأصص وأخذها لبيوتهن.. والباقي يتم إهماله حتى يتحطب ويرمى خارجًا بعد فترة دون إعادتها لأصحابها أو السماح لهم بأخذها.. وكأنهم كانوا يعاقبون ذلك العرق الأخضر المسكين لأنه لم يثر إعجابهم.

ننتهي من عيد الشجرة.. ليأتيك عيد المعلم الذي أنكس أمامه أعلامي وأعلن ذلي من جديد حين لا أستطيع إحضار هدية مناسبة تعجب

المعلمة لتدللني وتضع لي العلامات التامة لأني قمت بواجبها كما تفعل الأخريات.. لذلك كنت أتغيب في كل عيد للمعلم بحجة المرض أما المعلمة فكانت تذعن في إذلالي رغم معرفتها بظروف عائلتي لتنتقم مني بطلب التقرير الطبي الذي لن يمنحه لك الطبيب دون مال.

يصعب علي الكلام عما عشته فالتجربة دائماً لا تأخذ حقها كاملة، ربما لعجزنا عن وصف شعورنا. مهما كان ذلك الشعور.. سواء كان حزناً أو فرحاً أو خديعةً أو ظلما، هنالك أشخاص يبالغون بالحديث عن تجاربهم وآخرون يصمتون عاجزين عن الكلام أو شرح ما تعتريه أنفسهم من مشاعر.

سخرية كل ما عشناه.. وكل ما مارسناه سخرية، ماذا يعني بالله عليك اجتماع أولياء الأمور مرة كل شهر؟ ما الذي سيحققونه من اجتماعات لن تفضي إلى نتيجة طالما أن المقرر مكتوب ويمارس دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض.

سأحكي لك قصة جرت ذات مرة في اجتماع أولياء الأمور.. قالتها ضاحكة وهي تعدل من جلستها وتشعل سيجارة أخرى:

رافقت أبي الذي وافق على حضور الاجتماع نتيجة ضغطي عليه ورجائي له بألا يخذلني، ربما وجدها فرصة كي يخرج ما بداخله من انفعالات ليلقيها دفعة واحدة في وجه إدارة المدرسة من المعلمات والمديرة، كنت ممسكة بيده ونحن في الطريق إلى الاجتماع.. وكان يرعد ويزبد بأن طريقتهم بالتعامل مع الطلاب والتفرقة بينهم هو عمل يوصل لحقد سينمو دون أن نشعر بذلك.. وبأن أيام العطل والاحتفالات تؤثر بطريقة غير مباشرة على آلية التعليم.. فمثلاً لو استبدلنا أيام الاحتفالات بأعمال يستفيد منها الطلاب.. توزيع كتب علمية.. أو قصص تنمي من قدراتهم الإبداعية.. لكنا حافظنا على جيل لن يتلف عقله نتيجة هذا التزوير الذي يمارس عليه بحجة بطولات تاريخية أكثرها وهمية، وكلما زاد انفعاله ازداد

وجع كفّ يدي الذي يشد عليه حين تتوسع آفاق افكاره إلى أن ترك يدي فجأة وأخذ يتكلم ويشرح عن ماهية خطورة الجهل حين لا نقرأ إلا المنهاج المقرر دون إضافة ثقافات عامة توسع من إدراك الطالب وجعله يبدع في المجالات التي يحبها.. وحين نسي نفسه توقف وبدأ يتكلم بصوت مرتفع أكثر بينما أنا أنظر اليه محدثة نفسي: ياإلهي لقد جن والدي!

أسهب واسترسل بالكلام وكأنه يخاطب جمهوراً أمامه، وأنا توقفت حين توقف.. أنظر إليه مندهشة وكأنني النقطة التي سقطت من اشارة التعجب!

- لا لا لا أبداً لن يجدي هذا نفعاً!!

ثم ضحك ساخراً موجهاً حديثه لجمهوره.

- ها ها ها.. أخبروني بالله عليكم، ماذا سيستفيد طالب في التاسعة من عمره من التدبير المنزلي؟

ثم لوى رأسه واستدرك أننا في الشارع وأننا سنتأخر عن اجتماع المدرسة.

عند وصولنا أمام باب المدرسة رأينا السائق الخاص بالمديرة يسرع ليفتح لها باب السيارة، أطرق والدي قليلاً وعدل من قبة قميصه ودخلنا.

اختار والدي الكرسي الأخير للجلوس.. ثم بدأ حضور الآباء تباعاً حتى اكتمل العدد، دخلت المديرة ومعها المعلمات فقام أولياء الأمور بالوقوف بشكل ذكرني بنا نحن الطلاب حين دخول معلمة الصف.

بدأت المديرة بشرح المنهاج الجديد المقرر مدة نصف ساعة.. وكلما صمتت قام أولياء الأمور بالتصفيق لها وتشجيعها على الاستمرار،

تعمدت أن لا يراني والدي أتلصص من خلف النافذة منتظرة خروج الكلام الذي قاله ونحن في الطريق.. وتوقعت صمته حين رأيته يبتلع ريقه أثناء مشاهدته المديرة في سيارتها التابعة للمخابرات.

مضت الساعة الأولى قدمت بها إدارة المدرسة كؤوساً من العصير شربت بلحظة والسبب لم يكن العطش ربما كان الخوف والنزق، مضت نصف ساعة أخرى والكلام مازال يصدر من المديرة والرؤوس تهتز علامة الإيجاب والإعجاب وأولهم والدي، انفض اجتماع أولياء الأمور بالموافقة منهم على ما قالته المديرة عن لسانهم.. وشكرتهم لإصغائهم وإعجابهم، وشكروها بدورهم على العصير.. ثم ذهبنا للبيت مشياً على الأقدام وعادت المديرة بسيارتها إلى بيتها.

- مسكين أبي، تركته والدتي يتعامل وحده مع عواطفه دون مشاركة حزنه أو صمته.

قالتها وهي تخفي دموع قهر ابتلعتها لقاع القلب:

- مضى عشرون عاماً على رحيله وما زالت صورته لا تفارقني كأنما غادرني للتو.. وبعد مضي سنوات قليلة لازمني سؤال أردده دائماً بيني وبين نفسي:

تُرى لو بقي والدي حيّاً إلى الآن.. هل كنت لأستمر بحبه والشفقة عليه؟! فموته خلق لي ولأمي حياة جديدة اشتراها لنا مهيوب الذي انتهك شرف والدي بمساعدة أمي.. ولو أنه لم يشهد خيانتهما لما سقط ميتاً.. ولما كنت أنا الآن مالكة هذا القصر الجميل وتلك التحف الثمينة التي اشتريتها من كل بلدٍ سافرت إليه.. ولما كنت استطعت إعالة أسر كانت تتضور جوعاً، هل كنت لأسامحه لو بقي حيًّا أم كنت سأحقد عليه؟!

أسئلةٌ كثيرة راودتني طويلاً نقرت جمجمتي كنقار الخشب، آلمتني وما زالت تؤلمني دون إيجاد أجوبة مقنعة لها.

بدأت حياتي الجديدة بعد وفاة والدي حين رحلنا عن حينا القديم وأقمنا في حي أبو رمانة الراقي الذي شهد اغتصاب جسدي وفرحي وطفولتي من مهيوب.. وكبرت في صالة القمار بين أصوات النرد وقرقعة الفيش والمشاجرات بين الكبار.. وبين جثث أخرجوها حين توقفت قلوب أصحابها عن العمل نتيجة توقف أحجار حظوظهم لصالح آخرين.

قلت لك في بداية حديثي بأنني أحببت دومًا البدايات لكن للأسف كل البدايات التي صادفتها كانت بدايات لحوادث مؤلمة باستثناء بداية غيرت مسار حياتي كله.

نادت على الخادمة كي تجدد لهما القهوة، بينما رضا يعدل من جلسته دون الانتباه لنفسه كم كان مشدودًا للحقائق التي صدرت عن زيزي ودون أن يخفي فضوله بتساؤل أدهشه لاختياره هو بالذات لتحدثه بذلك كله.

منذ حوالي سبع سنوات دعينا لمؤتمرٍ أقيم في مصر للصناعيين العرب وبما أن مهيوب أصبح من أصحاب المليارات وهو مستثمر صناعي مشهور فقد أرسلوا له بطاقة دعوة وطلب مني أن أجهز نفسي للسفر، ترددت في بداية الأمر لكني تراجعت حين تذكرت الأسواق التي كنت أراها في الأفلام والأهرامات والنيل، فغايتي كانت السياحة لا الأعمال، فليذهب للجحيم هو وأعماله ولأهنأ أنا في التسوق والمشتريات.

انتهى المؤتمر وقبل العودة بيوم طلب مني مهيوب تهيئة نفسي على العشاء لمقابلة رجال مهمين مع عائلاتهم معظمهم رجال كبار في السن.. أما زوجاتهم فهن عبارة عن دمى حية تكاد تشعر حين تضحك

الواحـدة منهـن وكأن أطـراف شـفاهها سـتتمزق مـن عمليـات التجميـل، لا يهـم.. فعنـد الانتهـاء مـن الجلسـة سـيذهب كل إلـى عالمـه، النسـاء للنـوم والراحـة.. والرجـال لفنـادق أخـرى مرتبطيـن بهـا بموعـد مـع عشـيقاتهم.

عندمـا انتهينـا مـن العشـاء اقتـرب رجـل أربعينـي مـن طاولتنـا وسـلم علـى الجميـع، نهـض أحـد الضيـوف ليعـرف الجميـع علـى الضيـف الوسـيم جـدًّا.

السيد إيزاك رجـل أعمـال ومسـتثمر صناعـي مقيـم فـي نيويـورك.. ثـم وجـه كلامـه لمهيـوب قائلاً:

أنـا متأكـد بأنـك سـمعت بأبيـه رجـل الأعمـال المعـروف والصناعـي السـيد نـادر الـذي مـا زال اسـمه يتـردد علـى كل لسـان حتـى بعـد خـروج الطائفـة اليهوديـة مـن دمشـق فـي التسـعينيات.

طبعاً طبعاً وهل يخفى القمر؟

مـا رأيكـم بتلبيـة دعوتـي لاحتسـاء المشـروب فـي مـكان جميـل علـى النيـل؟ قالهـا وعينـاه لا تبارحـان عينـي، وافـق الجميـع علـى الدعـوة، ومـن يجـرؤ علـى رفـض قبـول دعـوة السـيد إيزاك؟

شـعرت بارتبـاك حيـن دخلنـا.. ارتبـاك لـم أشـعر بـه مـن قبـل.. وحيـن ترتبـك امـراة مثلـي أمـام رجـل فهـي حتمًـا سـتكون وقعـت فـي حبـه أو توشـك علـى ذلـك.

تحدثنـا طويـلاً.. وشـعرت معـه بأننـي فـي عالـم آخـر، عالـم مسـحور مـن الأضـواء والبهجـة أرسـلته السـماء لعالمـي المتشـح بالسـواد.. ضحكـت مـلء قلبـي.. و طـرت معـه وسـافرت فـي عالـم مـن أحـلام أيقظنـي منـه مهيـوب ينبهنـي بـأن علينـا الذهـاب.. فطيارتنـا سـتقلع ظهـرًا وعلينـا أن نسـتريح ونهيـئ أنفسـنا للسـفر، اعتـذرت مـن إيـزاك.. لكـن عينـاه فضحتـاه فقـد رأيـت بهمـا حيـرة لـم يجـرؤ علـى البـوح بهـا، فهمـت أنـه قـد تـردد بالسـؤال عـن سـفري وقـرأت داخلهمـا كلمـات تقـول: لا ترحلـي.

وقبل أن نمضي أمسك بيدي مصافحاً وهمس بكل لباقة.

- سأتصل بك صباحًا إن كنت لا تمانعين.

- سأكون بانتظار مكالمتك. إلى اللقاء.

هجرني النوم ليلتها.. أشرقت الشمس وأنا أنتظر اتصاله كطفلةٍ تهيئ نفسها للعيد.. عند الساعة السابعة رن جوالي وكان هو.

تتلاحق أنفاسي مسرعة، متجاهلة كل ما فعلته لضبطها صباح الخير قلتها بصوت مرتعش.

لاحظ ذلك عندما سألني ما بك تلهثين؟ وكي أخفي اضطرابي جاوبت بأني في الصالة الرياضية أمارس الجري.. انطلت الكذبة عليه أم لا لا أدري لكن ضحكته أوصلت لي رسالة بأني أكذب، لا يهم.. وقررت ان أبقى أسبوعاً آخرًا والأسبوع امتدّ خمسة عشر يوماً كنت فيهم امبراطورة متربعة على عرش الكون.

لن تصدق لو قلت لك أننا خلال الخمسة عشر يوماً تلك، افترقنا وعدنا وضحكنا وبكينا وتشاجرنا وتصالحنا وكأننا تعارفنا قبل خمسين عامًا واكتشفت معه بأن حب النظرة الأولى هو الحب الذي يعمر.. وآمنت أنه هو الحب الحقيقي الذي يستمر لفترة طويلة بخلاف الحب الذي يأتي بعد إعجاب بالصفات وتعارف وتبادل أفكار.. فحب النظرة الأولى هو حب لأجل الحب.. وليس حب الشخص ذاته وهو الحب الذي لا ينتهي.

خمسة عشر يوماً حفروا عميقًا بداخلي ليرمموا كل كسرٍ عاشه عمري ونفضوا الغبار عن أحلام عمري التي تراكمت فوقه غبار السنين بانتظار رجل يفتح صندوق امرأة مخبأ بداخله كنوز لم يكتشفها رجل.. وقصص واقفة على حافة جرح تحتاج من يزيح عنه صخرة علقت على قمة منحدرٍ وجع حجب الرؤيا والتنفس.

كانت خطواتي ترتبك كلما اقتربت من لقاءه، فأنا امرأة لم آلف الشوارع السهلة والمعبدة، معه كففت عن ثرثرتي والتزمت الصمت فأنا امرأة اعتادت على قص البسمة ولصقها فوق شفاهها، في بداية علاقتي معه لم أستطع التغلب على صلابتي وقسوتي على الأشياء أحيانًا.. فكثيرة كانت اللحظات التي زأرت بها كلبوة جائعة في زاوية بعيدة كي لا يسمع أحد أنين وجعي وجوعي وتهشم ارتطامي وانكساري، قلت له ذات مساء التحفني به حبه أمام الموقد في بيته الريفي الايطالي:

لا تلم نظراتي المحنكة والمترقبة.. فأنا لم آلف إلا نصب الشباك المنصوبة لي، لا تعاتبني كثيراً على أسلوبي الهجومي بالكلام.. فلقد تعودت ذلك دوماً لدرء الخطر عني، لا تلم شراستي.. فقد كبرت في سيرك لترويض الوحوش الكاسرة.. وكان لا بد إن صادفت أرنبًا مسالمًا يقترب مني.. تخيلته ضبعاً يريد التهامي. طويلة جدًّا كانت أيام القحط التي عشتها.. وزرعي في بيئة جديدة يحتاج لبعض الوقت.

معه توقدت وتوهجت.. واشتعلت أيامي بأضواء فرح بعد أن كانت مظلمة برجال لم يكن يهمهم سوى جسدي، خمسة عشر يوماً عشتهم معه شغلتني عن عالمي القميء المليء بالغرق في وحل المصالح والسرقة والمقامرة بكل شيء.. كل شيء.

خمسة عشر يومًا.. لم نكن سوى عاشقين تشرق روحهما المتوهجة بالحب وحده بعيدًا عن أي غايات أخرى عوضتها قبلات حب رسمها على جبيني.

لن أنسى كلماته التي حفرتها وشمًا في ذاكرتي أثناء وداعه لي في المطار.

- سأحبك حبًّا لم تعشه امرأة في العالم مع رجل.. وسأحبك إلى أبعد

مـدى.. وسـتبقين معـي، فأنـا رجـل لـن يتكـرر فـي حياتـك مرتيـن، هـل تعلميـن لمـاذا؟

لأنـك سـتولدين معـي مـن جديـد.. ولـن تكونـي بعـد حبـي لـك كمـا كنـت فـي السابق، فأنـا الرجـل الوحيـد الـذي يملـك القـوة لامتـلاك امـرأة اسـتثنائية لأنـي وبكـل غـرور.. رجـل اسـتثنائي.

أجبته بسعادة فسرتها كلمات لم أصدق أنها صدرت عني.

- لـم يعـد يهمنـي الخـوف الـذي أُشـبع بالأمـان بـك، أنـا مؤهلـة لأكـون وأنـا معـك ملكـة متوجـة علـى عـرش حبـك الممتـد بطـول مسـاحة دمشـق علـى مـدى سـبعة آلاف عـام، خبئنـي.. وإن شـئت احبسـني.. فسـجنك لـي هـو حريتـي.. وأي فضـاء أعيشـه بعيدًا عنـك هـو سـجن.. خذنـي إليـك، كـن منفـاي الأخيـر.. فأنـت توقـي للحريـة، أنـا المـرأة الدمشـقية المعتقـة بنبيـذ العشـق التـي تحلـم بفـارس مثلـك يسـافر فـي جسـدي.. فـارس منـح حزنـي اجـازة مفتوحـة.

بقينـا حوالـي ثلاثـة أشـهر نتواصـل عـن طريـق الرسـائل، خـلال تلـك الفتـرة تعـرف كل منـا علـى الآخـر أكثـر، كتـاب مفتـوح كنـت معـه، وهـو كذلـك اعتـذرت عـن تلبيـة الدعـوات والسـهرات.. وودعـت صالـة القمـار.. ووعـدت نفسـي بعـدم العـودة لهـا.. التزمـت بالمنـزل.. وعشـنا معـاً مـن خـلال الكاميـرا المفتوحـة أحيانـاً لسـاعات.

تنهدت قائلة:

- ذات صباح وصلني منه إيميل جاء فيه.

«سـيدتي الجميلـة هـل تقبليـن دعوتـي لحضـور رأس السـنة فـي باريـس؟ فأنـا قـررت اسـتقبال العـام القـادم مـع المـرأة التـي أحببتهـا جـدًا.. امـرأة قالـت للحـب كـن فـكان، امـرأة حولتنـي لرجـل مشـاكس نسـي الحـب فـي زحمـة

أعماله ومشاريعه، امرأة أوجدتها الصدفة في حياتي وأحضرتها كساحرة هاربة من العصور الوسطى!!!.. لا ترفضي دعوتي فالتذكرة بانتظارك في مطار بيروت».

وتوالت الشهور ومضى العام الأول والثاني وأنا لا أعيش إلا به وله ومعه، عشنا كل الفصول بربيعها وشتائها وخريفها وصيفها، عشناها على شواطئ اليونان.. ووقفنا طويلاً داخل كاتدرائية روما ننصت للموسيقى الحزينة.. رقصنا مع راقصات الجزر في هاواي، وتراشقنا بالثلج في غشتاد، وسبحنا كسمكتين في بحر جزر الباهاما.. اشترينا فانوس رمضان من خان الخليلي، ابتسمنا لأبي الهول واعتذر لنا من أنفه المجدوع، عشنا فتوحات العرب في إسبانيا.. وبكينا من ظلم محاكم التفتيش.. وسرحنا مع حكايا السلاطين وبطولاتهم في آيا صوفيا والحضارة العثمانية.. معه عدت تلميذة من جديد تقرأ الكتب التي اشتراها لها وتنصت لحكايا الأساطير غافية على صوته عندما يحكي لي قصص طفولته في دمشق في حارة الزيتون، بيته الجميل المشجر والبحرة التي كانت مياهها تأتي من بردى وجيرانه وأصدقاء طفولته، وعائلته، حدثته بالمقابل عن حياتي ولم أخف شيئاً، أسهبت في التفاصيل كي يعيش الأحداث معي لحظة بلحظة واكتفى بجملة اختصرت كل شيء.

- حين تشعرين بالندم على حياة عشتها.. استبدلي فوراً كلمة الندم بالعمل، العمل على كل ما يمكنك تحقيقه متجاوزة كل ما آلمك في السابق، الحياة مزيج من كل شيء.. والبشر يخطئون ويصيبون والبشاعة هي الاستمرار في ارتكاب الأخطاء التي وعدنا أنفسنا ألا نكررها، احذفي كل ما له صلة بالماضي وابدئي من جديد.. ولادتك الجديدة ستكون معي وسأعوضك عن كل دمعة نزلت من عينيك الجميلتين، كنت هدية من الله لي ولن أفرِّط بهديته ما حييت. تذكري ذلك دائماً.

يومها أهداني هذا الميزان مشيرة إلى ميزان الذهب الذي كانت تحمله حين دخول رضا.. وطلب مني وضعه فوق سريري حين أعود لدمشق قائلاً:

- القوي من كان عقله ميزان عدل.. وهذا الميزان هو الضمير النائب لكل منا في غيابه.

استمرت علاقتنا.. وكلما مر يوم ازداد تعلق كل منا بالآخر أكثر من اليوم الذي سبقه.. وفجأةً انقطعت أخباره، لا اتصال لا رسالة ولا أي خبر، اعتقدت بداية أن طارئًا حصل له، لكن مهما كان الحدث إلا أنه لم يكن يُخفي عني أي شيء، بدأ القلق يتسرب لداخلي وعاودت الاتصال مرارًا وتكرارًا ولا جواب.. ومما زاد في توتري وقلقي أنه كان يقرأ الرسائل ويتجاهل الرد عليها، أسبوع على هده الحال.. تحولت به إلى حالة من الهيجان والعصبية غير قادرة على ضبط نفسي وتوتري وهيجاني. ولم أعد أفكر إلا بشيء واحد فقط.. السبب.. ما هو السبب؟ لم أعد أريد أي شيء آخر، أرسلت له كثيراً وأقسمت وهددت بالانتحار إن أصرّ على تجاهل مكالماتي ورسائلي إلى أن أتى جوابه باتصال هاتفي بصوت متعب وحزين قائلاً:

- لا تعاودي الاتصال بي مرة أخرى، انسي أننا التقينا ذات يوم وأنا آسف من روحي التي منحتها لامرأة خائنة لم تكن لتستحق هذا الحب الكبير.. ثم أقفل الخط.. عاودت الاتصال لكنه قام بحظري من هاتفه ومن الرسائل أيضاً.

ليلة كاملة لم تجف بها دموعي، بكيت دون أن أتناول الكحول.. بكيت دون محرضات.. بكيت بكامل صحوي.. بكيت بحقيقة عاشقة سكبت دموعاً بقدر فرحها فيما مضى.. بكيت أمام صورته وهداياه التي أحضرها لي في لحظات كنا فيها خارجين عن القانون والتابوهات والشرائع.. بكيت بالنيابة عن كل أم فقدت وحيدها، وكل عاشقة فقدت حبيبها، وكل جندي

فقد وطنه، بكيت نيابة عن مذنب تائب.. وعن عجوز فقد أرضه وبيته وعن كل طفل فقد عائلته.. بكيت عنهم جميعاً، بكيت وأنا أتذكر كل لحظة عشتها به مرتجفة كعصفور هارب من الصقيع ووجد يدًا دافئة تأويه.

رفضت تصديق ما سمعته.. كيف يمكن لي أن أخون روحي وعمري وأول من أحببت؟ منذ عرفته لم يلمس جسدي رجل غيره، وابتعدت عن كل الذين عرفتهم وعشت له وحده، وكنت مستعدة لقتل نفسي لو حاولت جري لفخ أقع فيه مهما كانت المغريات، كيف أخون من أشبعت بواكتفيت ورضيت به وكأنه آخر قارب نجاة لهارب في جزيرة مهجورة.

تحولتْ روحي لشظايا ترتطمُ بجدران صمتي وعزلتي.. مؤلم جداً الشعور بفقدان الأمان، وأنا قد فقدت حمايتي وباتت حدودي مفتوحة لتلقي الأذى والقهر والخوف من جديد.

انسلخت عن الجميع.. واستبدلت محيطي بالمهدئات أبتلعها وأبتلع نفسي معها، فقدت خطوط دفاعي.. واستسلمت للحزن والاكتئاب وصرت أحسب أيامي على توقيت الحزن لا الزمن.

مرت أيام وأنا أتجرع الهم والاكتئاب والحزن والمهدئات إلى أن صحوت ذات يوم وأنا في المشفى محاطة بالأجهزة والممرضات والأطباء، قال لي الطبيب يومها بأنه تم إنقاذي بأعجوبة.. جاوبته:

- واجبك الإنساني كطبيب يحتم عليك إنقاذي، لكن كنت ستتحول لملاك لو تركتني أموت.

بعد يومين جاء لزيارتي موظف اسمه سعيد يعمل مع مهيوب، سحب كرسيه أمام سريري ممسكًا بيدي وبدأ صوته يرتجف ببداية بكاء.

سعيد تهجر من بيته في الغوطة مع عائلته ببداية الحرب، حدثتني عنه خادمتي إذ كانوا جيرانها قبل أن تنزح هي الأخرى وتعيش هنا في

بيتي، أمنت لهم سكنًا بإحدى مناطق دمشق ودفعت أجرة البيت لمدة عام، ووظفته عند مهيوب بصفة رجل أمن مسؤول عن حمايته ورغم رفضه لأجواء الصالة وقذارة ما يحصل فيها، لكن ما باليد حيلة أمام أفواه مفتوحة لا ترحم بطلباتها.

زيارته لم تكن زيارة عادية فقد بدا مرتبكاً وحزيناً وقرأت على وجهه كلمات تتراجع كلما هم بالكلام.

قلت له مبتسمة.

- هات ما عندك لا داعي للاختباء فأنا أقرأ جيدًا ما تخبئه عيناك.

بدأ يبكي بنشيجٍ سقطت معه دموعي.

قال:

- صدقيني لم أكن أعلم ولا دخل لي بما حصل.

انتابني شعور غامض بأن ما يريد البوح به يخص إيزاك وكان تخميني بمحله.

رضا يستعجل خروج الخادمة.. إذ تناول منها صينية القهوة طالباً منها الخروج، ناول زيزي فنجانها مصغياً لما ستقوله بكل اهتمام.

- قال يومها سعيد:

البارحة أثناء السهرة حدثت مشادة كلامية بين هاشم بيك ومهيوب الذي أسرف بالشراب.. ونتيجة لذلك لم يتمالك نفسه فهجم عليه هاشم وضربه مما جعل توازنه يختل وسقط على الأرض، حملته أنا وبعض الشباب وأدخلناه غرفة المكتب ليستلقى على الأريكة، تركته وخرجت، فالصالة كانت مليئة وتوجّب عليّ أن أكون متواجداً دون أن أنسى الاطمئنان عليه

من وقت لآخر، في المرة الثانية التي ذهبت بها للاطمئنان عليه ناداني وهو متلاش تماماً.. متكلمًا بطريقة شعرت من خلالها بها أنه ينازع الموت.

هل تعرف ما الثراء؟ الثراء ليس بالمال فقط.. بل بالذكاء.. والذكاء دون سلطة لا يجدي نفعًا.. والسلطة دون حشرات مثلك لن يكون اسمها سلطة.. ولو لم تقم بتصوير زيزي ذلك اليوم لكنت خسرتها للأبد.

قاطعته مندهشة وانتفضت من مكاني أسأله:

- تصويري؟ متى حدث ذلك هيا قل لي ما الذي حصل؟ وعن أي صور تتحدث؟

أجاب: هل تذكرين آخر مرة جئت بها للصالة بعد انقطاع طويل؟

نعم، وقتها جئت بناءً على طلبه بعدما أصر على ذلك بحجة صفقة يريد توقيعها مع هاشم الذي رفض المشروع إن لم أكن حاضرة.. ورغم ترددي إلا أني ذهبت نتيجة لرجائه ووعدني أنها ستكون المرة الأخيرة ولن يطلب مني أي طلب بعد ذلك.

ـ يومها رفض أن يقدم أحد لك الشراب إلا هو.. ودخل للمطبخ واستغرب موظفو الصالة من تصرفه، كل هذه الأحداث عادت بي للذاكرة بعد ليلة أمس حين قال جملته لي بأني لو لم أقم بتصويرك لخسرك للأبد.

سألت سعيد وهل رأيته يضع لي شيئاً بالشراب؟

أجاب بأنّنا لو رأينا كل شيءٍ بأعيننا لما كان هناك داع لعقولنا.

تابع قائلاً:

في تلك الليلة فقدت السيطرة على نفسك، صرت تضحكين بشكل هستيري وتتمايلين على هاشم ومن معه من الرجال.. وكان عددهم

خمسة، حتى ظننت أنك جننت لا سمح الله.. أثناء ذلك أحضر مهيوب هاتفك المحمول وطلب مني كسر الرقم السري وأنت تعلمين مهارتي بذلك.. ادعى مهيوب بأنك ثملت كعادتك ونسيت الرقم السري للهاتف وأنه محتاج لأرقام تخص رجلاً يعمل معكم، قمت بكسر الرقم وبحث عن رقم في سجلات الهاتف ثم طلب مني قفله مرة أخرى وقال:

انتظر هنا وقم بتصويرنا.. أريد الاحتفاظ بالفيديو للذكرى.

سألته إن كان محتفظاً بالفيديو؟ أجاب بالنفي.

توضحت الصورة تماماً.. فمهيوب كسر الرقم السري للحصول على رقم ايزاك ثم قام بتصويري بعد أن دس لي حبوباً في الشراب من الحبوب التي يتاجر بها كي أفقد السيطرة على نفسي وأرسل الفيديو لإيزاك.

تماماً، قالها وهو يبكي وأضاف أنه مستعد لترك العمل مقابل أن أسامحه.

سعيد.. لا دخل لك بما فعله مهيوب ولا داعي لترك عملك.. فهناك أشخاص تستغل طيبة أشخاص آخرين مستخدمين حاجتهم للمال والعمل مقابل أعمالهم القذرة.

قبل خروجه سألني بحرص.

هل حقاً كما قال مهيوب بأن حبيبك يهودي؟

متى قال ذلك؟

البارحة أثناء هذيانه قال لي بأنه لا يجوز لك أن تحبي رجلاً يهودياً.

ما فعله مهيوب كان محرقةً قضت على فرح أيامي، أضرم النار في حقول عمري التي زرعها ذلك اليهودي سنابلاً خضرًا عدتُ فيها لأيام

البراءة الأولى التي أحرقها مهيوب.

هكذا هم أمثال مهيوب وما أكثرهم، يبيحون القتل وتعاطي المخدرات والقمار وغسيل الأموال ويبيعون أوطانهم ويكتبون التقارير ويؤذون أقرب الناس إليهم.. ثم ينتفضون مستنكرين لعلاقة حب صادقة بين مسلمة ويهودي.

**ربما كان حباًّ مرفوضًا من الشرائع.. لكنه كان حباً حقيقياً غير مزور، أنارت النجوم فيه داخل قلعة الحزن التي نكست أعلامها أعواماً طويلة.. وارتفعت فيها رايات جديدة محملة بالحب والانتصار.. بمواقف خذلتها أياد عابثة حولت أيامي لجثة لا أرى فيها إلا الموت.**

اقترب مني سعيد ومازال يبكي قائلاً: معك حق.. معك كل الحق.

نهض رضا وهو يمسك رأسه بين يديه ويدور حول نفسه عاجزًا عن التفوه بكلمة ثم التفت إليها قائلا:.

أنا بأمر كل ما تطلبينه حتى لو كلفني حياتي.

# الفصل العشرون

لا ترفع سقف
مطالبك كثيراً..
فالقناعة هي من
يمنح حياة أطول..

- باستطاعتنا أن نكون أقوياءً حين نتحكم بما في داخلنا من ضعف أو سوء أو جمال، نحن من نجعل منسوب الأشياء التي تسكننا تتناقص أو تتزايد.

تقول أميرة هذا الكلام لمهجة التي بدت عصبية على غير عادتها.

- كيف بمقدور الفرد عمل ذلك وهو بداخل سجن مرتبط بأوامر تمنعه عن فعل ما يريد؟

جوابك في سؤالك نفسه.. الحرية، حرية نفسك وانفصالك عمن يعطونك الأوامر.

أجابتها مهجة.

- كأن القلق واضطراب النوم يزيدان من سوء طبعي، بتُّ عصبية ومتوترة بعد زيارة أهلي ومعرفتهم مكان وجودي، والمفروض أن أكون أكثر هدوءًا، خاصة وقد وكلوا لي محامياً مشهورًا للنظر في

قضيتـي، إنهـا الفوضـى داخلـي.. أريـد تمزيـق أوراق الانتظـار مـع عبثيـة هـذا العيش، تخدير تخدير !! كل ما نحلم به مجرد تخدير.. ريثما تمضي أيامنا دون أن ندري إلى أين؟ أحلام يقظة نهارًا.. وكوابيس ليلية ثم تخيلات لا تفضي إلى شيء، وماذا بعد؟

مهجة بدت عصبيةٌ في الآونة الاخيرة.. واستبدلت هدوءها بالتوتر لدرجة أنها باتت ترد بوقاحة على كل سجينة يمكن لها إزعاج الأخريات وتتدخل فيما يعنيها وما لا يعنيها.. معها حق، من منا قادر على تقبل الظلم والصبر لفترات طويلة؟ نحن لسنا أنبياء معصومين والانتظار حالة من الترقب يجعل منكَ شخصًا آخر غير الذي اعتدتَ عليه.. حالاتٌ من الرفض لكل شيء واستنكار لكل ما يمكن لك استشعاره أنه ربما سيؤذيك، حالات الشك بالآخرين ورفضهم يجعلك تفقد الثقة بنفسك.. والخيبات المتتالية لا تسمح لك بفتح باب الحوار مع الآخرين نتيجة انعدام الثقة معهم.. وحالة مهجة والحاسة التي تملكها هي أكثر ما يزعجها، وكأنها حرف وضع بين قوسين لا يسمح له بالتكلم.. فمنذ فترة بدأت تستشعر رائحة موت ستخرج من خلف القضبان لكنها لا تستطيع الإفصاح عما يعتريها من شعور تلقيه بآذان النساء الميتات أصلاً مع وقف التنفيذ، ينتابها شعور بالاختناق وضيق نفس لا تملك السيطرة عليهم.. وكثيرًا ما استيقظت ليلاً على صوت أميرة تهزّها مبللة وجهها بالماء بعد أن استيقظت هي والأخريات على صراخها.

تلتفت اليها أميرة قائلة لها بهدوء:

- هل تستطيعين تغيير الحاصل الآن؟ هل تملكين القدرة على العمل مثلاً أو إكمال دراستك هنا؟

ها قد حصلت على سرير جديد ووسادة ولحاف.. وهذا ترف لا تستطيع أية سجينة الحصول عليه.. وأرسل لك أهلك الكثير من المال الذي

يساعدك على التحكم بالكثير من الأمور منها الحصول على الطعام الجيد وتسخير الفقيرات اللاتي لا يملكن المال للعمل لديك وقيامهن بالأعمال المتوجبة عليك من تنظيف وأشياء كثيرة أخرى، ماذا تريدين أكثر من ذلك داخل سجن لن يمنحك سوى التمرد بداخلك؟ تمرد لا تقوين حتى على الإعلان عنه، تمرد يأكلك من الداخل ويظهر على شكل كوابيس وصراخ ليلي.

افعلي كما تفعل الأخريات طالما أنك تملكين المال، اطلبي دفترًا وقلمًا وأفرغي غضبك حبراً يتساقط على الورق بدلًا من غضب مكبوت لن يُفضي إلى أية نتيجة.

ثم أكملت وهي تمسح على رأسها قائلة:

- أكثر السجينات هنا تخلت عنهن عائلاتهن بل وتبرأت منهن وقد رأيت بأم عينك كيف تتصرف معهن الأخريات.. وسمارا واحدة منهن لولا ناديا التي لم تكف عن مساعدتها ومساندتها، لكن أمثال ناديا نادرات وأمثال سمارا كثيرات، ماذا كنت لتفعلين لو أن أهلك تبرأوا منك؟ هل كان بإمكانك رفع رأسك حتى أمام السجان الذي يغض الطرف عنك لأنك تعطينه المال؟ وهل كنت ستحصلين على وجباتك المفضلة من الطعام التي يأتون لك بها من الخارج؟ وهل ستستطيعين الخروج للفسحة خارج الأوقات المحددة التنفس والاستمتاع بقليل من الهواء المنعش ليلاً؟ وهل وهل وهل؟

أعلم شعورك جيدًا.. فكلنا هنا متشابهات بالمشاعر.. وأولها الفرح وأمنياتنا بأن نعيش كما يحلو لنا وبالطريقة التي نريدها، نحن مطرودات من حقوق يتوجب عليها مساندتنا ولكنها تخلت عنا ورمتنا في ظلام سجن لا ندري متى يصدر فينا حكم من قاضٍ لا يحتكم إلا لمزاجه.. وكم وضع له في الظرف من أموال قادرة وحدها على تلقينه الحكم بما

يتناسب مع الأصفار التي يقوم بعدِّها، المال هو القانون وهو الدين، وحمايتك لنفسك يحرسها مقدار  ما تملكين هنا بين هذه الجدران الأربعة التي لا مناص من تخطي حدودها، حاولي أن تستمتعي رغم هذا الهلاك واجعلي من نفسك قاضياً يحتكم لقانون صارم يمنع نفسك من جعلها غريمة لنفسها.. ولا تعيشي تحت رحمة الانتظار.. فمن ينتظر ويحصي عدد الساعات والأيام هو شخص حكم على نفسه بالمؤبد دون أن يشعر.

تنهدت مهجة.. ورفعت رأسها قائلة بهدوء متعب وابتسامة صفراء:

- حتى داخل السجن وبين المساجين هنالك ظالم ومظلوم، يا لقسوة الإنسانية حين تتحول لوحش يعاني خللاً في شريعة نظامه.

التفتت الامرأتان لصوت المهندسة سهير (مدللة الحكومة) كما كانوا يطلقون عليها وهي تصرخ بعصبية على سجينة أخرى ربما استفزتها، فسؤال سهير يدل على أن نقاشًا قد دار بينهما وعجزت عنه سهير، فالصراخ أثناء أي نقاش ما هو إلا دليل على الإفلاس.. كررت سهير سؤالها حين لاحظت أن السجينات يراقبنهن.

- جاوبيني ماذا تعني كلمة حرية؟

أما السجينة الأخرى فقد صمتت رغم تردادها هذه الكلمة دائماً.. لكن عجزت عن تفسيرها أو الغوص في معانيها... ربما.

وجهت مهجة سؤالاً يشبه سؤالها..

- سيدة سهير، وما مفهوم الحرية بنظرك؟

انسحبتِ السجينة للخلف مرسلة نظرات شكر لمهجة التي أنقذتها من موقف مربك تلبسها، ومن سؤال عجزت عن الإجابة عنه.

استعارت سهير ذات السؤال وسألته لمهجة.

- سيدة سهير لقد سألتك وأريد جوابًا منك، لم أنتظر منك أن تجيبي على سؤالي بسؤال لكني سأجيبك.

الحرية لا يحتكرها الثوار فقط.. وغير مسموح لهم رسمها كما يحلو لهم للحرية أكثر من معنى.. لكن كل المعاني ومهما اختلفت مسمياتها إلا أنها تدعو جميعها لرفض العبودية.ونحن جميعًا عبيد عادات جعلت منا ببغاواتٍ تردد شعارات حفظناها عن ظهر قلب لنرددها في كل مناسبة، شعارات لا نؤمن بها في الواقع.. لكنهم أفهمونا بأنها مقدسة وممنوع علينا مناقشة ماهيتها.. ولا حتى تفسيرها إلا من خلال الحد المسموح به للنقاش.

أنا قد رفضت هذه الثورة منذ أول يوم.. ورفضي لها لا يعني أني أقف إلى جانب نظام أجرم بحق شعب لطالما عانى من القمع والظلم والخوف والذنب.. ذنب أهالينا الذين صمتوا وكانوا سلبيين في تعاطيهم مع الحلول بالوقت الذي وجب عليهم حينها المواجهة والاقتحام..

عمري عشرون عاماً.. لكني ولدت في بيئة سياسية مثقفة عرفتني على تاريخ بلدي دون تزوير أو تشويه، وما أعرفه ربما لا تعرفه الكثيرات منكن.. ولا حتى من يكتب التاريخ الحديث بأقلام مأجورة، والد جدي لأمي ثار ضد الفرنسيين ولم يذكره أي كتاب من كتب التاريخ التي درسناها في مدارسنا.. غير أنهم زرعوا في الكتب أبطالاً، عدد منهم لم يكن سوى قاطع طريق.. وآخر لصاً وعميلاً للفرنسي.. وحين كنت اسأل أمي لماذا لا يذكرون اسم جدك كانت تجيبني مبتسمة؟ للتاريخ قصصه، فيه المهزوم وفيه المنتصر وما بينهما غيبهم مناخ سياسي ارتأى مغيبوه الانعطاف حسب مزاجهم وحسب ما تقتضيه ظروفهم السياسية وحتى الجغرافية، يكفينا فخرًا أننا نعيد قراءة مذكراته التي كتبها بخط يده.. ويكفينا أننا نتسلى كلما سمعنا كذباتهم في برامجهم الوثائقية.

أنا لا أنفي الجبن حتى عن والدي الذي اتخذ من الحيطان أرباب ستر كما فعل ملايين غيره، كلهم تغنّوا بالياسمين بينما كانت جذوره يأكلها دود الأرض.. ولكن غرورهم منعهم من التصديق بأن هذا الدود سيتمكن يوماً من قتل الدالية التي كادت تصل للسماء، هم تركوا الجوهر ولحقوا بالسطحيات كي يظهروا بمظهر المُعافى.. ولعدة أسباب كانوا دائماً يلجؤون للشمس متعامين عمن يعملون في الظل رغم معرفتهم بخططهم المسبقة.. لكنهم كانوا أجبن من أن يواجهوهم.

قاطعتها الطبيبة سحر.... قائلة:

- لكن التعامل مع القضايا يحتاج لحنكة لا للمواجهة كما ذكرت وقضية بلدنا لا تختلف من داخلها عن باقي الدول بحسب كلامك.. لو أن كل بلد قد تعامل بقضايا بلده بالمواجهة والتحدي.. لانتهت جميع البلدان ومُسحت خارطاتها ولم يبق إلا ذكرهم.

- أكبر خطأ ارتكبناه هو حين تعاملنا مع بلدنا على أنه قضية، لا.. هو ليس كذلك، كان بلدنا مريضاً ولم نتعامل معه على هذا الأساس ولم نواجه حقيقته كي ننفي تهمة المرض عن أنفسنا.. ولذلك استشرى بأعضائنا ولم يعد نافعاً معه إلا جرعاتٍ من الصبر لا تفي بالمهمة ولا نقدر على الاستطباب بها.. إلا برقصة الموت وبعبثية العيش لما ستؤول إليه أيامنا.

تعدل الشيخة أم خالد من جلستها بمد رجليها لعدم إمكانية أخذ وضعية أخرى بسبب بدانتها لتقول:

- ما تسبب في وصولنا إلى هنا هو ابتعادنا عن الدين وعدم احترام مشايخنا الأفاضل؟

تعالى ضحك النساء حين اقتربت منها أميرة وقد وضعت يديها على

خصرها وسألتها بتهكم.

- عن أي مشايخ تتحدثين؟ شيوخ السلاطين؟ أم شيوخ المحشي؟

- تأدبي يا بنت حين تتحدثين عن ظل الله على الأرض، أستغفر الله أستغفر الله، إنها علامات يوم القيامة.

مع كل حرف تنطقه أم خالد يزداد توتر أصابعها المرتجفة وهي تعبث بسبحتها متمتمة بالاستغفار والحوقلة.

تشعل أميرة سيجارتها متعمدة إغاظة الشيخة التي تبالغ في السعال كلما أشعلت إحدى السجينات لفافة تبغ وتكمل حديثها.

- كنا بارعين في تقبيل يد الشيخ دون الجرأة لنفصح عن أسئلة تقلقنا وتؤرقنا، قضينا نصف أعمارنا خائفين من توجيه الأسئلة له.. فقد علمونا أن طاعة الشيخ من طاعة الله.

كم احتجنا لعلم يقوم على الدين لا علم يقوم على الفرضيات متجاهلاً الدين.. ونتيجة لذلك ضيقنا على صحة المنطق رغم ثقتنا أن ١+١=٢.

أنا ضد كل التسميات لأنها ضد كل شيء خرجنا لأجله، تظاهرنا من أجل الحرية فرسموا لها لحى مستعارة وأمسكوها رايات بدت بها كفزاعة، أيادٍ ممسكة برايات لا إله إلا الله.. أيادٍ توضأت بالعملات الأجنبية وتغمست بالدم.. ولو كان بيننا عاقل استطاع بناء دين صحيح لكنا استطعنا بناء دولة حقيقية، المتسلقون على سلالم الثورات ضحكاتهم المنصوبة أمام كاميرات مأجورة تذكرني بالمزادات العلنية التي يتسابق أصحابها على التنافس بالحماس ذاته الممزوج بالتوتر، كم كنا بارعين في فن الخذلان حين شاهدنا اللص يدخل لعقر دارنا ولم نقم بقتله.

هل احترمنا جميعنا القيم الدينية التي نشأنا عليها؟ نعم احترمناها، لكن

كان لا بد من التأمل وطلب شروحٍ لما نجده يحتاج لتفسير.. وهذا من حقنا.. وحين نهاجم أحيانًا مسائل دينية فهذا لا يعني أننا ملحدون وكفار أو أننا رافضون للدين.. ولكن لمساعينا لجعل قيم دينية تتناسب مع تطور الحياة والمجتمع دون زجرنا بأن ما نقوم به هو الكفر بذاته وبأننا لمسنا تابوهات محرمة.

هؤلاء لم يكونوا يوماً شيوخاً للدين، فالدين لا يحتاج أصلاً لمن يتزعمه بوجود كتابٍ منزلٍ من الله، هم واجبهم الحرص عليه والدفاع عنه بالكلمة والموعظة الحسنة كما جاء في القرآن.. وليس بالصراخ على منابر يمجدون فيها الحاكم أكثر مما يمجدون ربهم، مثل هؤلاء سمِّهم إن شئتِ أوصياء على زعامة الدين.. يحاولون سلبنا ما نؤمن به ونعتقد به وفق ما تقتضيه مصالحهم السياسية.

لقد قاموا بتسييس الدين.. والدين المسيس لا ينبثق عنه إلا المجرمون والقتلة الذين تخرجوا من السجون، رجال بذقون تحكي عن فخر الصناعة الصينية، وروايات كاذبة اخترعوها تحت تأثير مخدر ما، ربما هو مخدر المال أو مخدر السلطة أو كليهما معاً، بلادنا لا تحتاج للحى غبية تدافع عنها بل تحتاج لعقول وفكر وثقافة.

رمت أم خالد السبحة بوجه أميرة وهي ترتجف غضباً.

- قلت لك تأدبي أيتها المنحطة.

هزت أميرة برأسها ممسكة بالسبحة التي أعادتها لحضن أم خالد موجهة كلامها للشيخة بهدوء:

- أنتم أهل النار التي أحرقتنا في الدنيا.. يا كل نكد الدنيا وحطب الآخرة.

نعم كلنا منحطون ولكن بدرجات، أنتِ مثلاً تمثلين أكثر من نوع للانحطاط.. سأقول لكِ كيف:

الداعية الإسلامي لا ينبغي له العمل مع دول أخرى بحجة التبرعات لشعب يعاني من ويلات الحرب.. ثم يقوم بفتوى يخترعها للحصول على نسبة محددة بحسب الشرع الذي يبيحه لنفسه بحسب الظروف الحاصلة.. والداعية أمثالك لا يقومون بتزويج بناتهن ذات الاثني عشر عاماً لأمير يداه ملطختان بدماء الأبرياء.. لا يمت إلى الإسلام بصلة أليست تلك المنظمة المجرمة هي صناعة أنظمة مجرمة أخرجت هذا التنظيم من السجون التي تدربوا فيها وأفلتتهم لحمايتها تحت اسم الدين.. لإقناع الغرب بأن الإرهاب هو الإسلام بينما الإسلام بريء منهم؟ فالمسلم لا يزني وهم يزنون.. والمسلم لا يقتل وهم يقتلون.. والمسلم لا يكذب وهم يكذبون.. والمسلم لا يتعاطى المخدرات وهم يتعاطون والمسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده.. وهم قاموا بقطع ألسنة الناس الأبرياء وأياديهم وذبحوهم دون ذنب.. فقط لإخافة الغرب منا كمسلمين.. ولحماية من استأجرهم من حكام قتلوا شعوبهم بذريعة تمردهم على الحاكم، وهذا انحطاط سافل جدًا.

أما الانحطاط الذي يليه.. فهو انحطاط من يملكون المال هنا في السجن مثلك تمامًا.. وتحرمين الطعام عمن لا تتوفر معهن النقود وهن معرضات للإهانة وللعمل عند الأخريات مقابل مبالغ زهيدة يوفرنها لشراء دواء.. مكتفية أنت بالدعاء لمن يعملن عندك من السجينات بالسخرة بعد وعدك لهن بجنات النعيم ووعد بالجحيم لكل مخالفة، هل فكرت يوماً بتحفيظهم سورًا من القرآن أو مشاركتهم طعامك الذي يأتي من الخارج بما لذ وطاب؟ أم أنه ممنوع عليهن المشاركة بطعامك متوهمة أن الحواريين هم من أحضروا مائدة لك من فرع مخابرات حريص على تغذيتك جيدًا بناء على توصية من أمير المؤمنين زوج ابنتك المصون.. ذلك المدعو أبا القرون !!

أمثالك يعرفون الحقيقة ويتجاهلونها، يمرون أمام المحتاج وكأنهم لا

يرونه.. بل إنهم يحرمونه من كل أمل بالمساعدة.. مغلقين في وجهه باب رجاءٍ كان يتنفس من خلاله هواء أمل.

وهناك المنحطون جدًا كأمثالي الذين يهرعون لإغاثة الملهوف ويرفضون غض الطرف عن المحتاجين مهما كانت ظروفنا سيئة.. وحين لا نملك أي شيء فإننا لا نبخل بالابتسام، أوليس التبسم في وجه أخيك المسلم صدقة؟

إن أعمال الكريم هي بمثابة أيادٍ تصعد أجنحة دعواتها للسماء.. وليست مجرد سبحة.. فالسبحة أيضاً تستخدم للدبكة والرقص والتسلية.. هل وصلتك الفكرة.... يااا منحطة بأدنى درجات الانحطاط؟

آه..!! لقد نسيت أن أسأل.. لماذا أنت هنا؟ تستنجد الشيخة أم خالد بالمستنفعات كي تنهض.. لكنهن يقمن بالمهمة عنها حين هجمن على أميرة وأوسعنها ضرباً لولا تدخل الشرطة.

تعود مهجة إلى الحديث مع نفسها..

هل أضعنا المجهر؟ هل لا زلنا نحتفظ بغرورنا ساخرين بسذاجة من الفيلسوف ديوجين الذي حمل مصباحه في وضح النهار بحثاً عن الحقيقة؟

وهل وصلنا لمرحلة خطرة منعنا فيها أنفسنا من طرق الأبواب الصحيحة والحقيقية للتاريخ كي نتلافى أمراضنا الاجتماعية بما تحمله من ألم وقهر وخوف وجوع وأمية وجهل وتخلف؟

ماالذي جعلنا لا نطرق إلا أبواب مفتوحة للعزاء والتأبين والصلاة على روح الاموات؟ ثم ندعو الله بأن يأخذ حقنا ممن كان السبب في ضياعنا وتشتتنا منذ آلاف السنين وحتى هذه اللحظة.

حياتنا نكسات.. ومع ذلك مازلنا نحتفل بنكسة واحدة.. هي نكسة حزيران.. (نحتفل)!!!

النكسات تتعاقب فصولها في سنين عمرنا دون أن نجرؤ على الاعتراف بها، الاعتراف بأننا منحنا الهزيمة لأنفسنا واعترفنا بها دون أن نكلف أنفسنا بالسعي في التغيير والاعتماد على الذات وأن نفطم أنفسنا عن الرضاعة.

ولكن ما ذنبنا حين لم يشجعونا بالاتكال على أنفسنا بعدما رفضت أمهاتنا فطامنا حين جعلوا السوق يغلي بالحليب الفاسد.. وكان لا بد من اللجوء لأحضانهن خوفًا من التسمم.. ليتخذ الجميع قراراته بالنيابة عنا بدءاً من البيت مرورًا بالمدرسة وانتهاءً بالشارع الذي لن نستطع فيه إلا التواري في الزوايا خوفًا من الاعتقال لسبب نعرفه ولأسباب نجهلها.

ما ذنبنا نحن الشباب حين زرعوا في عقولنا تمجيد الحاكم؟ وكبرنا على ترديد شعاراتنا له: بالروح بالدم نفديك حاكمنا.

ما ذنبنا حين حاصرونا في معتقلات عقولنا وأقفلوا عليها بمفاتيح رموها في البحر وأصبحت مثل قوالب الأحذية الحديدية التي صنعها الصينيون كي يحافظوا على صغر قياس أقدام بناتهم؟ وكما أنهم منعوا هناك أقدام بناتهم من الكبر.. منعوا في بلادنا عقولنا أن تنمو.

لقد خلقوا لنا الخوف والذعر والتشويش.. وأربكونا بين التصديق وعدم التصديق.. بين الكذب وبين السياسة؟ فأصبحنا حالات من التخبط كإنس تلبسه جني.. وسلطوا علينا عفاريتهم.. ومزقوا جميع الكتب التي تتحدث عن بطولات أجدادنا ليستبدلوها بأبطال من ورق وقطاع طرق أجبرونا أن نسميهم بالزعماء الوطنيين.

ما ذنبنا حين أصبحنا ندور في فلك الانتظار داخل عالم لا يحوي إلا

فراغًا في فراغ، فراغ لن يملؤه إلا التفكير بلقمة العيش وادخار المال لبيت الزوجية ومسؤوليات تنتهي بنا إلى القبر.

ما ذنبنا حين هرب معظمنا ليلجأ للدين كي يحظى ببعض الطمأنينة ثم اكتشف بأنه مُساقٌ إلى وادٍ متطرف يرمي به لأسفل سافلين وحين لم يجد يدًا تنجيه من تلك النار بدأ بالدعاء على من كان السبب.

ببغاوات كنا.. وببغاوات ما زلنا.. وإن لم نستفد من دروس التاريخ فمن المؤكد بأننا ببغاوات لن تنقرض.

الجميع يغط في نوم عميق، من النافذة الصغيرة القريبة من سقف المهجع يتسلل دخان أصفر اللون يتجه صوب مهجة.. قطع عليها ما كانت تفكر به، يدنو منها ويوقظها لتتحول هي الأخرى لدخانٍ كثيف جميل الرائحة، يدعوها لرحلة معه إلى الخارج، تطير معه دون أي اعتراض ولكن إلى أين؟

الظلام دامس.. والشوارع مقفرة باستثناء جنودٍ مرابطين خلف سواتر رملية يصوبون من وراءها فوهات بنادقهم ومدافعهم الخفيفة باتجاه أخوة لهم في الطرف المقابل لمنطقتهم.

الحذر يمشي على رؤوس أصابعه في الحارات التي أطفأ سكانها أضواء شموعهم لعدم توفر الكهرباء، المعامل التي هجرها أصحابها تحولت ثكنات للجنود يسرحون بها ويمرحون بعد أن كانت تلك المعامل تنتج أجود أنواع الصناعات بشهادة الدول التي تقوم باستيرادها لبلادهم.. ما عدا العمال الذين خسروا أعمالهم وباتوا يتسولون لقمة العيش ليطعموا عائلاتهم.

على بعد عشرين كيلو مترًا من السجن بمنطقة عدرا.. كان هناك تجمع لجنود وضابطٍ برتبة عقيد ينبشون التراب داخل مقبرة، التفتت مهجة لتسأل مارد الدخان.. كما أسمته.

- ماذا يوجد هنا؟!

أجاب..

- هذه التربة اسمها مقبرة جامع حجر.. وتحت هذه المقبرة يوجد مقبرة رومانية.. والجامع الملاصق لها اسمه جامع الصحابي حجر بن عدي الكندي.. وقد كان قديمًا كنيسًا رومانيًا وزواره من الشيعة وبداخله مقام يأتون للتبرك به.

- وماذا يفعلون في هذا الوقت المتأخر؟

- إنهم ينبشون في المقبرة لاستخراج الكنوز التي خبأها الرومان.. والتي يتناقل أحاديثها أهل البلد جيلاً بعد جيل منذ مئات السنين، لكنهم لم يتجرأوا على المساس بها أو الاقتراب منها أو مجرد التفكير بها خوفاً من العواقب، إلا أن هؤلاء لا يؤمنون بالعقاب ويسخرون منه على أنه خرافات، راقبي كيف يُخرجون التماثيل انظري لتلك الآنية الذهبية التي ينقلونها كم هي جميلة.

- وماهي العواقب التي يخافها الناس؟

- يا ابنتي! الجهل مزروع في العقول التي لا تقرأ.. ومن لا يقرأ سيعجز عن التفكر.. والخرافات التي تناولها الناس تقول بأن المساس من الأموات وقبورهم سيُذهب بعقولهم ويتلبسهم الشيطان مع أنهم يحيكون لشياطين الأرض المؤامرات لو أرادوا ذلك.. دون أن يعلموا بأن داخل كل منهم شيطان يحركهم، نحن نخاف من المجهول لأنه غامض بالنسبة لنا.. هل تساءلت لماذا تكثر أحاديثنا في الليل عن قصص الجن خاصة بليالي الشتاء؟ وبالذات حين تنقطع الكهرباء؟

- كلامك صحيح فعلاً، لماذا؟

- لأننا خائفون من أنفسنا.. وخائفون من المجهول.. وخائفون من المستقبل والحاضر.. مفتقدون للإيمان الحقيقي الذي يجعلنا نقهر قوى الشر، نفتقد للعلم وتفسير الأشياء بطريقة علمية كما أمرنا القرآن.. ولأننا جبناء فإننا نبحث دومًا عمن يخيفنا كي نجعل منه أسطورة تقينا ذلك الجبن المتسترين خلفه بألف قناع.

- وماذا تسمي وجودي معك الآن.. وكذلك تحولي إلى دخان وأنا من المفروض أني موجودة في السجن وأحمل رقم ٤١٧؟

- أنتِ تحلمين بالحرية والخروج من السجن.. وما أنا إلا تخيلات تحدث لك أثناء النوم، أنتِ تملكين ما لا يملكه غيرك من حاسة عجز عن تفسيرها العلم.. لكنه لم يعجز عن تفاسير أخرى بالتأكيد.. وربما سيجد تفسيراً لحالتك فيما بعد.. النوم هو موت مؤقت.. والأحلام هي حالة تصيب الإنسان نتيجةً لما يفكر به.. وتلك الأشياء مرتبطة بالروح والروح لا يعلم بها إلا خالقها، أما الذي ترينه الآن بالمقبرة فهو حاصل الآن في هذه الساعة.. ربما سيذكر أحدهم أمامك ذات صدفة ما ترينه الآن وستتأكدين بنفسكِ.

- لكن ما هو مصير تلك القبور؟

- سيردم التراب فوقها من جديد حين الحصول عما يبحثون عنه، لكن هؤلاء الذين ينبشونها لا يفكرون بأن مصيرهم لتلك الحفرة التي ستكون لهم آخر بيت يقيمون فيه إقامتهم الأبدية.. غير مدركين بأن الإنسان حين يموت سيفنى جسده.. ولكن يبقى ذكره بين الناس بما قام بأعمال.. وماذا قدم للبشرية من اختراعات أو كتب يفيدهم بها وما أخطاء ما يفعله هؤلاء سوى إيجابيات لمن يقومون بزيارة القبور للتبرك بها، فمن خلال هؤلاء اللصوص سيكتشف الآخرون كذب من سبقوهم حين أوهموهم بأن تلك القبور هي لأصحاب معجزات كانوا

فيما مضى يفعلون أشياء نحن لم نرها.. لكن الناس تناقلت الأخبار نتيجة شائعة أطلقها أحدهم كي يحمي بها الذهب المدفون بها وحسب.. وسيكف الناس عن هذا الشرك الذي ابتدعه شخص حاقد وخبيث له مآرب أخرى أبعد من ذلك بكثير.

لقد استطاعوا إدخال الخوف لداخلكم من خلال قصص لا تخلو من الترهيب.. كقص الشعر ليلاً.. أو قص الأظافر في الحمام.. أو سكب الماء الساخن قبل لفظ كلمة دستور، وأمثلة كثيرة لا حصر لها، كل هذا لزرع الخوف وعدم القدرة على التفكير بشكل موضوعي وعلمي.. فهم قد قالوا وجزموا ولم يتركوا أي خيار آخر والنتيجة دائمًا أذيتكم من جهات يعرفونكم ولا تعرفونهم.. وكبر هذا الخوف وتحول لخوف أكبر امتد للمحيط والناس، والخوف حتى من الحيطان التي نبتت لها آذان لنقل ما ستقولونه بما يخص الحاكم وحاشيته.. ثم تحول لمصيبة أكبر.. فقد تعداها لتكونوا مخبرين على بعضكم البعض تفاديًا لأي أذى محتمل، هذه سياسات يا ابنتي زرعت شرورها في قلوب الناس كي تحمي تلك الشرور أنفسها منكم، فالجميع يعيش خائفاً من الآخر دون أن يعي ذلك.

أصوات أزيز الرصاص تنطلق بين حين وآخر.. ومهجة تزداد فضولاً لمعرفة الكثير الذي تجهله.

- إلى أين ستحملني الآن؟

- إلى قلب العاصمة دمشق.

خرجا من الأوتستراد باتجاه دمشق، مرا فوق بساتين الفيحاء التي بدت خبيثة.. وكأنها معمل لصنع المتفجرات.. حتى لتكاد تسمع كلمة لا إله إلا الله مصنوعة من ديناميت يفجر في وجهك بدلاً من وداعته، المدينة مريبة وموحشة.. كئيبة كأول ليلة من الفراق.. يقتربان من المدينة ليتغير

المشهد، وكأن الشوارع التي أتيا منها خرجت عن دائرة الزمان والمكان، إنها لا تشبه دمشق بشيء.. وكأنها هي الأخرى لا تعلم ماذا يحصل خارج أسوارها.. أو أن الأمر لا يعنيها؟!!

أضواء المدينة تتلألأ كالذهب على صدر عروس، دمشق تتهيأ للأعياد فالأسواق مكتظة بالناس والمقاهي كذلك.. وإعلانات ملونة عن حفلة رأس السنة ومن سيحييها؟؟ وصور راقصات بجانبها صور للمنتخبين الجدد في الكتل الوطنية وعلى الطرف المقابل صور لإعلان عن أمهر لاعبي الخفة في الشرق الأوسط.

تنظر مهجة للأسفل بدموع لم تستطع التغلب عليها قائلة بصوت متهدج:

- كنت أعتقد أنهم يعلنون الحداد ويرتدون السواد ويقسمون ألا تقام في حياتهم الأفراح، هل يقبل فيهم نعيي؟ أم هل أرثي فيهم من قُتلوا وشُردوا وعُذبوا واعتقلوا ولم يسأل عن كل هؤلاء أحد؟ هل هذا هو الوداد؟ هل حقاً كنا نعيش مع بعضنا البعض؟ هل حقاً نحن من بلد واحد؟

بكى مارد الدخان صارخًا:

- يا ااودود.. والنصر الموعود.. يارب يا معبود.. انزع مكرهم الحقود وارحم ياربي كل رحيم بمظلوم.. وانتقم من كل كاره وجحود.

أبرقت السماء وأرعدت.. ثم أمطرت بدموع مهجة والمارد يتمتم بحزن:

- يا ابنتي في الحرب الجميع مُعاقب.. وهؤلاء ليسوا بأحياء، في الحرب طرفان واحد يأخذ والآخر يعطي.. والخسارة لكلا الطرفين.. أما المنتصر فهو من ينتصر في النهاية حين يتعلم بأنه تخرج مع انتهاء الحرب بشهادة إنسان.

- جميعنا رسبنا في الامتحان.

قالتها وهي تجهش بالبكاء.

وجميعنا كنا فاشلين حتى بمحاولة أن نكون إنسانيين.. ثم أمسكت بطرف عباءته كطفل يريد اللحاق بأمه.. قائلة له وهي تشهق بالبكاء:

أعدني إلى السجن ففيه نعيم أمام قسوة الخارج.

تنحسر الأضواء كلما اقتربا من هدفهما.. وينحسر الصخب مخلفين وراءهما صوت ريح تزأر في غابة، إلى أن وصلا نافذة السجن وقبل أن تدخل همس بإذنها:

- لا تلومي ياابنتي أبناء بلدكِ.. فمن يرضى بدفع بدل العسكرية لن يعرف كيف يطرد لصًا دخل بيته، ومن تعلم في المدرسة كيف يلقي الشعر والخطابات التي تمجد الحاكم والمسؤول.. لن يعرف كيف يقول كلمة لا.

استيقظت مهجة منهكة وكأن أعضاء جسدها تفرقت.. وهي الآن تستعيد ترتيب أماكنها بالتدريج.

# الفصل الحادي والعشرون

لا تفرغ صندوق
أسرارك..
فالمتصيدون كثر..

تتحدث ناديا مع أبو المجد المسؤول عن المهجع وقد شاهدتها منال تدس في يده مبلغاً من المال، تحدثا لوقت قصير وغادر المهجع قائلاً:

سأوافيك بالجواب بعد ظهر اليوم.

منال اعتقلت منذ ثلاث سنوات.. وكان عمرها حينذاك ثمانية عشر عامًا متهمة بحيازة أسلحة.. ولم يصدر حكم بحقها بعد.. لكن في الحقيقة هي فتاة بسيطة وساذجة وبريئة من التهمة المنسوبة لها، فضولها يدفعها دوماً للتدخل بكل شيءٍ والاستفسار عن أي شيء تراها لا تكف عن الحركة والأسئلة.. تريد معرفة كل شيء.. ولا تتوانى لحظة عن مساعدة الأخريات بالمجان.. مقابل الحصول على أجوبة تريد الاستفسار عنها.

أسئلتها لا تتعدى فضول المعرفة عن أماكن سكن السجينات قبل اعتقالهن.. وكيف كانت حياتهن.. وما هي أنواع الطعام التي يأكلونها وملبسهم.. وحتى طريقة نومهم، باختصار أسئلتها ناتجة عن بساطة شديدة لفتاة عاشت في بيئة شعبية لعائلة بسيطة متوسطة الغنى

يعمل أفرادها بصنع المخللات والمؤونة التي تحتاجها النساء الموظفات ممن لا يملكن الوقت أو ممن لا يُجدن عمل ذلك.

منال لم تكمل تعليمها بعد حصولها على الشهادة الإبتدائية.. لتلتحق بالعمل مع جدها في دكانه الصغير، ما جعلها منفتحة على الآخرين فأماكن البيع والشراء في الحارات الشعبية كثيراً ما تتحول لأماكن زيارات وللتحدث أمام باب الدكان وشرب الشاي، لذا اعتادت على الأسئلة وتبادل الكلام والحديث مع الآخرين دون حواجز أو ضوابط.. وكثيراً ما طالبتها النسوة بعدم التدخل فيما لا يعنيها.. وفي كل مرة تعدهم أن تكف عن ذلك، ثم تراها نسيت وعدها لتبدأ حشريتها من جديد إلى أن نسين هن أيضاً مطالبتها بالكف عن تطفلها.. فقد أحبها الجميع للطف معشرها وابتسامتها التي لا تفارق شفتيها.

اقتربت من ناديا تستفسر عما دار بينها وبين السجان.

ابتسمت ناديا قائلة:

- سنعرف الجواب معًا بعد ظهر اليوم كما قال أبو المجد.

جرتها ناديا من يدها لتنضما إلى أميرة ومهجة وأخريات كن قد طلبن من ناديا المجيء لشرب الشاي.

طلبت منها ناديا أن تحدثها عن سبب اعتقالها.

ضحكت ضحكة مجلجلة وأجابت وهي تبعد كأس الشاي خوفًا من سكبه.

- يا لقصتي التي كررتها ألف مرة، لكن سأحكي لك:

لجدي دكان يبيع فيها كل شيء.. وهذا الدكان بالواقع هو غرفة (للكراكيب) كما يقولون، اقتطعها جدي من غرف البيت الكبير الذي

نسكن فيه وهدم الحائط المطل على الحي ليضع مكانه باباً خاصاً للزبائن يدخلون منه ويخرجون.. أي أصبح دكانًا مستقلاً.. وبعد مدة قامت المحافظة بختمه بالشمع الأحمر بوشاية من أحد الجيران.. وبفضل الهدايا والمال لموظفي البلدية استطاع جدي الحصول على الرخصة.

كان جدي يبيع كل شيء.. والكل شيء أتت بناءً على طلب الجمهور كما يحلو لجدي تسمية زبائنه.. فمثلاً لو دخل دكانه عابر سبيل مارًا بالصدفة وسأل عن بيع السجائر ولم يجد طلبه.. فإنك ترين جدي يصحو في اليوم التالي مبكرًا جدًا ليتبضع الدخان.. وإن أرسلت امرأة من الحي تسأل عن باقة بقدونس فترينه يفعل الشيء ذاته.. وهكذا حتى امتلأت الدكان بكل الأنواع والأصناف المتناقضة. أجبان وألبان وخضراوات ودخان وألعاب أطفال وعصرونية وبزورية وألبسة داخلية ولوازم خياطة ولو أنه لا يخاف من الحكومة ..لرأيته يتاجر حتى بالحشيش، لذلك اشتهرت دكان جدي باسم دكان كل شيء.

وذات يوم طلبت منا مجموعة من شبان الحي إغلاق الدكان ريثما تنتهي المظاهرة التي سيخرجون بها.. خوفًا على حياتنا من الأمن الذين يطلقون الرصاص عشوائيًا وهذا حصل كثيرًا ومات الكثيرون ممن لم يكن لهم علاقة لا بالمظاهرات ولا بغيرها.

أغلقتُ الدكان.. ورغم تنبيهات أمي المتكررة بألا أتدخل بأي شيء يخص المظاهرات وغيرها وبأن أغلق الدكان من الداخل حين يطلبون مني ذلك والعودة للمنزل من الباب الآخر الموصل للبيت.. إلا أني تحمست يومها وأحببت الخروج والهتاف معهم.. طلبت من الشبان الانضمام إليهم وافقوا وطالبوني باللحاق بالفتيات اللواتي ينتظرن بالساحة وأن أردد معهن ما يرددن بدون زيادة ولا نقصان، هناك سألتني فتاة هل حفظت ماستردينه؟ جاوبتها بالنفي.. وقبل أن تملي علي ما سأهتف به..

ارتفعت أصوات كثيرة لم أستطع من خلالها إلا سماع كلمة يا فرفور.

اعتقدت أن الفرفور مندس وكلمة مندس باتت تتردد كثيرًا على الألسنة.. دون أن أعرف معناها.

صرخت بكل قوتي.

- (يا فرفور يا فرفور يلعن أبوك يا طرطور).. ظللت أصرخ وكأني أحد المتصلين بالله.. لم أنتبه للجموع التي صمتت فجأة إلا حين أوسعوني ضربًا.

من؟ لا أدري.. لكن هناك شابًا أبعد مجموعة الشبان الذين ضربوني مدافعًا عني قائلاً لهم.. أنا أعرفها وهي جارتي ومسكينة.. إنها لا تعي ما تقول.

جرني من يدي ودفعني بقوةٍ قائلاً:

نحن خرجنا لأجل الحرية والديموقراطية.. ولو كررتِ هذا الكلام مرة أخرى لقتلتك..!! وسأقتلك وحدي دون مساعدة من الشباب تذكري ذلك.. ثم طردني بديموقراطيةٍ فذة طالبًا مني عدم الخروج بالمظاهرات وإلا!!!

ومن يومها أقسمت أن أهرب مسافة ألف متر حين أرى مظاهرة.

ضحكت مهجة كما لم تضحك مثل ما ضحكت الآن.. أما ناديا فكاد يغشى عليها من الضحك.

تابعت منال حديثها مبتسمة بغصة تحاول دوماً إخفاءها:

بعد ثلاثة أيام طلب مني جدي الذهاب معه للسوق لشراء بضاعة للدكان، استوقفنا الحاجز وطلب منا إظهار بطاقاتنا الشخصية كما جرت

العادة، ولسوء الحظ فقد نسيت بطاقتي في البيت، طلب الجندي من السائق التوقف على اليمين وأمرنا بالنزول، دخلنا لغرفة الضابط خلف الساتر الرملي وكانت عبارة عن كبين يشبه أكشاك بيع الخبز لكن بمساحة أكبر قليلاً.. لا دري لماذا تخيل لي الضابط وهو يحمل المكتب تحت إبطيه بعد طيه هارباً عند حدوث هجومٍ مباغت.. سألني ما هذا الذي على وجهك؟ كانت ماتزال آثار الضرب واضحة.

نطقت بالكلام أنا وجدي باللحظة ذاتها.

- ضربها والدها.

- ضربوني الشبان أثناء المظاهرة.

حين هبّ الضابط واقفًا أخذت أعضاء جسدي وضعية عدم الانضباط كطلاب صف أستاذهم في إجازة.. جف ريقي.. ارتجفت ركبتاي، دقات قلبي في سباق للجري.. أمعائي تقرقر.. وكي أثبت له أن لا علاقة لي بالثورة.. لعنت أمامه أطفال درعا الذين لم يتربوا جيداً وكفرت بربهم.

حين اقترب الضابط يسألني عما تفوهت به أغمضت عيني.. وتمنيت لو تسقط أذناي كي لا أسمع شيئاً.. لكن صوته يعيد الميت للحياة.. ليس حبًا بالعيش بل لتمني الموت مرة أخرى.

حاول جدي التكلم لكن الضابط أسكته مبتسماً وهو يرص على أسنانه.

أنا أسالها هي يا حيوان.

ضحكت منال مكملة حديثها.

تحول كل شيءٍ أمامي إلى ضباب باستثناء عيني الضابط الزرقاوين وأسنانه الصفر، ذكرني وجهه بقطعة قماش في دكان جدي خصصها لمسح الغبار.. وبدون وعي مني حركت يدي كأن الغبار ملأ المكان تلك

الحركة اللا شعورية هي التي أنقذت الموقف حين استغلها جدي محاولاً إفهام الضابط بإشارة من يده علامة أني مجنونة.

راقت لي اللعبة حين لاحظت الضابط يبتعد قليلاً للوراء، رأيتني أقترب منه محملقة بعينين يصدق كل من يراهما أني مجنونة بالفعل.

ابتعد خلف مكتبه صارخًا بوجهنا.. اغربا عن هنا: حشرات.. جراثيم.. تفوووووه.

ونسي سؤالي عن آثار الضرب على وجهي، لكن جدي لم ينس أن يأخذ بطاقته الشخصية.

أعلم أنكن تتسائلن الآن لم أنا هنا؟ وتلك حادثة أخرى.

أغمضت عينيها وكأن الموت لم يخفها يوماً، بل كأكثر نساء المدينة كان يرعبهن العيش المعطوب..

وأكملت:

كنت أقوم بتوصيل مؤن أغذية صنعتها أمي لإحدى الموظفات في الحي المجاور لحينا.. والمؤن عبارة عن مخللات ومربى وغيرهم استوقفني الحاجز وطلب هويتي كالعادة بعد سؤاله عما أحمله.

كان الوقت عند الظهيرة موعد استراحتي من العمل في محل جدي وأما الحاجز الذي اقف أمامه فمهمته الأساسية (حماية) الحارات والشوارع الفرعية التي يقطن بها موظفو الدولة والموالين للحكم، ابتسمت ساخرة تقول:

كما تعلمن جميعًا.. وكما قرأنا في كتبنا المدرسية.. بألا نتوانى كشعوب عن المطالبة بإزالة الحدود بين بلدان الوطن العربي الكبير.. واليوم بتنا نحلم بإزالة الحواجز بين حارة وأخرى.

أثناء وجودي هناك وقبل أن أجاوبهم عن محتوى البضاعة التي بحوزتي صدرت من على الرصيف المجاور هتافات آتية من الحارة المقابلة، هتافات تنادي بإسقاط النظام ومناشدة الحرية، ارتبكت يومها نتيجة ارتباك الجنود وأصواتهم، كان عقلي يصدر الأوامر لقدمي بالهروب كي لا أُتهم بالإرهابية وأنا ما زالت تتردد على أذناي كلمات الضابط الذي أهانني أنا وجدي قبل عدة ايام.. ولم يكن قد مضى وقت طويل على ضربي من شباب الحي وغضب جدي وصراخ أمي وتهديدها لي بالحبس في البيت إن كررت ما فعلته حين خرجت في تلك المظاهرة، صور كثيرة ارتسمت مسرعة أمام عيني كفيلم سينمائي أحداثه تتسارع دون أن تمنح لي الفرصة للتفكير بين مقطع وآخر.. في تلك الأثناء وخلال انتشار الجنود بانتظار ما سيمليه عليهم قائدهم، انتصب أمامي الضابط نفسه الذي طردني أنا وجدي ارتجفت ركبتاي ولم تعودا قادرتين على حملي.. سقطت المطربانات الزجاجية التي ارتطمت بالأرض محدثة صوتًا اعتقد الضابط من شدة خوفه واستنفاره أنها أسلحة أو ما شابه.. وقبل ان يتحقق منها رأيته يدخل مسرعا إلى الغرفة المخصصة له أمام الحاجز وهو يصرخ: اعتقلوها فورًا وأحضروا هذه ال..... للداخل وحين دخلت استقبلني الضابط بصفعةٍ رمتني أرضًا، طوقني بعدها الجنود.. ولم يجد صراخي نفعاً حين قلت بألا علاقة لي بكل ما يحصل.. صرخت كثيراً ولم يسمعني أحد، أقسمت ولم يصدقني أحد، من يصدق مجنونًا في مشفى المجانين حين يصرح بأنه العاقل الوحيد فيها ثم قذفوا بي إلى هنا وما زلت أنتظر محاكمتي التي لا تأتي.

لحظة الاعتقال وحدها التي تخيف وبعدها يصبح كل شيءٍ عاديا.. في البداية أخافتني وأرعبتني أصوات خطوات الجنود التي كانت تسير نحو زنزانتي.. ثم تحول الأمر لروتين.. لكن تغير كل شيءٍ بداخلي حين قام أحدهم باغتصابي.. ثم قام بدعوة أصدقائه على وليمة جسدي التي أصبحوا ينهشونها كالضباع ويتناوبون عليها كل ليلة، لم يعد

بعدها يخيفني سوط الجلاد وهو ينهال على جسدي.. بل بات الأمر فيه لذة وكأنني أعاقب نفسي على حياة فرضت علي قهرها وتمادت، لماذا أخاف وممن؟ فأنا في الخارج كنت في سجنٍ كبير بدون جدران.. وانتقلت بتهمةٍ أُلصقت بي إلى سجنٍ صغير لا يختلف كثيراً عن سابقه، لماذا أخاف وقد فقدتُ منذ زمنٍ بعيدٍ إيماني بالأشياء كما فقدت كل محاولة تبقيني على قيد العيش لا الحياة.

سهير تحدث سجينة مضطجعة أمامها مرسلة رسالة للجميع بكلامٍ لا يخلو من التهكم:

يا للخيبة والمرارة حين يقبع أشخاص بريئون في السجون لأجل مجانين غير مدركين ماذا فعلوا وماذا يفعلون.. ومن سيستمع لمطالبهم وصراخهم وهتافاتهم وهم لم يصغوا لأحد في السابق.. أي غباء سيطر على هؤلاء حتى طالبوا بحقٍ هم أنفسهم لا يعرفون معناه، فأغلب الذين خرجوا بتلك المظاهرات كانوا لا يعرفون شيئا إلا الفزعة لإخوانهم في السجون دون الأخذ بعين الاعتبار أو التساؤل ماذا فعلوا حتى تم اعتقالهم؟! الحرية؟؟ ممن؟ ولماذا الآن بالذات؟ وما الذي سيحققونه من نتائج أفضل على جميع الأصعدة؟ من المستفيد من هكذا أعمال لن تجني إلا المزيد من الخراب؟ هل يعقل أن يحبنا الغرب ويشفق علينا وهم من صنفونا بدول العالم المتأخر؟ هؤلاء ثلة من المجانين ليس إلا، فلو فكروا جيدًا لما أقدموا على عمل مستهتر كصديقهم التونسي الذي سبقهم وأحرق نفسه من أجل صفعة أهانته بها يد شرطية.. ولم تذله صفعات قدره على عربته المتجولة، في هذه البلد تستطيع أن تفعل أي شئ.. كل شيء مسموح لك.. كل ما تود عمله من سرقة وعمليات نهب ونصب واحتيالات ورشوة بشرط ألا يمس ذلك أمن الدولة.. وإلا كنت ممن خرجوا ولن يعودوا.. ما لنا ومال الدولة؟ فلتفعل هي ما تريد ونفعل نحن ما يحلو لنا.. وما معنى هذا الذي يطالبون به ويسمونه

حرية؟ كلنا نملك الحرية بما يتناسب مع ما نريده، أليست هذه حرية؟.

للحرب أخلاقيات ابتعدوا عنها ومارسوا أبشع أنواع القتل بحجة الحرية، أي حماقة تلك التي ارتكبها طالبوا الحرية

تسألها أميرة مستنكرة:

- ومن قتلوا، ماذا تسميهم؟

استهتار سهير أغاظ يارا حين قالت:

- لو لم يموتوا بالرصاص أو الصواريخ لماتوا بحوادث أخرى.

تنتفض يارا:

- قبل التحدث عن أخلاقيات الحرب كان لا بد لك من تثبيت دعائم الأخلاق.. أو على الأقل إثبات ما قد يسمى الحرب العادلة، كيف بإمكانكِ إقناعي بأخلاقيات الحرب.. وصناعة القرار بيد أشخاص يتحكمون بملايين ملايين البشر، أي أخلاق تتمتع بها أي حرب في هذا العالم ونحن نشاهد الأشلاء المتناثرة قي كل مكان؟ وكل ما يمكن أن يُقال إزاء تلك المناظر بأن للحرب أسباباً تدفعها أحياناً لقتل أبرياءٍ ليس لهم ذنب.. إلا أنهم أشخاص مارسوا حياتهم بشكل طبيعي ولم ينخرطوا في صنع أي قرار.. أو الانحياز لأي طرف من الأطراف، هل هذه أخلاقيات الحرب؟

أي أخلاقيات حرب تتحدثين عنها بوجود أبرياء يواجهون آلات القتل وهم عزل؟

أي حربٍ أخلاقية تتحدثين عنها بوجود متاريس يقف خلفها جنود جُردوا من مشاعرهم وأُجبروا على قتل مقربين لهم تحت التهديد بالتعذيب إن رفضوا تنفيذ الأوامر.

هل للحرب مبادئ حتى يكون لها أخلاق؟

جاوبتها سهير بهدوءٍ محاولة استفزازها:

- أحياناً للضرورة أحكام حين يتعلق الأمر بالأمن العام.. ربما حصلت تجاوزات لتفادي جريمة كبرى يمكن لها لو استمرت أن تقضي على الاستقرار.

جاوبتها أميرة مشيرة بيدها إلى يارا أن تسمح لها بالكلام:

- كان الأجدر بكِ إقناع نفسكِ بالحرب على قادةٍ سياسيين انتهجوا سلوكا غير عادل وجرّوا الشعوب المسكينة لحروب ربما لن تنتهي لعشرات الأعوام القادمة.

الأنظمة فاسدة وكان لا بد من تغييرها بنظر الغرب وتغييرها لن يتم عن طريق المفاوضات.. بل عن افتعال الثورات وتهييج الشعوب على تلك الأنظمة ليأتي دورها بتجارة السلاح قبل أن يكسد في مخازنها، إن افتعال أية أزمة من الغرب اتجاه الشرق لن يكون حتما في صالح الشعوب.. بل سيصب في مصلحتهم هم قبل أي شيء، خيرات الشرق الأوسط نفطه و صناعاته و زراعته ومعادنه و مياهه وعقول أبنائه.. ولا تنسي التطهير العرقي والقضاء على أكبر عدد ممكن من البشر التي تسعى لنشر الدين، فالدين أخلاق وتسامح وسلام.. وهذا ما لايريدونه وإلا كسدت تجارتهم وفسدت، لو كانت هناك حربًا عادلة لما لجأ العالم لإنشاء محكمة جنائية دولية رغم عدم وثوقي بها، يا سيدة نحن نشك أحيانا بأخلاقنا كيف لنا أن نضع ثقتنا بصانعي الحروب؟

نحن بارعون بالمديح.. مديح الحاكم وحاشيته الفاسدة والمفسدة ومديح الديموقراطية والعدل والمساواة المزعومين.. ثم نلتفت للعويل والنحيب على جثث الشهداء لإقناع أنفسنا بأنهم استشهدوا دفاعاً عن

الوطن وشرفه وحفظ كرامته.. شرف وكرامة هم في الحقيقة مباعون في سوق النخاسة السياسي ضمن صفقات، ولم يباعوا بالمقاومة، ومن دفع ثمن هذه التجارة هم شهداء غُرِّر بهم وصدقوا بأن للوطن شرف يستميتون بل يستشهدون بالدفاع عنه دون أن يدركوا الألعاب التي يلعبها الكبار، الكبار المختبئون خلف متاريس أعمالهم وصفقاتهم وكلما سقط شهيد رفعوا كؤوسهم ليشربوا نخب انتصاراتهم في فنادق الخمس نجوم منضوين تحت أكثر من مسمى.

أجبيني.. ألم تكوني تنظرين إلى مناظر جنودنا وأجسامهم كم هي هزيلة؟ ألم تكوني تشاهدينهم في عربات نقل الجنود كيف هي وجوههم.. أي اجسام هذه قادرة على حمل رشاش يحمل ضعف أوزانهم؟ وكيف سيواجهون عدو وقد تدرب أفضل أنواع التدريب الجسماني.. وتغذى بأفضل أنواع الغذاء..

**قولي لي ما هو شعور الطفل الممسك بحقيبة مدرسية هي عبارة عن كيس فارغ للأرز يضع فيه دفاتره، وحذاؤه مثقوب وبطنه جائع وجسده يكاد يتجمد من البرد؟ قولي لي مثل هذا الطفل الواقف في طابور تحية العلم بأي روح سينشد: موطني!**

# الفصل الثاني والعشرون

الفرق بين العاقل
والمجنون.. هو
أن العاقل بارع
بالتمثيل والتصنع
أكثر..

موعد الطائرة الساعة الخامسة صباحًا.

كلمات تخرج من بين شفتي زيزي على شكل زفرات متقطعة تحكي ألف قصة حزن.

بقي أمامي ستة ساعات لأودع بهم دمشق للأبد.

نظرات الأسف والخيبة بدت في عيني رضا حين قال بصوت خفيض محاولاً من خلاله ابتلاع دموعه:

أحزنني هذا القرار وكنت أود لو أنك عدلت عنه إلى أن تري أن الأمور عادت للبلد إلى ما كانت عليه وأفضل.

التفتت زيزي إليه مندهشة من كلامه بعد أن أنهت ترتيب أوراقها ووضعهم داخل محفظتها:

أي بلد تلك التي تتكلم عنها؟ ماذا تركوا فيها أصلاً.. ثم أردفت قائلة بعد أن أشعلت سيجارتها:

منذ فترةٍ قرأت على أحد صفحات الفيسبوك منشوراً أعجبني كتبت صاحبته:

قام الفينيقيون على أنقاض الحيثيين وجاء الكنعانيون بعد الفينيقيين ثم الفرس بعد الكنعانيين واليونانيون بعد الفرس والروم بعد اليونانيين والغساسنة بعد الرومانيين والمسلمون بعد الغساسنة ثم خلف العباسيون الأمويين ثم جاء صلاح الدين وبعده السلاجقة وبعدهم الترك حتى جاء الشريف حسين وبعده الفرنسيون.. والناس لا يعتبرون

كم واحدًا منا يعلم بأن تلك المصبغة التي تقع بعد حارة القباقبية كانت قصراً لخلفاء بني أمية؟ وأن مدرسة السميساطية المحدثة للبنات كانت منزلاً لخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز.. ثم أكملت مقالها:

كنا نعيش مطمئنين وكانت البلد تئن تحت وطأة المؤامرات والتنازع عليها.. بينما كنا نحضر أمتعتنا للمصيف في البر والبحر وحين سقط الجولان كان أهالي دمشق يرتشفون قهوتهم على شرفات منازلهم ومنهم من جهز نفسه للسياحة كي... (ينسى أوجاع وطنه).

من منا قادر اليوم أن يقول لأبنائه بأن فرنسا دخلت بالخيانة لبلدنا وخرجت بمحض إرادتها ولم يدحرها أحد... و ما زالت موجودة إلى اليوم.

**دمشق كانت كنزًا سرقوه منا حين لم نعرف الحفاظ عليه، دمشق نعمة سُلبت منا لأننا لم نكن نستحقها حين رمينا فتات خبزها بكفر لا مبال.**

**لقد لُكنا كلماتنا لدرجة تعب فيها فَكُّنا وتشنج.. وابتلاعها مر وبصقها أمَر.. وصرخنا حتى خاب ظن حناجرنا في الآخرين.. فصمتنا وجلسنا نحلم بأيادٍ تجر أيادينا التي تخدرت من الانتظار.. ممسكين**

**بها رؤوسنا المطأطئة بالمرارة والوجع الذي انتقل من شرايين قلبٍ باتت تضخ ألماً وقهراً بدلاً من الدم.**

من منا اعترف بأنه لم يسيء لدمشق؟؟ إنها الطامة الكبرى حين تقنع نفسك بأنك أحسنت عملاً بينما أنت مسيء، وهذا ما فعلناه جميعًا، ماذا أنتظر في وطن يحكمه امبراطور مقنع أحسنوا تصنيعه؟ إمبراطور لم نره مرة واحدة ولم يظهر على شاشات التلفزة، امبراطور يحرك الأوطان مع أباطرة آخرين من خلال شاشة كونية ساخرين من الجميع، امبراطور ذكي بحماقة.. حين ارتضى أن يكون مجرد آلة تعبث بها أزرار الزمن والمال، امبراطور تكدس عليه الغبار، وكلما شعر بالاختناق سقطت حكومات وشعوب وأوطان من خلال تحريك يده لينفض الغبار عن وجهه، إمبراطور يعيش في غرفة تشبه غرفة صالة القمار الزجاجية التي تراقب الزبائن ولكنها شاشة كبيرة تتحرك كيفما حرك قرنيه.

بتنا نعيش في عالمٍ سافل، عالم يسمح بالقتل والدعارة واستباحة الدم وحرق جثث الأحياء والإتجار بالأعضاء وسلب الأوطان والتطهير العرقي وزواج المثليين والاغتصاب والمخدرات والقمار وتزوير العملات والسلب بالعنف والخطف.. حتى بات استئجار قاتل محترف أسهل بكثير من استئجار منزل أو كتاب.

سأقول لكَ شيئاً قبل رحيلي: وسأحذرك مما سيحصل.

ابتعد عن الصالة، ابتعد عن ذلك العالم القذر.. إياك أن تفكر يوماً باللعب مع الكبار.. فالكبار لا يلعبون وحدهم.. هناك دومًا خيوط تحركهم، خيوط لا مرئية نحن لا نراها ولا حتى هم، وإن كشفنا من يحركها فهذا يعني نهايتنا، أنا كشفتُ القليل وهذا القليل هو الكثير بالنسبة لغيري.. لكني كنت أذكى منهم حين تبالهت وتعاميت وخرست ونفذت كل ما طلبوه مني بالحذافير، كان لا بد من فعل ذلك.. وإلا كانت نهايتي كنهاية

عفيف وغيره، أنا لا أشكل خطورة عليهم لأنني كنت أذكى منهم حين أقنعتهم بتصرفاتي أنني امرأة لم أعد أصلح لشيء.. بعدما خسرت إيزاك، صدقوا أن شرودي مرض استشرى به عِشقُ رجل هجرني وسأقضي بقية عمري وأنا لا أصلح إلا للتفكير به، بالواقع أنا كذلك.. لكنهم لم يسمحوا لي حتى بحق الاستمتاع بحزني على فراقه كما يحلو لي.. تراك لاحظت ذلك بكل تأكيد

تبتسم بمرارة!

هل لاحظت بأني لعبت حتى على مشاعري وأتقنت دور الفاشلة كي أحمي نفسي منهم.. وكي يتسنى لي الرحيل دون أن يلحق بي أحدهم وينهي حياتي برصاصة تخرج من مسدس كاتم للصوت.. متهمين إياي بالانتحار كما جرت العادة حين يحاولون التخلص من عملائهم؟

تعرضت لامتحاناتٍ كثيرة ظنوا من خلالها أن ألعابهم ستنطلي علي ومجاراة هؤلاء تحتاج للكثير من الدهاء.. والكثير من الهدوء.. والكثير من الصبر والتكتيك، لعبت لعبة الخسارة والعجز أمامهم.. فهؤلاء مرضى لا يحتملون من يكتشف أمراضهم.. فأمراضهم مُعدية ولا يجب مداواتها كي يتسنى لهم نقل العدوى.. الفيروس اسمه الفساد ومعالجته في محاولة القضاء عليه يعني أن أباطرة المال والسلاح سينتهون قريبًا.. والنهاية تعني موت الجشع.. وهم لن يقبلوا ما لم يقضوا على من وجد دواءً لتلك الفيروسات.

مهيوب مثلاً، قالتها ساخرة بحقد وبحدة:

مهيوب تاجر كل شيء، تاجر سلاح.. وتاجر رقيق.. وتاجر سياسة.. وتاجر سلطة.. وتاجر كل ممنوع.. وبالنهاية مهيوب تاجر مخدرات ومعظم تجار المخدرات لا يتعاطونها، لكن مهيوب يتعاطاها في بعض الأحيان

حين يشعر بأن الضعف بدأ يرتفع بمنسوبه داخله، هؤلاء التجار يقومون بخدماتهم لمعظم المسؤولين ورجال الأعمال والأثرياء.. لماذا الكوكائين؟ سحبت نفساً أخيرًا من سيجارتها قبل أن تطفئها وأردفت:

الكوكائين يعطي قوة وسعادة لا يمكن للخمر أن يحققها.. والمتعاطي للكوكائين جبان يستعين بها كي تمده بالقوة.. فهي تشعره بأنه بطل لا يُقهر.. وينتشي بسعادة لا يجاريه فيها أحد، ومن هنا كان ثمنه باهظًا ويقتصر على بعض الأثرياء.. فالأثرياء من بعض التجار ورجال الأعمال والمسؤولين الفاسدين حياتهم طمع وجشع وخوف وحذر وترقب.. وتلك الصفات يمكن أن تدوس على أي شيء مقابل الربح... والربح يعني الكثير من الأموال.. والكثير من الأموال يعني الفوز بالأمان.. والفوز بالأمان يحتاج لشراء الكثير من الحراس الشخصيين وكلاب الحراسة.. ومنهم من بات يقوم على تربية وحوش كاسرة كالنمور والأسود، وتحصين قصورهم بأحدث أشكال التكنولوجيا الحديثة.. وأرباب المال يقابلهم دوماً منافسون والمنافسة تعني حروبًا غير معلنة خاصة ممن يمتلكون النفوذ السياسي في الخارج فهؤلاء هم أكثر من تخشاهم السلطات لثقتها بقدرتهم على تجييش أشخاص داخل البلد ضد تلك السلطة.. لدرجة أنها قادرة على تمويل الثورات وشراء من تراه مناسباً من القادة.. ومن لا يمتثل للأوامر فنهايته القتل بكل بساطة بأيادي أصدقائهم، هؤلاء يشكلون خطراً كبيراً على السلطة والانتقام يتم بالخفاء، والخفاء يحتاج إلى الكوكائين والنساء، النساء مهمتها ليست فقط امتاعهم بل جرهم وتصويرهم عبر فيديوهات مصورة سراً في الغرف الحمراء، متى تظهر؟؟ تظهر عندما يحين الوقت بإعلان حروب ما بين هؤلاء النافذين وبين السلطة، عندها ستلوح لهم السلطة بنشر الفظائع التي ارتكبوها في الغرف الحمراء والتي غالباً ما تكون مقززة.. لأجل ذلك كله فقد رأت الأجهزة الأمنية أن نجاحها وانتصارها لن يكون إلا عبر سيطرتها على

هـؤلاء ووضعهـم تحـت جناحهـا.. وكلمـا ارتفعـت أهميـة علاقـات أولئـك الرجـال بالخـارج.. أو كلمـا ارتفعـت أرصـدة بنوكهـم بالداخـل شـددت قبضـة أجنحتهـا عليهـم.. ألـم تكـن تلاحـظ بـأن مقابـل كل تاجـر هنـاك ضابـط أمـن يسـير لـه أعمالـه؟؟ لا لا.. ليـس حبًـا بـه أو مـروءة وشـهامة لمسـاعدته.. أو مـن أجـل الارتقـاء بالصناعـات لأجـل عيـون الوطـن.. بـل هـو مراقـب جيـد للتاجـر وحـارس للسـلطة، مراقـب باسـم الصداقـة التـي تصافحـه بيـد بينمـا اليـد الأخـرى تخفـي خلـف ظهـره قيـودًا يضعهـا فـي يـدي التاجـر وبـدلاً مـن الذهـاب للعشـاء تتغير خارطـة الدعـوة باتجـاه السـجن، مـن هنـا كانـت المقولـة التـي يسـتخدمها الجميـع...(ابـن الحكومـة مالـو صاحـب...) ولذلـك لا تندهـش حيـن تسـمع بعـد شـهرين أو ثلاثـة علـى أكثـر تقديـر بمقتـل مهيـوب (منتحـرًا) فقـد بـات يملـك معلومـات أكثـر ممـا يجـب.. بالوقـت ذاتـه سـيكون هنـاك مهيـوب آخـر سيتصـدر مشـاهد أخـرى.. وحيـن يُقتـل مهيـوب سـتخرج الأوراق الموجـودة فـي هـذا الظـرف، قالتهـا وهـي تناولـه ظرفًـا كبيـراً فيـه مجموعـة أوراق قالـت بأنهـا مهمـة جـدًا ولا يجـب عليـه التصـرف بمحتوياتهـا إلا حيـن ذهـاب مهيـوب إلـى جهنـم.. وأول مـا عليـه عملـه هـو تأجيـر منزلهـا علـى أن يأخـذ رضـا ربـع قيمـة الإيجـار ويـوزع الباقـي علـى العائـلات المحتاجـة دون أن يعـرف أحـدٌ مصدرهـا فاسـمي مشـهور فـي عالـم الحـرام كمـا يسـمونه وكمـا هـو معـروف.. لـذا سـتخرج أصـوات مسـتنكرة ورافضـة أن تـأكل تلـك العائـلات مـالاً حرامًـا.. فـي الوقـت الـذي تخـرس فيـه أصواتهـم وتصـم آذانهـم عنـد سـماع أنيـن جوعهـم ووجـع خطـوات تشـردهم علـى الأرصفـة والحدائـق والطرقـات.. وتعمـى أعينهـم عـن فتـاة تسـلم نفسـها للرجـال كـي تعطـي المؤجـر إيجـار البيـت دون أن يرحـم تمزقهـا وهـي تفكـر بإيجـار الشـهر الـذي يليـه.. باحثـة عـن الأمـان لهـا ولعائلتهـا.

**بماذا يفيد الشرف في حضرة الجوع.. وكيف يمكن للعفة والطهارة إيجـاد أمكنـةٍ لهمـا فـي قلـب الظلـم والقهـر والعـوز والحاجـة؟ وكيـف**

**تستطيع التغاضي عن أطفالٍ حُرموا من متعة الاستمتاع حتى من أرواحهم حينما أوجدوا لهم أرواحًا أخرى يسكنها الهم والغيرة والغيظ كلما رأوا أطفالاً بنفس أعمارهم مفعمين بالصحة وهم يصعدون لباص المدرسة؟**

يا أسفي على من يتشدقون بالدين ويسخرون من أمثالي لأني أمنح هؤلاء ما حُرمت منه وما حُرموا منه هم أيضاً.. يا لوجعي حين يفكر من أسموا أنفسهم شيوخ فتاوى واحتكروا تجارة الدين دون أن يعلموا بأن آثام العمر تُمحى حين ترى طفلاً يرتدي ثياباً جديدة ممسكًا بيده نقودًا يناولها للبائع مقابل قطعة حلوى، يا لقرفي من تجارٍ طماعين يسكنهم الهم حين لا يفكرون بأن ليس لهم أكثر من بطنٍ واحد يشبعون به.

أشعلت سيجارتها وقالت بجديةٍ أعادت لها هيئة زيزي المعتادة:

أما باقي الأوراق فسوف نتحدث عنها في حينها.

تابعت حديثها وهي ترشف من قهوتها:

ركبت موجات عاتية.. وجدفت حتى انهارت قواي في كثير من الاحيان واستمريت.. وكان لا بد من التقاعد.. وأنا قد قررت التقاعد في سن مبكرة، امرأة في الثلاثينات من عمرها.. وفي الحقيقة هي عجوزٌ هرمة لا تدري ما الذي ستكون حياتها عليه حين تقترب من سن الخمسين، لقد استنفذتُ حياتي في كل شيء.. رجال.. قمار.. جنس.. كحول.. و جروح حب لن يندمل، كذب وانتصارات وهمية.. لكن أعترف بأنني داهية أكثر مني ذكية حين قررت ترك كل هذا والنفاد بجلدي.. فعقلك لن يفيد في مصح عقلي.. ومحاضرات الشرف ستبدو سخرية داخل ملهى ليلي وتشجيعك ونصحك لن يفيدا مع من لا يستخدمون سوى حاسة الخمول والتبعية، فشلتُ رغم كل ما حققته من ثراء.. فشلتُ بتكوين أسرة وعائلة كما

فشلتُ بحب أمي وهُزمتُ ألف مرة... وما زلت.

أمسك رضا رأسه بيديه وجلس على الأريكة كمن أنهكه موت عزيز عليه،مسح وجهه المحتقن غضبًا وغيظًا دون أن ينبس ببنت شفة، عيناه حكت كل ما عجز عن البوح به.. كانت مشاعره تمطر دموعًا وألمًا وحرقة بات عاجزًا عن كل تعبير، حاول التكلم.. ولكن العبرات خانته ولم يجد سوى حنقه الممزوج بالصمت الذي يحكي ألف قصة وجع.

فكثيرًا ما تكون قلة الكلام كلام!!

امتزجت كلمات زيزي التي تفوهت بها بحزن يغالبه شعورٌ بالبكاء.. ثم اقتربت من رضا وقالت له:

**لقد ماتت دمشق وما زلنا نرفض الاعتراف بذلك، نرفض كرجلٍ عاشق أسقط فرضية أن حبيبته ماتت.. و ترفض ذاكرته هذا الحاضر الذي ما زال يعيش جمال الماضي بذكرياته حين كانا صبيًا وصبية هاربين من أعين الفضوليين ليكتبا اسميهما على شجرة الكينا في القيمرية خلف الجامع الأموي.**

**لقد ماتت دمشق ومازلنا نسمي موتها هراء، رغم سيرنا خلف نعشها الذي دق كلٌ منا فيه مساميره دونما رحمة.. نتشاجر لدفع التهم عن أنفسنا.. ورميها على بعضنا البعض.**

**لقد ماتت يا رضا، بعدما أشبعوها ضرباً وركلاً وأذية بحجة حمايتها وآثرها كل لنفسه كي يستمتع بصباها وجمالها بعدما أوهمها بأنه النبي المعصوم الذي سيرمي كل من يحاول النهش منها بشواظٍ من نار، سرقوا حليها وفتحوا صناديق أسرارها وباعوه للغريب وقبضوا الثمن، ذبحوا أولادها أمام عينيها حين أفتى شيوخ السلطان بأنهم أولاد عاقون، سرقوا مكتباتها كي تتزين بها متاحف الغرباء، قطعوا**

**أشجار بيتها وحرقوا لها أصص الزريعة التي كانت تحبهم وتحنو عليهم، داهم بيتها اللصوص وسرقوا رسائل قديمة كُتبت بدم ثوار الغوطة، مزقوا صور أحبائها وزوروا تاريخها وشوهوا سمعتها وأنهكوها جوعًا وقهرًا.. ولم يتركوا إلا الموت خياراً لها.**

**وما زالوا رغم ندبهم الكاذب عليها يستعرون كالكلاب لسرقة جثتها وبيع ما تبقى منها في المزادات العالمية.. يا للدهشة حين اكتشفنا بأننا كنا أحفادًا مخلصين نملك جيناتٍ صافية للأربعين حرامي بعدما تكشف لنا بأن علي بابا لم ينجب أطفالاً.**

شهق رضا بالبكاء وصرخ كابن آوى جريح:

دمشق لا تموت دمشق لن تموت ولن أكون ولدًا عاقًا عاجزًا عن الدفاع عنها.. وسأجعل من دفاعي عنها هدفاً سأمحو به كل ما اقترفته من ذنوب.

دمشق لن تموت رغم كل الحزن.. وعلى الرغم من كل الرصاص الذي أطلقوه عليها.. إلا أنها مازالت حية، دمشق لا تموت.. فقد ثارت عليها آلاف الزوابع لكن لا غالب يغلبها، إنها دمشق رغم الخراب.. هي دمشق المتوجة بالعبير وبالسحاب.. دمشق لا تموت، فما زال في كهوفها محفور الكثير من الكلام ومن السلام.. و مازال في قاسيونها نهر لم يكتشف بعد، نهر قاسيون الذي سينفجر يومًا ما غضبًا ونزقًا.. وريشة لعصفور مبللة بالحب والحبر.

نهض رضا واقفاً يمسح دموعه وبصوتٍ مبحوح وعينين تفيضان حزناً قائلاً:

لقد نال الحزن مني مبتغاه منذ فقدت أمي.. وكنت أحوج الناس لوجودها.. وتلبسني القهر وما زال.. منذ تركت قلبي أمام جثة من

أحببتها ونالت الدنيا مني بطعناتها وأنا مشرع صدري لتقبل المزيد دون الاعتراض أو حتى الدفاع عن نفسي.. وكأنها محاولة مني لمساعدته على تعذيبي لما اقترفت من ذنوب.. خسرت كل شيء.. كل شيء!! ولست على استعداد للمزيد من الخسارات.. والألم.. والهزائم.

أقسم لكِ بحبي لدمشق.. بأن أكون رجلاً على قدر المسؤولية.. أقسم بحزني على فقدان أمي ورحيلكِ.. ورحيل من أحببتهم.. بأن تكون قضيتي هي الدفاع عن دمشق.. فإما أن نموت معًا.. أو نحيا معًا.

أمسك بحقيبة زيزي.. وبكف يده الأخرى كان يمسح الدموع عن عينيه

هيا بنا فموعد الطائرة اقترب.

# الفصل الثالث والعشرون

لا تقل بأنك تعرف
فأعظم الفلاسفة
ماتوا أثناء بحثهم
عن الحقيقة..

تغمض سيرين عينيها وتعيد لذاكرتها كما في كل ليلة منذ قدومها إلى ألمانيا ما حصل معها.. وهي غير مصدقة أنها عبرت كل تلك الحدود دون أن تموت.

عام ونصف.. وما زلت أبحث عن نفسي فلا أجدها، عام ونصف.. وأنا لا أشعر بالانتماء حتى للبيت الذي أقطنه، مذ وطأت قدماي هذه الأرض الغريبة وأنا لا أكف عن الانتحاب على كتف صور وحيدي وأمي وزوجي ووطني، عام ونصف.. وكأنهم قرون عشتها ألمًا ووجعًا وأنينًا مكتوما، أحاول من خلالهم لملمة أشلائي.. ولا أستطيع.

هي النكبة حين تتركك حدود وتتلقفك أخرى.. وكلٌ بحسب مزاجيتها وكأنها تمتلك تفويضاً لإذلالك!!

رحلة كأنها اتفقت مع الدهر لأذيتنا.. فبعد أن أوقفتنا الجندرمة التركية وبعد التحقيق لستة ساعات.. قاموا بتسليمنا للشرطة التي قامت بدورها بإعادتنا إلى النقطة التي انطلقنا منها.. ازمير، دُهشت يومها من

لطافتهم ودماثة أخلاقهم رغم صعوبة التواصل نتيجة عامل اللغة، فأنا قد أتيت من بلد لم يألف مواطنوها معنى حسن التعامل إلا بالضرب والركل، فاللؤم بمثابة الحجر الكريم في أيديهم.

المعاناة الكبرى كانت مع جانو الذي اندهش كثيرًا حين رآنا.. وكأنه كان يعلم بأننا ميتون لا محالة.. وأدركتُ لحظتها معنى نظراته ودهشتها حين تساءلت ما الذي كان يفعله عند الشاطئ حين غادرنا أول مرة.

واستطعنا بعد تفاوض مع جانو أن نحصل على موافقته لإعادتنا مرة أخرى في رحلة تشبه الرحلة الماضية.. لكننا في هذه المرة نجحنا بالوصول إلى جزيرة يونانية مكثنا فيها ليومين تسلمتنا بها ما يسمونها خارطية.. قبل أن نركب باخرة نقلتنا إلى سالونيك دون مشاكل تُذكر.. وكأن ملك الموت يومها قرر أخذ حمام شمسي ليستريح من أصوات العويل والفزع.

استقبلتنا مقدونية بسجنها الذي مكثنا به لمدة أربع وعشرين ساعة تسلمنا فيها خارطة أخرى توصلنا لمحطة القطار الذي سيوصلنا إلى حدود صربيا.. ومن هناك استلمنا خارطة جديدة تسمح لنا بالانتقال بالقطار إلى حدود هنغاريا.. التي كان بها حظنا سيئا أيضا، حين أمسكت بنا عناصر الشرطة المتواجدة هناك وعجزت عن القبض على البقية المحظوظين الذين استطاعوا الهرب، فالهاربون لم ينل منهم الضرب والإهانة التي تعرضنا لها نحن وباقي المحتجزين.. واحتجازنا يعني إجبارنا على أن نبصم والبصمة.. تعني أنه بات اللجوء لبلد آخر أمرًا شبه مستحيل.

والممكن في الحالة هذه هو دفع مبلغ أربعمئة يورو حتى تستطيع كسر البصمة كما يسمونها لتستطيع بعدها الذهاب إلى وجهتك،أنا وآخرون قلائل دفعنا المبلغ المطلوب بعدما مكثنا خمسة عشر يوما طلبوا فيها إحضار محام.. وإحضار المحامي كما علمنا سيحتاج لمبالغ إضافية.. وربما استمر مكوثنا هناك لعدة أشهر.. ومن لم يستطع الدفع ليس بإمكانه إلا المكوث في هنغاريا.

أكملنا المسير بعد عدة أيام كانت سيئة للغاية.. وكان ماهر يحاول التخفيف عني ومساعدتي بشتى الوسائل.. وجودنا معا خفف الكثير من وطأة الوحشة التي اعترتني.. شعرت بأنني لست وحيدة في هذا العالم وكأنه يد قدر مُدت لي من حيث لا أعلم.. فقد كنت فعلاً في محنة، محنة نُعاني جميعاً منها.. ولكن حظي في لقاء ماهر ومساعدته لي كان أوفر من حظوظ آخرين لم يمد لهم أحدٌ يد العون في ظروف مشابهة وهذا ما آلمني.

غابة أخرى.. وتعب آخر.. ومجهول لا نعلم عنه أي شيء.. فحتى نصل إلى القرية الهنغارية التي حدثونا عنها علينا أن نسلك طريق سكة حديد على طرفها نهر أعيده في مخيلتي لأتذكر كم كان جميلاً وبديعاً بجريانه معانقاً الغابة وكأنه هارب منها إليها، لكم تمنيت أخذ قسط من الراحة، لكن أمثالنا ممنوع عليهم التوقف والاستمتاع.. فعقولنا بتلك الظروف القاسية يتحول فيها النهر إلى مجرم يريد جرنا لإغراقنا في دواماته والغابة تتحول حتى في وضح النهار إلى ذئب ونحن جميعاً جدات ليلى والأوكسيجين يتحول لهواء سام إن بقينا أكثر ولم نلحق بقافلتنا التي لن تنتظر ولا تملك الوقت، لكأنما آلة الزمن ستتوقف بتوقفهم.. ومعهم حق فجُلُّ أمانيهم في هذه المرحلة ليست أوروبا وأحلامها بل عدم إغلاق الحدود في وجوهنا، لن نتوقف.. فما زال الطريق شاقاً ووعرًا بأحجار نتعثر بها حين يرخي الليل أستاره.. والمشي في الغابة أمر مجهد للغاية لمن لم يستطع النوم بشكل جيد.. ولمن بحث عن الطعام فلم يحظ إلا بقطعة خبز يابسة.

وصلنا بشق الأنفس إلى قرية هنغارية، سنستقل منها سيارة أجرة توصلنا إلى بودابست.. ومنها سننتقل بسيارة أجرة ثانية حتى حدود النمسا ومنها إلى قرية نمساوية يقلنا منها القطار بعدها إلى فيينا.

بتنا نشبه اللصوص ونحن نعبر لحدود.. لا نتجرأ بالدخول إلى مدنها أو قراها، خارطة طريقنا مرسومة بدقة.. رسمتها دول تدعي الحضارة والإنسانية، تحولنا من مسروقين في أنظارهم إلى سارقين ومن أبرياء إلى مجرمين.. هذه حقيقتنا المرسومة في داخلهم.. والأحمق من يصدقهم وهم يتباكون علينا ويزمّون أفواههم أسفًا.. محركين رؤوسهم استنكارًا بينما داخلهم يسخر منا حين أعلنوا انتصارهم، إنهم ممثلون بارعون.. لا تصدقوهم.. فنحن مجرد لعبةٍ خططوا لها منذ زمن.. وحان الآن وقت التنفيذ، دول الجوار العربية تسوَّلت باسمنا.. والدول الكبيرة مارست من خلالنا التغلغل أكثر في الشرق الاوسط الجديد.. الذي يرونه من خلال مخططاتهم هم، وماذا ينبغي على حكامنا التصرف إزاء ذلك سوى الانصياع للأوامر؟؟ ونحن كبش الفداء على مذبح أطماعهم ومخططات أرباب المال.. وتجار السلاح.. وجبن البقية وتخاذلهم.

قبل الوصول إلى فيينا وعلى الحدود النمساوية تراجع قسم ممن كانوا معنا مختارًا البقاء في النمسا، رافضًا الاستمرار في المسير إلى ميونيخ، حينها ضحكت بصوت مرتفع، ضحكت.. وضحكت حتى امتزج ضحكي بالبكاء.. لم أستطع تمالك نفسي.. ولم أجرؤ عن إفصاح السبب بل كتمت قهري وأنا أمسح دموعي بينما الآخرون ينظرون إلي مشدوهين من تصرفي المفاجئ.

**يا لسخرية القدر حين كنا نحلم بتذكرة طائرة إلى عمَّان.. وأصبحنا تذاكر بتاريخ ساري المفعول يسمح لنا مارد المصباح بالمكوث قائلاً لنا بكل اللغات.. شبيك لبيك بلادنا ريثما تنتهي مصالحها بين يديك.**

ودعنا من اختار البقاء منهم وتواعدنا كاذبين بأن نلتقي ذات يومٍ في الوطن.

**فيينا محطتنا الأخيرة قبل ركوب القطار الذي سيوصلنا إلى**

**ميونيخ، فيينا اسم له وقع خاص وترنيمة لنغمات جميلة.. ربما كان السبب أغنية لطالما سمعناها وأحببناها وتمنينا أن نعيش أنس لياليها، إنه نصيبنا أن نتحول إلى متسولين نتلصص من خلف الجدران علّنا نحظى بقليل من فرح دون أن تدمي أيادينا الممدودة أسلاكها الشائكة.. ثم طردنا بكل صدر رحب وأدب وابتسامة لطيفة.. نتحول فيها لتراتيل حزينة تعشش أحزانها في نفوسنا قبل الوصول إلى ليالي كابوس طويل.. من يدري؟**

إنها ميونيخ، وفيها سنسلم أنفسنا طواعية للشرطة ضمن برنامج مدروس وُضعت خطته على أنها المرحلة الأخيرة بعد رحلات الموت التي نجونا منها بأعجوبة.. استلمنا بطاقات اللجوء كالأطفال الهاربين من حصة درس الرياضيات إلى حصة درس الرسم لمعلم مجنون.

عامٌ ونصف قضيت منهم ثمانية أشهر وأنا طالبة مجتهدة في مدرسة تعليم اللغة الألمانية التي تشبه أبكمًا يتدرب على النطق، الصعوبة ذاتها والجمل الطويلة التي تحمل معنى لا يتناسب مع حروف كثيرة.. لكن بماذا يفيدني اعتراضي وقد صرت أُشبه.. ما... الزائدة على إن وأخواتها.

عامٌ ونصف في نظر الآخرين هو زمن بسيط وقصير لا يسمح لي بتقييم بلدٍ كألمانيا التي كانت ذات يوم امبراطورية عظيمة.. لكنهم لا يعلمون بأنني رفضت منذ مجيئي قانون الاندماج.. وأذكر حين منحونا بطاقات اللجوء قالوا بأنه لا مانع لديهم بأن أقيم مع ماهر (مساكنة) بعدما عرفوا أنه ليس زوجي، رفضت ذلك ومازلت مصرة على الرفض وقبلت بشروط قوانين البلد المقيمة فيها.. واحترمت كل قانون لا يتنافى مع أخلاقي وعاداتي وتقاليدي.. ولذلك كان من الصعب بقائي هنا، فقررت العودة إلى تركيا التي كنت أمقتها في البداية نتيجة تصويرها لنا على أنها بلد محتل.. وظالمة وسفاحة.. بينما تكشفت لي حقائق من خلال

ممارستي لقراءة التاريخ ومراقبتي لديموقراطية زائفة يمارسها الغرب من خلال أحداث يومية لم نلتفت إليها كشعوب شربت من كتب الوطنية التي لفقوها لنا لأهداف سياسية مستغلين إنسايتنا كشعوب لا تفكر إلا بعاطفتها.

لماذا غاب عن أذهان الكثيرين بأنه وعلى زمن العثمانيين لم تكن كلمة عربي واردة على الألسن؟ وبأن اليهودي والمسلم والمسيحي كانوا على وئام ولا مشاكل بينهم تذكر لولا تدخل الدول العظمى التي زرعت الحدود التي لم تكن موجودة على زمن العثمانيين.

جاؤوا بلورنس العرب وألبسوه جبة إسلامية هي ذاتها التي لبسها متطرفون لا يمتون للإسلام بصلةٍ، لماذا لم يعلمونا في المدارس بأن لورنس وأمير من أمراء مكة اتفقوا على ضرب المسلمين ببعضهم البعض وبأن أحداث عام ١٨٦٠ التي سموها بطوشة النصارى لم يكن للباشا العثماني علاقة بها كما زعموا.. وبأن تلك المجزرة كان سببها القضاء على تجارة الحرير التي أبدع فيها صنّاع مهرة مسيحيون لم يسبق لهم مثيل في العالم ليستحوذوا وحدهم على صناعتها؟ لماذا لم يشرحوا لنا بأن هناك مجاهدٌ هرب من بلاده نتيجة الحرب وأقام في دمشق واتخذناه بطلاً كبيراً.. هذا الذي أسموه بطلاً هو من قام بتهريب تجار الحرير بحجة حمايتهم لأنهم نصارى..! والحقيقة كانت خيانة منه كي يتم التخلص منهم ومن دودة القز التي أرقت العالم بفنونها، ورغم ذلك صدقناه ووضعنا صوره في واجهات بيوتنا.. وأثناء ذلك بدأوا بأول تقسيم في داخل البشر، البشر المنضوين تحت حماية العثمانيين كفئة واحدة دون تمييز.. لا تمزقهم طائفية بل تجمعهم هوية تحترم دياناتهم جميعا مسلم أو يهودي أو مسيحي.. ثم استبدلت إلى مصري وشامي وبغدادي وتركي ولاستمرار ذلك.. فهم يحتاجون إلى خونة وعملاء قادرين على حماية الحدود التي رسمتها بريطانيا وأنشأتها.. وأغدقتهم

بالمال والسلاح هي ومن ساعدها كي يقضوا على الامبراطورية العثمانية وبعدها على الحكم الملكي في مصر.. وجاءت من هنا وبفضل خونة تآمروا على شعوبهم ليخترعوا لهم كلمات مثل: عروبة، قومية، اشتراكية، بعث، شيوعية.

العروبة كلمة أسيء استخدامها تحت مفهوم القومية العربية حين كان العروبيون جالسون على موائد الغرب للتوقيع بالموافقة على نشر تلك الكلمة تحت طائلة المسؤولية وكي يمحوا عن أذهان العالم كلمة عصمللي.

عام ونصف وأنا أقرأ وأتابع وأراقب.. وهذا أمر لم يأت صدفة بل أتى حين لم أرهق نفسي بتذوق طعم حرية حلاوتها عبارة عن طعم رموه لنا في صنارة الاندماج كي نتلهى عن البحث فيما يخص تاريخنا.. وكي ينسى الجيل الجديد كل ما يمت لتاريخه وماضيه بصلة، وليكبروا في مناخ رسموه جيداً لهم بما يتناسب مع طقوسهم وديانتهم وتقاليدهم.

باتت مكشوفة لعبة الأمم بالقضاء على الهوية العربية والمسلمة واستبدالها بهوية غربية جديدة علّهم يقضون بها على الخوف المزروع في داخلهم من العرب المسلمين.. لا المتأسلمين الذين صنعوهم بأياديهم وأطلقوهم كي يكونوا ذريعة للتدخل في بلادنا بحجة الإرهاب والإسلاموفوبيا التي يخيفون بها شعوبهم الغبية.

**عام ونصف خاب ظني بالكثيرات من نساء بلدي اللواتي توهمن بأن الحرية هي رمي الزوج والأطفال خارج دائرة حياتهن المستقلة الجديدة،كن غبيات بامتياز حين اصطادتهن صنارة الاندماج وتناولنها بتلذذ لا يعرفن من خلاله مدى شدة تأثير سمها مع الوقت، سم بطيء سيقضي على أسر وعائلات لا تملك عقلاً يميز بين ما يريد المجتمع الجديد وبين التوازن في احترام قوانين بلد لجأوا إليه مع الحفاظ على عاداتهم وتمسكهم بجذورهم.**

**الشارع والزوج لا يتفقان.. وهذا مع الأسف حال أغلب اللاجئات اللواتي تركن أزواجهن ليلتحقن بركب حضارةٍ فقدن من خلالها التفريق بين التحرر والابتذال، وبين أن تكون حرة في داخلها دون فقدانها لفضيلتها.. وهكذا حريات عارية عن الصدق والتفاعل مع المجتمعات وتطوير الذات، لن تخلف سوى العبودية، عبودية الرغبات سواء أكانت رغبات جسدية أو مادية أو انتقامية من زوج وأهل زوج لم تقدر على الانتصار عليهم حين كانوا معاً قبل المجيء إلى هنا.. ومثل تلك النسوة لن يسعفهن التفكير بأنه كما أن لأوروبا مساوئ.. فهي تملك مقابل ذلك علوماً وثقافات وفنونًا وأدبا، والأبواب مشرعة لذلك.. كما أن أبواب المساكنة وأبواب الملاهي الليلية مفتوحة كذلك للراغبات والراغبين.**

خيبات تسكن داخلي حين أصادف أناساً يتفاخرون بأنهم أصبحوا شيوعيين يشتمون الدين الذي أوصلهم إلى هنا دون أن يستوعبوا بأن هناك من أساء للدين بسوء السمعة من أجل تحقيق أهدافه.. وهل يعتقدون بأن الشيوعية تبني الفضيلة؟ دون أن يعوا بأنها هي من تهدمها حين يعتبرون أن المجتمع هو كل شيء.. وأن العظماء أتوا من صلب ذلك المجتمع الذي أنشاته الطبيعة الخالقة لنفسها بنفسها.. كيف يكون ذلك.. إن لم يكن هناك قوى أعظم وأكبر قادرة على ترتيب الكون وتنظيمه بدقة لا متناهية ومدروسة بعناية.. وهذا لا تقدر الطبيعة على فعله لوحدها لأنها تحتاج إلى عامل منظم لها بقدرة هائلة وخارقة لا يقدر عليها أحد إلا الله.

وكيف باستطاعتهم الاعتراف أن المجتمع هو أساس كل شيءٍ من دون العودة إلى الركائز والقواعد الاساسية التي بُني عليها المجتمع لماذا لا يحاولون أن يراقبوا أن الشيوعية هي مهينة للفرد.. وكيف لا وهي قد دمجت جميع الناس بمرتبة واحدة المجرم مع العالم.. والفاشل

مـع الناجـح.. والتافـه مـع العاقـل؟

«قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون».

إنـه الخطـأ بعينـه حيـن نعتقـد بـأن النـاس متسـاوون.. والتسـاوي بينهـم يعنـي الظلم للجميع، والظلم يهـدم كل القوانين، هـل بمقدورنا أن نسـاوي مثلاً بيـن نيرون.. وبيـن رجـل يسـعى لبناء وطـن؟

يتغنون بستالين الذي أجابت أمه عن سؤال لتحكي فيه عن ابنها.. قائلة:

هجـم مرة علـى إحـدى العربات.. وقتـل سـائقها.. وسـرق كل مـا كـان فـي العربـة مـن مـال، لا أدري لـم فعـل ذلـك.. مـع أنـه كان هـادئ الطبـاع فـي البيـت!!

كيـف للشـيوعي اتخـاذ ماركـس قـدوة لـه.. وقـد أُصيـب بالزهـري مرتيـن وبـدل ديانتـه مـن اليهوديـة إلـى المسـيحية ثـم أنكـر الديانتيـن، انتحـرت بناتـه وزوجته حين تأخر صديق العائلة بإرسال المال لهن وقد كان لصاً ومحتالا... كيـف؟؟؟!!

**هكـذا نحـن نهـرب دائمًـا للخلـف دون أن نعطـي مسـاحة تفكيـر وتعقـل نُلقـي مـن خلالهـا أسـئلة نحتـاج لأجوبتهـا، وكـي لا نكلـف أنفسـنا عنـاء القـراءة والمعرفـة ترانـا نهـرب ممـا نخـاف منـه ونلجـأ بمـن نتوهـم أنهـم إنقـاذ لنـا بينمـا هـم درك أسـفل نهبـط إليـه بكامـل وعينـا غيـر مدركيـن للخطـورات التـي سـتصادفنا، للأسـف أصبـح جـزء مـن أبنـاء بلـدي يعيشـون القحـط النفسـي فـي أوروبـا.. ويعيشـون القحـط الروحـي رافضيـن دواءً اسـمه القـراءة التـي أمرهـم بهـا القـرآن ملقيـن عليـه فـي الوقـت ذاتـه كل التهـم.**

**يـا لخوفـي حيـن تضمحـل تركيبتهـم الاجتماعيـة فيصبحـوا محكوميـن بفوضـى عقولهـم، عقـول فارغـة مـن أي معنـى.. عقـول يسـكنها**

**عقل عروبي.. وعقل غربي.. وعقل بعثي.. وعقل ملحد بكل شيء والخامس.. ما زال البحث جارٍ عنه.**

إنها المصيبة حين تنفرط في أوروبا عقد الحياة الاجتماعية.. وينفرد كلٌ بنفسه وبمصالحه ضاربا عرض الحائط وطنه وجذوره وعاداته وتقاليده ودينه، أوروبا رغم محاسنها يسكنها شيطان يكمن في تفاصيلها والتفاصيل التي لا يراها معظمهم.. غالبا هي فقدان هويتهم وشخصيتهم الاجتماعية.

العالم يتربص بنا.. ونحن متربصون بأنفسنا. وأنا أصبحت عاجزة عن التأقلم في بلاد يدعي الديموقراطية وهو ليس كذلك، فأدنى شروطها هي عدم السماح لنفسها بالتدخل في شؤون بلد آخر وقوانينه وبرلمانه ودستوره!! أية ديموقراطية تلك التي تسمح بإيواء مجرمين تعلم تماماً بأنهم مطلوبون لبلدهم لاقترافهم جرائم لا يمكن السكوت عنها؟ لماذا تقبل دولة تدعي الديموقراطية إجبار الاخرين على التقيد بشروطها ضاربة عرض الحائط ما تربّوا وكبروا عليه بشرط عدم المساس بقوانينها بل واحترامها دون أن يسلخوهم عن ذاتهم؟ ما الغاية من ذلك سوى السماح لهم بالغدر في أوطانهم أكثر؟ وبأن نكون أقلية نجهل إسلامنا وديننا لنخدمهم في نهاية الأمر، لماذا هذه الحرب على الإسلام؟ هم في الحقيقة يريدون القضاء على الإسلام فكرًا وعقلاً.. ومن هنا انبثقت قوته، فالإسلام قضَّ مضاجعهم مئات السنين بالفتوحات، والفتوحات لم تأت فقط بالسيف.. بل بالفكر والسيف كان آخر الاحتمالات.. الغرب لا يجهل الإسلام أبداً ولذلك هم خائفون، فقد قرأوه ودرسوه جيدا على حقيقته ويعلمون علم اليقين أن انتشاره يعني القضاء على أوروبا، لذلك كان لا بد من القضاء عليه وبأيدي أبنائه المسلمين أنفسهم.. واخترعوا الإسلاموفوبيا واخترعوا كلمة إرهاب التي لم تظهر إلا أيام الحرب على أفغانستان.

في بلدي تحول الدين إلى رجلٍ منافق.. لا يطعم إلا صاحبه.

كنت أعلم أن الثورة ستُجهَض منذ أول يومٍ قامت به.. ولذلك نأيت بنفسي عن مجريات الأحداث.. وكنت واثقة بأن النظام الفاسد لن يرحل إلا بنسفه.. ونسفه تستدعيه أخلاق تجابه بصدقها وفكرها.. لا بتخاذلها وضعفها وطمعها.. لذا كان يسيرًا على النظام شراء هؤلاء بما يمكن شراؤه بالمال.. وأول ما يجب عمله هو قتل خيرة الشباب الغاضب والثائر والصادق بحبه لوطنه.. لتسهل المهمات الأخرى التي ستكون تحصيل حاصل بالنسبة لهم.

**سقط الكثير من الشهداء.. ومن تجاسر واقتحم مواجهًا الموت أخذه الموت.. ومن اختبأ وتوارى بقي وما زال يعيش معنا وبيننا واسمه صعلوك النظام، سقط الكثيرون وتخبطت دماء أبناء الشعب الواحد وتنافرت من بعضها وتخثرت أحلام داخل شرايين وطن أصيب بالدهشة والصدمة.. وأرجو ألا ينتهي به الأمر إلى السكتة.. وجاء بعد تلك المرحلة أشكال يمثلون أدوار البطولة وصدقهم الناس وصفقوا لهم.. دون أن يعوا بأنهم أشكال فارغة من المضمون كغمد دون سيف.. والنظام ينجح ويتقدم.. والناس تصرخ: حرية! وكنت أضحك أكثر وأبكي أقل.. وجاءت مرحلة كشف المستور عندما توضح للعاقلين بأنه بات من الصعب السيطرة على الأخلاق.. وأصبح ضبطها أصعب من القتال في الحرب وكان هو المطلوب.. فالنصر هو بتفريغ الأخلاق الاجتماعية مما يسمونه الحالة الصحية.. والنظام ينجح ويتقدم.. والناس تصرخ: حرية.. وأنا أضحك أقل وأبكي أكثر.. وتكلمت.. ولم يلتفت إلي أحد.. وفححت كأفعى ناقمة تتمنى لقف غبائهم ورميهم خارج حدود صفات البشرية.. أيّ حريةٍ تلك وقد رضي من رضي من أصحاب الحريات بامتهان كرامته وبيعها بثمنٍ بخس؟ أيّ حرية تلك ومن توهمتوهم أبطالاً قاموا بإماتة كبرياء**

**الوطنية وشيعوها إلى مثواها الأخير؟ لقد تصعلكوا للغريب وباعوا الوطن وكمموا فم صبيةٍ اسمها دمشق كي لا يسمع صراخها أحد.. وحتى لا يتهمهم أحد بالدياثة وهي تُغتصب أمامهم.**

**قاموا بتشريح جثة الوطن على طاولات المفاوضات.. ووزعوا أقسامه على موائد خمس نجوم.. ونهش أدعياء الوطنية من جثته.. ونُقل للناس خبر سلامته من الشائعات المتداولة قادة فصائل يؤكدون لهم أن الوطن بخير وما هي إلا مسألة وقت وسينتهي كل شيء.. والناس صدقتْ ذلك فاتحة فمها بالدعاء والنظام وزبانيته يتثائبون سخرية وضجرًا من غباء الناس التي لا تكف عن السؤال إلى متى؟ ونجحوا بخبثهم حين استخدموا طريقة الحل والعقد لإلهاء شعبهم بما سيصدر من قرارات فنحن قوم ناجحون جدًا بترتيب الجمل.. أما الكلمات فلا يجارينا فيها أحد.. وماهرون جدًا برسم مستقبل مشرق يتخيل المرء من خلاله بأن الجنة الموعودة المسماة وطن سوف يعود سليما معافى حتى نهاية العام المقبل.. وتمضي السنون وتجيء الحقب والكلام يُعاد ويُكرر بصيغةٍ تتناسب مع كل وقت وزمان.. أما الشعوب فتتوارث البلاهة نفسها مستبدلين أجهزة تحكم التلفاز بأجهزة متطورة تسرع بانتقال المحطات بشكل يتناسب مع انفعالاتهم.. ومنهم من أحضر شاشات تنقل لهم عدة نشرات أخبار ومؤتمرات في وقت واحد وباللغة التي يختارونها.**

تخدير .. تخدير.. تخدير !! ونحن مستسلمون لأفيون الكلمات والخبر العاجل.. متوهمين أن يأتينا خبرٌ ربما لن يجيئ إلا بعد مئتي عام ربما.

أي وطنٍ أنت؟ نعم أنا غاضبة منك، حملتك في حقائبي وكسرَت ظهري همومُ أوجاعك، كلما حاولت تجاهلك ظهرت أمامي كمقصلة أمرت بقطع رأس فرحي وضحكاتي، أي وطن أنت؟؟ أسجلك زوجاً شرعياً

وتصر على أني لا أصلح إلا امرأة زنا!! أي وطن أنت، أحلم بإنجاب أطفال منه بالحلال وتُصر على إنجاب اللقطاء؟

جذوري لن تغادر أرضها.. وأنا شجرة امتدت أغصانها في المطارات ومحطات القطارات، شجرة يجري نسغها في شرايين طولها بطول قارات الخوف، نسغٌ يجري مسرعًا لينقذني من بحار الموت بأعجوبة لينبتَ أملاً عند كل حدود لجأت إليها وينبت في حدود أخرى نزفًا وقهرًا وجوعًا، واجهت الأعاصير والرياح.. والحر والصقيع.. وما زالت ثمار الشوق تنتظر نضوجها وتنادي لأحباء رحلوا وتلوح مودعة لمصطفى في بحرٍ لم يرحم طفولته وغدر به كما غدر بنا الجميع.

**ماذا في وسع شجرة مثلي أن تفعل بملاحقة فؤوس حطابين يأتون إليها لصنع التوابيت؟ ماذا تفعل شجرة مثلي غير الامتثال لأوامر قرار طبيعتها التي لن تسمح لها إلا بالموت واقفة؟**

**سأرحل عن هنا.. وسأعود إلى الطرقات نفسها.. وغاباتها.. وأنهارها وبحارها.. لن أبقى هنا امرأة مرقعة كثوب فقير، امرأة مرقعة بكذب من هنا وادعاءات من هناك، ديموقراطية مزعومة من هنا.. وخبث غايته القضاء على عاداتي وتقاليدي من هناك.**

**لن أبقى هنا، سأعود إلى تركيا التي كان العالم يضبط توقيت ذعره بقرارات سلاطينها، سأعود إلى تركيا.. فهناك تنبعث رائحة أجدادٍ فتحوا العالم ونشروا العدل واحترموا الفكر، هناك سأتعلم كيف يعمل ذكي لمستقبله.. وسأشاهد أبطالاً صنعوا تاريخًا. وسأقرأ لعظماءٍ كتبوا الشعر وسأدور مع المتصوفين الذين علموا الأجيال القناعة والصبر.**

٢٤

# الفصل الرابع والعشرون

حين يموت
الأبطال.. يبدأ دور
الحكواتي..

ميزانُ العدل اضطرب.. واضطرابه يعني أن القاضي خلع ثوب العدالة واستبدله ببزةٍ عسكرية تحاكم لمجرد الشك.

أُعدمتْ... هكذا بكل بساطة، ساقوها كأضحية عيد لتُذبح وتُسلخ وتُؤكل ليرموا عظامها بعد ذلك لكلابهم، أُعدمت وانتهى الأمر.. ونحن نُعدم ألف مرةٍ كل يوم ننتظر موتنا الأخير الذي لا يأتي في سجنٍ قضبانه باتت تشفق علينا أكثر من شفقتنا نحن على أنفسنا.

غداً هو موعد إطلاق سراح مهجة.. غداً ستخرج لسجن كبير آخر هو وطنها المسكون بالشياطين الذين خسرت بسببهم عامًا دراسيًا وفُصلت من الجامعة، خسرت مهجة مستقبلها وارتقى الضابط الذي زج بها في السجن إلى رتبة أعلى، غدًا ستخرج بعدما كلف ذلك عائلتها دفع مبالغ باهظة ودفعوا كذلك جهداً كبيراً بالانتظار والترقب والذعر.. فالثقة بين الناس وبين أجهزة الحكومة بكافة أشكالها تكاد تكون معدومة.. والمحامي واحد منهم.. ولا يمكنك فصل معظم المحامين والقضاة عن أجهزة الأمن.

المحامـي بنظـر معظـم النـاس رجـل وظيفتـه الرئيسـية تحريـك لسـانه واختيار الكلمات المنمقة والمناسبة، والبارع منهم هو من يملك القدرة على الإقناع.. أما الباقون فطريقة إقناعهم تكون عن طريق المحسوبيات والرشـاوي، رشـاوي يسـمونها هديـة.. فالقاضـي لـن يسـمح بكلمـة رشـوة لاعتبارهـا حرامـاً!!! والضابـط يعتبرهـا إهانـة لمركـزه.. والشـرطي يعتبرهـا لطافـة من الآخرين.. والآخـرون يعلمـون جيدًا بأن الشـرطي سـينتقم منهـم بكتابـة محضـر ضبـط علـى مزاجـه حيـن لا يكونـون لطفـاء معـه!!

إنهـا الليلـة الأخيرة فـي السـجن.. وقـد أقامـت لهـا السـجينات حفل وداع رقصـت فيـه السـجينات وغنيـن وتعالـت الزغاريـد حيـن حضـور المـلازم ليـرى مـا سـبب هـذه الأصـوات، إلا أنـه كان لطيفـاً بعـض الشـيء وسـمح لهـن بالاحتفـال قائـلاً لمهجـة:

- مبروك...

كان واقفًا يراقبهـن وهـن يحتفلـن بـه هـو أيضـاً رغـم كل شـيء.. وكأن فـي هـذا المـكان يتصالـح السـجين والسـجان.. فكلاهمـا مقتنـع بأنهـم جميعـاً تحكمهـم القضبـان ذاتهـا.. نظراتـه الشـاردة تقـول: اعذرونـي فكـم كان بـودي إخراجكـن جميعـاً، لسـتن وحدكـن المسـجونات.. بـل نحـن أيضـاً كذلـك، صدقونـي ومعـي الكثيـرون لسـنا براضيـن عمـا يفعلونـه مـع الأغلبيـة.. لكننـا وُضعنـا فـي الاتجـاه المقابـل وأصبحنـا هدفـاً للثـورة.. لكـن الحاكـم ومـا يفعلـه بالنسـبة لنـا لـم يعـد شـيئا مقبـولا، خسـاراتنا مشـتركة.. لا تصدقـن بأننـا انتصرنـا، نحـن مهزومـون.. مهزومـون حتـى القـاع، خسـرنا البلـد وخسـرتنا.

قبل أن يمضي وجه كلامه لمهجة وللسجينات:

- مبروك مرة أخرى.. وعقبال الجميع.

انتهـى الحفـل.. وامتـلأ فخـذي مهجـة بكتابـة أرقـام عائـلات سـجينات

جدد لتعلمهم بوجود بناتهن في السجن.. وتتكرر القصة ذاتها بين محام مستفيد وقاض عار من ثوب العدالة.. وبين عائلات لا تستطيع دفع مبالغ باهظة وبين سجينات يحلمن بالخلاص.

ـ ما الذي تنوين عمله بعد خروجك من السجن.. وماذا ستفعلين بعد طردك من الجامعة؟

ـ لا أدري ولا أستطيع التكهن.. ولا الحلم.

السهولة التي كانت تسكنني قد تعقدت وخيوطها تشربكت.. وأخاف أن أبقى متألمة دون طائل.

هكذا كانت مهجة تحدث نفسها به قبل أن تغفو.

تتسلل مهجة بحذر باتجاه صوت صراخ المرأة المجهولة التي تصيح ألماً من سوط الجلاد المنهال على جسدها دونما رحمة.

حوار نادر تسمعه يدور بين قاتل ومقتول.. أو إن صح التعبير بين ضحيتين تحولت إحداهما إلى جلاد بفعل مناخ اجتماعي أو سياسي.

تتلصص مهجة بفزع وذعر وهي تشاهده مقتربًا من الضحية مطبقًا فمه وصوت صرير أسنانه.. مؤذنا بعذابات أخرى ستتلقاها بعد أن ينهي ما يريد قوله، صوته يملؤه الغضب والحنق والحقد، صوته وهو يحدثها أشبه بفحيح أفعى تتلوى شهوة لمزيد من الدم، فحيحه لم يصادف أن سمعته السجينات أبدًا، هن لم يسمعن إلا صوت صراخ امرأة ستعرف مهجة بعد قليل أن سببه هو موت طفلها ابن الثلاث سنوات هنا في السجن نتيجة إهمال طبي.

عينا الجلاد تشتدان احمراراً كلما تكوّرت المرأة وتكوّمت على نفسها كجنين، تفعل الشيء ذاته في كل مرة تحاول فيها استفزازه بالشتم

والبصاق عليه.. وشتم مثله الأعلى.. علَّه يقتلها لترتاح من موتها اليومي، لكن أوامر موتها لم تأت بعد.

ينهال بالسوط على جسدها وصوت أنفاسه يملأ غرفة التعذيب كأنفاس ثور في حظيرة لم يُرَوَّض بعد.. وبين فينة وأخرى كانت تراه يجثي على ركبتيه أمامها مستبدلاً فحيحه بسعار.. والمرأة يزداد ذعرها كلما زاد بسعاره.. تنكمش على نفسها كالحلزون بعد سكب عصير الحامض عليه حتى أنك لا تكاد ترى سوى عينيها المحملقتين فيه وكأن وجهها تحول لكوعي يديها.

حزنك على طفلك الذي سمح لكِ بالهجوم على العميد وطرحه أرضاً وإمساكك برقبته محاولة خنقه،، لا يقل حزنًا عن حزني و عن فجيعتي وعن وجعي وعن قهري وحقدي على الجميع، هل تعلمين من أنا؟؟؟

أنا طفل تم اختطافه من بين مجموعة من الأطفال من نواح متفرقة من البلد، انتزعونا من أحضان أمهاتنا وبيئاتنا وأصدقائنا، انتزعونا من أرحام بيوتنا ومدارسنا وأحلامنا وأحضرونا إلى دورٍ للأيتام بعد أن تم فصلنا عن كل محيطٍ يمكن لنا من خلاله التواصل مع آخرين، وفي أماكن معزولة يتم اختيار كل منا بعد عدة سنوات.. كل بحسب شخصيته ودرجة ذكائه ليتم بعدها فرز كل طفلٍ إلى المكان الذي يتناسب مع قدراته الذهنية والجسدية.. وأنا كنت ممن تم فرزي لمكانٍ يشبه الحظيرة.. لكنها حظيرة فيها من متع الحياة ما تتمنين، وماذا يتمنى الطفل حين يقومون باستئصال فرحه وأمنياته ببيتٍ وأم وأخوة وأحلام.. ما الذي يتمناه طفل أكثر من فرحه بالعيد.. بقبلات عائلة وعيدية وأراجيح؟ عيد لم نعرفه ولم نتعرف على مآذنه حين تصدح بما يسمونه تكبيرات، عيد لم نعرف به الثياب الجديدة ونلهو مثل أطفال غيرنا بحركاتهم وكأنهم دمى جيء بها لأجل أن نفرح، ما الذي يتمناه طفل أكثر من قطعة حلوى وابتسامة

حانية.. ودفتر يرسم عليه كوخ أحلامه وبستان أمنيات؟ ما الذي يحلم به الطفل أكثر من تهاني أمه وأبيه وهو يركض مسرعًا ملوحًا لهما بالجلاء المدرسي لتنهال عليه التبريكات والقبلات منهما؟ ما الذي يحتاجه الطفل بعقله الصغير سوى الحماس والتشجيع عندما يخطئ ليبدأ من جديد؟

هذا كله لم أعشه.. فأنا وأمثالي كان ممنوعاً علينا العيش كأطفالٍ، بل كانت مهمة الكبار إحراق بيادر طفولتنا ليتم علفنا كالأغنام في مزرعتهم الكبيرة.. ونقلنا من حريقٍ لحريقٍ أكبر.. اسمه التدريب، هل تعلمين التدريب من أجل ماذا؟

يصر على أسنانه من جديد.. ويلوي رقبته التي تنبض عروقها مع كل جملة يقولها.. وبعينين نصف مغمضتين.. كأنه وحش ببداية انهياره بعد إعطائه إبرة مخدر.

من أجل لحظةٍ كهذه، من أجل تعذيبك أنت وأمثالك، من أجل إحراق مدنٍ بأكملها إن حاولت مرة الانتفاض بوجه سيدي وولي نعمتي.. وأنت ارتكبت بدل الخطأ أخطاءً لا أغفرها.. ولا يغفرها وليّ نعمتي، خطأ الخروج عن طاعته وخطأ حين حاولت قتل أحد أتباعه.

نهض كالثور وبدأ ينهال عليها بالسوط وهو يزبد ويرغي بهمهماتٍ غير مفهومة.. ثم ترك السوط من يده وأمسك بها بيديه الضخمتين وبدأ يضربها بقسوة وبركلها بقدميه.. إلى أن دخل شخصان وأمسكا به وآخر ألبس رأسه بكيس قماش لونه أسود حين رأوه يحاول خنقها وأخرجوه من الغرفة.

اقتربت مهجة بحذر من المرأة التي ستعرف بعد قليل بأن اسمها بارعة.

كانت عبارة عن كتلةٍ مغسولة.. بالدم ترتجف كقلب أخرجوه للتو من

جسد صاحبه ولما يمت بعد.

تقترب منها مهجة بحذرٍ.. تلكزها بأصبعها لتتأكد بأنها حية تحملق المرأة بوجه مهجة مندهشة

- كيف دخلت إلى هنا؟

جئت للاطمئنان عليك فأنا منذ اعتقالي ولديَّ الفضول لأعلم سبب صراخك كل أسبوع.. وقد عرفت من الجلاد قصتك أثناء تلصصي عليكما.

وبماذا سيفيدك فضولك حين تعجزين عن المساعدة وموعد خروجك غدًا؟

تغاضت المرأة عن ارتباك مهجة بعدم الجواب لتقول لها:

**- حين تخرجين من هذا السجن احزمي أمتعتك وغادري الوطن هذا الوطن كذبة لا مكان فيه للصادقين، غادريه بأقصى سرعة فالحرائق ستلتهمك بينما أنت تبحثين في أسواقه عن ثياب وستغرقين بطوفانه بينما أنت تبحثين في مكتباته عن كتاب وستؤذيك الشياطين وأنت في طريقك إلى المسجد أو الكنيسة وستلاحقك التقارير بينما أنت ذاهبة لمشاهدة حضارة وتاريخ بلدك في المتاحف وستقتلين عند رفع شارة نصرٍ لأنها بمثابة مقص يفزعون منه، الوطن كذبة كبيرة لن يصدقك فيها أحد كما صدقت أنت قصص السجينات.**

لا تندهشي من كلامي وافتحي أذنيك جيدًا كما فتحت عينيك على وسعهما.

**نزيلات هذا السجن لسن جميعهن بطلاتٍ سُجِنَّ لأجل الوطن فالمتهمات بالانتفاضة الشعبية والخروج عن نص الوطن قد تمت**

**تصفيتهن لأنهن يشكلن خطرًا حين خروجهن ولن يمنعهن لا تعذيب ولا تهديد.. وسيبقين مناهضات للظلم ولرحيل الحاكم.. أو..... لن تجدينهن هنا.. فأولئك النسوة محجور عليهن بمكانٍ لا يعرفه أحد.**

سأبدأ بالسجينة عطور الشاردة دائمًا والمنزوية والتي ترفض الحديث مع الأخريات، أو تظنين بأنها انطوت بأمرٍ منها؟؟ لا يا صغيرتي.. إنها الأوامر كذلك، ألم تلاحظي بأنها تتعرض للتحقيق أكثر من كل السجينات كل أسبوع؟ وبأنها تغادر السجن لأسابيع أحيانًا بحجة أن الفرع قد طلبها؟

أما التحقيق الأسبوعي معها فهو بمثابة التنفيس عنها ومحادثة خطيبها الامريكي، لا تشهقي هكذا.. نعم فهذا أمرٌ لا يعلم به أحد سوى عددٌ قليل جدًا من الضباط.. وأما بالنسبة للتحقيق معها بالفرع الذي يطول لأيام وأحياناً أسابيع فهي مهمة موكلة إليها خارج البلد لا يعلم عن ماهيتها أحد.. ربما لزيارة حبيبها الأمريكي من يدري!!!

السجينة يارا تهمتها ليست الإرهاب، يارا التي خرجت من السجن قبل عدة أشهر والتي تدعي بأنها حقوقية، ما هي إلا فتاة عادية لديها عشاق كثيرون، قاموا باعتقال شقيقها الذي هرب من الخدمة العسكرية وليس صحيحًا أنه انشق كما فعل شبابٌ كثيرون رفضوا بالفعل قتل أبناء وطنهم.. والتهمة الموجهة إليها حقيقة هي الدعارة وها هي الآن تعمل ناشطة حقوقية بعدما استهوتها اللعبة وتبرع أحد عشاقها المقيم في الخارج بمساعدتها ومد يد العون لها وهو الآخر مشكوك في روحه الوطنية.

السجينة سهير تهمتها ليست الإرهاب كذلك.. بل التستر على زوجها طبيب التوليد الذي كان يقوم بتخدير النساء أو الفتيات الحوامل واغتصابهن قبل عمليات الإجهاض وتصويرهن.

الشيخة أم خالد تهمتها الحقيقية هي التجرؤ على زعيمة تنظيم ( إن صح التعبير ) مشهور في البلد والمحمي من أجهزة المخابرات التي صنعتهم منذ أكثر من أربعين سنة، أم خالد من المقربات لتلك الزعيمة والتقرب منها ليس بالأمر السهل.. فهي لا تلقي دروسها الدينينة إلا لفئة الأغنياء ونساء التجار ونساء رجال الأعمال وسيدات الأعمال وصاحبات مشاريع صناعية وتجارية في البلد.. والاجتماع بها من أجل قضية ما أمر يحتاج للموافقة منها بعد إرسالها كتابًا للمخابرات وأخذ الموافقة أو رفضها، لم يكن أبدًا سؤال أم خالد نابعاً عن قوة شخصية أو ثقافة أو ذكاء لكن سؤالها جاء بمثابة صدمةٍ للزعيمة إذ قالت لها بعد تقبيل يدها والثناء عليها وخفض رأسها وعينيها أمامها.

سيدتنا ومولاتنا أطال الله بعمرك ودمت ظلاً نستظل به في الدنيا والآخرة وأعاننا الله على مرضاتك وخدمتك وخدمة هذا الدين آمين.

هل صحيح ما يتداوله بعض الرعاع من العامة بخصوص هروب بعض فتيات الجامعات اللاتي يقوم معهدكم الموقر بالاهتمام بهن عندما اكتشفن أمورًا لا علاقة لها بالدين؟

وقبل أن تكمل جملتها اعتذرت ( العرَّابة ) منها وهي تستغفر ربها وبابتسامتها المعهودة وصوتها الدافئ الرخيم اتصلت هاتفياً بأصحاب الشأن الذين أحضروها إلى هنا.

مثل هذا الأمر سَهَّل لبعض السجينات القديمات كسب احترام من لا يعرفن شيئاً عن جرائمهن المغلفة بـ (معتقلاتٍ سياسيات).. والمصيبة أن معظم أولئك النسوة قد صدقن ذلك واستهوتهن تلك الكذبة.

غادري البلد يا صغيرتي فمستقبلك فيها معتقل سلفاً، غادري ولا تنسي إتمام دراستك وتخصصك في القضايا الاجتماعية.

ابتعدي عن التابوهات المقدسة، الدين والسياسة.. لأن لها أصحاب شأن يهتمون بهم.. واللعب مع أصحابها لن يولد سوى المخاطر فالدين أصبح تابعاً للسياسة.. والأشراف ممن يحاولون الحفاظ عليه إما مغيبون أو معتقلون بتهمة الإرهاب والخروج عن طاعة ولي الأمر.

اهتمي بما سيؤهلك لتكوني السباقة ببناء مجتمع خرج أبناؤه من وطنهم قسرًا.. وربما لن تلحق الأجيال بآبائهم وأمهاتهم ولن يكونوا ملكًا لهم بل ملكًا لمجتمعاتٍ غريبة ولدوا فوق أراضيها دون اختيار منهم، اعملي بتخصصك الاجتماعي لمساعدة أبناء وطنك بالحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم، أعلم بأن مهمتك صعبة لكنها لن تكون كذلك حين تبحثين عنهم وتتكاتفون لصنع وطن اجتماعي داخل وطن غريب لن يعود غريباً بوجودكم معًا.

**اخرجي من هذا الوطن لكن إيّاك إخراجه من داخلك، لا تكوني عاقة له كما فعل الكثيرون.. ساعديه وأنقذيه فقد عانى الكثير الكثير إلى أن أنهكوه، كان هذا الوطن مرتعًا جميلاً للفراشات، بساتينه ومياهه تسرح وتمرح كطفلةٍ مدللة حتى داخل البيوت دون أن يوقفها أحد، كانت الناس عضوًا واحدًا اسمه القلب، قلبٌ ينبض بالمحبة والإيثار واللهفة والمروءة، وطن جميل تجملت شبابيكه بأصص الزريعة والستائر الملونة والنظيفة المنبعثة منها رائحة صابون الغار، شبابيك قالت لبنائيها لا تحرمني من الحديث مع جيراني، قس جيدًا بميزانك ولا تبعدنا قيد أنملة فلحديث النوافذ والأبواب أسرار لا يعرفها إلا أهالي دمشق.**

**حاراتها عمرها أكثر من سبعة آلاف عام، تحكي تاريخ انتصارات وهزائم وانكسارات، أحرقوا مكتباتها.. أحرقوا أسواقها.. قتلوا علماءها وشعراءها ومؤرخيها،لكنها كطائر الفينيق الذي يخرج**

مـن رمـاده لينبـت مـن تحـت جناحـه ألـف عالـم وشـاعر ومـؤرخ وكاتـب وفيلسـوف.

كان بـردى شـريان حيـاة المدينـة الجميلـة، لديـه سـبعة أبنـاء موزعـون كلٌ فـي مملكتـه، أرسـلهم بـردى العظيـم رسـلاً تسـاعد البشـر والحجـر والشـجر، رسـلٌ تلهـو وتسـتريح مـع النـاس كل يـوم جمعـة عنـد النيربيـن والغوطـة وبـرزة وعيـن منيـن وبسـاتين الجبـة حيـث كان النـاس يخرجـون للسـيران بعـد عنـاء عمـل طيلـة أيـام الاسـبوع، فـي دمـر والهامـة كان يجـري إليهـم حامـلاً معـه الأسـماك للاسـتمتاع بوجباتهـم مجانـاً وحيـن يشـم رائحـة الشـواء ترينـه يسـتمر بجريانـه مودعـاً ومطمئنـاً بـأن مـن كانـوا هنـا قـد شـبعوا.

دمشـق التـي قتـل فيهـا قابيـل أخـاه هابيـل فـي مغـارة الـدم بقاسـيون فيهـا مغـارة الجـوع التـي مـات فيهـا أربعـون بطـلاً كانـوا فاريـن مـن القتـل وآثـر كل منهـم صاحبـه علـى نفسـه برغيـف خبـزٍ لـم يملكـوا غيـره وكل واحـدٍ منهـم يعطيـه للآخـر حتـى مـات الجميـع مـن الجـوع وبقـي الرغيـف شـاهداً علـى وفائهـم وحبهـم لبعضهـم البعـض، دمشـق التـي قصدتهـا القوافـل للراحـة والتبضـع فكانـت إحـدى محطـات طريـق الحريـر وموكـب الحـج الشـامي.

دمشـق بلـد الأموييـن وعشـق الصحابـة والتابعيـن ومـن آل البيـت وحبيبـة خلفـاء بنـي أميـة والسـلاطين والملـوك والأمـراء الأيوبييـن والمماليـك والسـلاجقة والأتابكـة وولاة عثمانيـون وفقهـاء وشـعراء ومؤلفـون ومؤرخـون رفضـوا جميعـاً إلا أن تكـون دمشـق دار دنياهـم الأخيـرة.

دمشـق التـي كان ياسـمينها ينشـر عبقـه فـي المدينـة كلهـا وكأنهـا تسـتحم بعطـره كل صبـاح وكل عصـر وكل مسـاء.

دمشـق التـي كان يـأكل فقراؤهـا مـن الأغنيـاء الذيـن كانـوا يضعـون أمـام بيوتهـم صناديـق الفاكهـة المقطوفـة مـن بسـاتينهم ليأخذهـا المحتاجـون دون فضـح أمرهـم كصدقـةٍ عـن زرعهـم وحرثهـم.

دمشق التي كانت فيها الجارة تصيح على جارتها من نافذةٍ مطلة علـى أرض الديـار لتتنـاول الأخـرى الفاكهـة المقطوفـة مـن أشـجار البيـت العربـي الكبيـر مـن البرتقـال أوالتيـن اوالعنـب أو الأكيدينيـا أو اليوسـف أفنـدي أو الليمـون أو المشـمش لتجـري الجـارة مسـرعة تتلقف ممسـكة ما أرسـلته جارتها مـن ساقية المطبخ عبر السـاقية المتبختـرة بيـن البيـوت.

دمشـق التـي تعمـدت بمـاء الحـب بيـن جميـع دياناتهـا مـن مسـلمين ومسـيحيين ويهـود.

دمشـق التـي أُنشـئ فيهـا أول وقـف للقطـط الشـاردة وكان الوقـف فـي القيمريـة، القيمريـة ذاتهـا التـي كانـت فيهـا أهـم نسـج للحريـر فـي العالـم وكان مهرتهـا مـن المسـيحيين الذيـن فاقـت صناعتهـم حتـى الصيـن.. وبالقـرب منهـا كانـت حـارة اليهـود التـي كان سـكانها ينـادون جيرانهـم المسـلمين ليشـعلوا لهـم نـار الموقـد أيـام السـبت.

دمشـق هـي الخجـا الـذي حفـظ طلابـه الصغـار ألفيـة ابـن مالـك والقـرآن الكريـم كـي يسـتقيم لسـانهم وقلبهـم.

**أمـا لحمامـات السـوق فحكايـات أخـرى لـن تنتهـي بمجـرد سـطور.. وأما لأسـواقها وخاناتها فهنالك عوالم من القصص والأسرار منها خـان الدكـة الـذي يشـبه بمجونـه مـا يحصـل الآن.**

اسـتبدلوا الغوطـة بالإسـمنت.. وقطعـوا شـرايين بـردى الـذي نـزف ومـازال ينـزف، قصـر خلفـاء بنـي أميـة بعـد حـارة القباقبيـة حولـوه

**لمصبغة.. ومنزل خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز حولوه لمدرسة محدثة للبنات وأخفوا تاريخ المسكية وغطوا عواميدها ببضائع التجار.**

**تيمورلنك لم يخرج من دمشق فقد ترك فيها أحفاده المتماسكين، أحفاده الذين أكملوا ما توقف جدهم عنده حين قاموا بتهجير أهالي الجزيرة إلى أطراف المدن نتيجة الجفاف مع أنها كانت الغلة الاستراتيجية الأولى للبلد من حيث إنتاج القمح والقطن والبترول، أطراف المدن التي هاجر إليها أهالي الجزيرة سُميت بحزام البؤس نتيجة عدم توفر الإمكانيات لعجز الدولة عن ذلك، هذا المناخ خلق بؤر فقر أدت للبطالة وانتشرت الدعارة نتيجة لغياب القانون وتسيد الفساد.**

والأمر المهم الآخر يا ابنتي هو انغلاق المجتمع على نفسه بشكلٍ بطيء.. مما أدى لانتشار الأمية والانغلاق سببه الاختلاط في المدارس ورفع سن التعليم الإلزامي الذي لم يكن موجودًا من قبل والذي رفضه المجتمع خاصة في غياب الرقابة الحثيثة من وزارة التربية.. والخطورة الأكبر تسرب عدد كبير من الطلاب والطالبات من المدارس وهذا يسهل عملية انخراط هؤلاء بالشذوذ والمخدرات وخاصة في عدم وجود بنى تحتية تهتم بهم.. فالتجارة محتكرة على فئةٍ معينة من الأشخاص والتي تمتد تجارة عائلاتهم لأكثر من قرن من الزمن وهذا العالم لا يسمح لأحدٍ بالدخول إليه إن لم يكن من أصحاب رؤوس الأموال الضخمة، ومثل هذا الأمر لا يملكه كل الناس.. وكذلك الصناعات التي تفتقر لمنشآت ضخمة تستطيع استيعاب خريجي الجامعات مما أدى إلى انتشار البطالة، وبطالة أخرى وهي إصرار الكثير من الأهالي على إخراج بناتهم من المدارس لمساعدتهم مادياً أو تزويجهن بسن مبكرة، ونسبة الفتيات لا يُستهان بها في مجتمعنا فقد تحولت الفتاة من مشروعٍ يبني بلده إلى مشروع زواج.. فالفتاة ذات الخمسة عشر عاماً تحولت

إلى امرأة لا تكاد تصل إلى سن الثلاثين حتى ترينها صارت عجوزًا.. والزواج هنا أخذ عدة أشكال منها زواج السترة ومنها زواج المصالح، لذلك ونتيجة لعدم التكافؤ ارتفعت حالات الطلاق والخيانات في زمن أصبح فيه مراقبة المرأة والطفل والرجل أمرًا صعبًا في وجود مواقع التواصل الاجتماعي الذي أصبح أحد المنافذ التي ساعد بالهروب إليها على اتساع الفجوة الاجتماعية، والخلل والقطيعة ما بين الأم والأب والأطفال نتيجة الغياب لفترات طويلة عن البيت بسبب أعمال إضافية لسد الاحتياجات الضرورية.

اسمعي هذه الوصايا يا صغيرتي وسجليهم في دفتر حياتك فمهمتك صعبة جدًا أعانك الله عليها.

**لقد دخلنا جميعاً لعبة الحرب وشارك معظمنا في صنعها والناجح والذكي هو من خرج منها ليدخل باب الحياة فلعبة القتل لا ينجو منها أحد ومعظمنا تصرف بردة فعل نتيجة فعل وهذا سبب لا يحقق الانتصار، الانتصار يتحقق من خلال الهيمنة على موقف انتظر صاحبه طويلاً والهيمنة تتنافى مع بطش اليد ولن تحقق ما يصبو إليه لأنها ألغت دور العقل.**

**الشارب المفتول والعضلات لن يفيدا بشيء أمام دهاء ثعلب ومكر ذئب وأرنب ذكي أفضل من نمر مقتول.**

**لا تستعطفي قاتلك فاستعطافه سيزيد من حقده فهو لم يظفر بالمقتول إلا من خلال غفلته وهو كشيخ منافق يأمر بغض البصر ويبيح لقلبه وأعضاء جسده رؤية كل المحرمات.**

**اتكئي على الصبر حين ينكسر في داخلك جزء ما، خذي وقتك في الحزن ولا تستعجلي الفرح فالأشياء تهرب منك حين تلاحقينها وتصرين عليها.**

**أطلقـي حروفـك حمامـات سـلام تنقـل فـي منقارهـا رسـائل حـب يسـتطبب بهـا الياسـمين الـذي خضبـوه بالـدم.**

**تحكمي بقراراتك لتكوني قائدة فهذا طريق نجاحك.**

**لا تطرحـي أفـكارك فـي الضجيـج فصوتـك سـيضيع فـلا هـم سيسـمعونك. وأنـت سـتتعبين.**

**لا تتوقفـي عـن أحلامـك فـي حـال فشـلتِ بتحقيـق حلـم ربمـا أردتِ تحقيقـه فـي زمـنٍ خاطـئ، كـرري محاولاتـكِ لهـزم الفشـل.**

**لا تتعاملـي فـي الغربـة بحسـن نيـة فسـوء نوايا الآخريـن لـن يحميـك مـن طيبتـك.**

**لا تصادقـي أصحـاب النزاعـات لأنهـم سيتشـاجرون دومًـا فـي غرفـة اتخذوهـا مقـرًا لهـم ولـن يسـمعهم أحـد سـوى الجـدران وسـيزعجون هدوئـك.**

**حافظـي علـى جـذورك واسـقها دائمًـا فموتهـا يعنـي أنـك أصبحـت ورقـة فـي مهـب الريـح، ورقـة غريبـة تتلقفـك أمزجـة المناخـات لتنتهـي ورقـة خريـف تدوسـك الأقـدام ويكنسـوك خـارج المـكان والزمـان.**

**حافظـي علـى عاداتـك وتقاليـدك وابتعـدي عمـن خلعـوا ثوبهـم واسـتعاروا ثيـاب غيرهـم فهـؤلاء سـيمضون حياتهـم مرتجفيـن أبـدًا مـن صقيـع الخـوف فالثيـاب المسـتعارة لا يعلـم أحدهـم متـى يطالبهـم بإرجـاع مـا أخـذوه.**

**لا تسخري من ضعيف فالنمرود قتلته بعوضة.**

يا ابنتـي الوطـن مثـل الله.. محتـاج لقلـوب مؤمنـة بـه ونحـن ألحدنـا وكفرنـا حيـن أراد كل واحـد منـا الإسـتئثار بـه.. ومـن غيـر قصـد ربمـا قتلنـاه بطعنـة حـب.

غادري بعيدًا.. فدمشق هربت ملائكتها تشكو الله من نجاسة شياطين يرتعون بها ولا أحد يعلم متى ستعود.

غادري بعيداً، وابدئي من جديد في أرض لن تغتال أحلامك ولن تصطاد قلمك.. لتختاري بين أن تكوني حرة.. أو قلمًا مأجورًا.

غادري فليس بمقدورك الإمساك بحيطان الجبن كما فعل كثيرون وهم يرون بلدهم تُذبح أمام أعينهم..

غادري فنحن شعب لن يمتثل للأوامر.. لأنه خرج من بيئاتٍ متعددة مزقته رياح السياسات والمصالح.. ومثل هذا الأمر لن يجعله ناجحاً في التواصل مع الآخرين.

**غادري.. ففي هذه البلد كانت تعيش عقول ثمينة ترددت على أرخص الخمارات لتنفث همومها وفقرها ووجعها دونما رحمةٍ من أسياد كاتبي التقارير الجالسين قبالتهم على هيئة ماسحي أحذية.**

غادري.. فالوطن لمن يشعر به حتى لو كان في قارةٍ أخرى.. والمهاجر هو من هجر وطنا يقطن فيه ويرى موته، منتظرًا غسله وتشييعه بحفنة دموع كاذبة، غادري فنصف رجال دمشق ماتوا في غاليبولي في سبيل مصالح الألمان.. ومنهم من مات أثناء الثورة الجزائرية وأُضيفوا أرقامًا مع المليون شهيد دون أن يذكرهم أحد.. غادري.. فجميع الاشياء أصبحت معطوبة.. وجبنًا حتى عن الدفاع عن جيل من الأطفال يهوي إلى قاعٍ مستقر بأفاعٍ على شكل مسؤولين ينفثون السم في عقولهم لتخريبها بمنهجيةٍ خبيثة.

لم يعد الأهالي يصلحون كراشدين حين حال حاجز الجبن والخوف دون ذلك، إنها مافيات متخصصة بتخريب العقول وقتل كل إبداع والقضاء على الحضارة والعلم والتعليم والتربية أيضًا.. ففي المناهج لن تجدي

صفحات.. بل صفعات أكثر من يستحقها هم الأهالي الذين ما زالوا مصرين على إرسال أولادهم إلى مدارس مناهجها منحطة إلى الدرك الأسفل من الانحطاط، أهالي ما زالوا يرزحون تحت نير الجبن والضعف ووطأة التخاذل ومشاركة المسؤولين للنيل من مستقبل أطفالهم. ماذا بعد هذا التآمر كله حين يعجزون عن استنكار مناهج سيتخرج منها غالبية الأجيال إما حراسًا على أبواب الملاهي أو حراسًا شخصيين لراقصات الليل وبائعات الهوى؟

غادري ولا تلتفتي خلفكِ.. فخلفكِ مليء بالحرائق.. غادري ولا تطلبي موتكِ في وطن متوهمة نفسكِ فيه شجرة.

**يا ابنتي معظم أشجار الوطن ماتت واقفة نعم، ولا يعلم أحد بأن موتها قد نخره سوس الخواء دون أن تملك لنفسها شيء، غادري.. فقد أصبحنا أعجوبة العالم الذي يشير علينا بإصبعه وبشفاهه التي تروي لأطفالهم قصصًا عن بعبع الليل وأنا لا ألومهم، فنحن من صنعنا فرعون ثم طالبناه بكل بساطة أن يتحول إلى موسى.**

**غادري.. فقد بكينا كثيراً في الوطن وكنا عصافير نطير ليس فرحا.. بل ذعرًا من الصياد، غادري ولا تبحثي عن زاوية تختبئين فيها لتبكي بل شرعي يداك للريح وابحثي عن وطنك داخل نفسك وأزيحي عنه أصابع الاتهام التي وُجهتْ إليه.. ثم اصرخي حين تصلين للشمس، اصرخي بملء قوتك.. وأعلني أن معظمنا لم يبع روحه للشيطان بل هو من أخذها عنوة حين كنا ننزف والعالم لم يدخر جهوده إلا في القبض على أرواحنا، غادري.. فدمشق لن تصحو من غيبوبتها ربما لمائتي عام قادمين.**

يا ابنتي.. أنا سأُقتل بعد أسبوعين فقد أصبح صوت صراخي يزعج هدوءهم.. هم يريدون قتلي لأنني أعلم أكثر مما يعمله غيري.. ومهنتي

كمعلمة هو أكثر ما يخيفهم حين أقول للأجيال ما قلت لك جزءًا منه الآن ومكاني هذا ينتظر سجيناتٍ أخريات مازلن ينتظرن دورهن، سيقتلونني ولكن روحي ستبقى تطوف في المكان ولن تهدأ، سأتحول لشبح يقضُّ مضاجعهم، سأُقتل نعم لكن لن أموت.

أصوات أقدام تقترب من خلف مهجة وكأنها من فيلم رعب، التفتت مذعورة لتجد السفاح يقترب منها ببطء شديد، يدهُ التي تمسك السوط تحولت لكلابات، كتلك التي يعلقون عليها الشاة بعد ذبحها.. وعيناه كفوهتي بركان يوشك أن ينفجر.. وأنيابه كأنياب ضبعٍ كانت تطول وتطول عندما فتح فمه ليسألها:

- ماذا تفعلين هنا؟

صرخت مهجة بفزع.. واستمرت بالصرخ حتى بعد اقتراب السجينات منها وهن يهدئن من روعها بعد أن أيقظنها.

عيناها تجوسان وجوههن بخوف لتسألهن بصوت مرتجف:

- هل السجينة التي تصرخ دائماً اسمها بارعة.؟؟

- أجل.

- هل مات طفلها في السجن هنا نتيجة الإهمال؟؟

- أجل.

-هل قامت بالهجوم على ضابط لأنه كان هو السبب بموت طفلها حين لم يرض بإسعافه.

- أجل

تقولها السجينات والدهشة تملأ وجوههن.

- هل هي معلمة حقاً؟

- أجل.

- هل يقومون بتعذيبها بشكل مستمر؟

- لا.... لا أحد يقوم بتعذيبها.. إلا أن صدمتها بموت طفلها جعلت منها امرأة غير متوازنة نفسيًا.. وقد سمعنا بأنهم سيقومون بنقلها إلى إحدى المصحات النفسية بعد أسبوعين.

# الفصل الخامس والعشرون

كلنا شربنا من
النبع.. ومعظمنا
رمى فيه الحجر..

الخدم والحراس يقفون بطابورين كأنهم أطفال في باحة مدرسة أثناء تأدية تحية العلم.

تحولوا لحالات من الخوف والفزع على هيئة بشر.

سيارة مهيوب تفادت حادثين على الطريق لشدة سرعتها وهي تقله لبيته الصيفي الذي اتصل منه رئيس خدمه ليخبره بأن المنزل قد سُرق.

العراف سبقه إلى هناك حين اتصل به مهيوب يخبره بما حدث.. وبعد أن طمأن العراف الجميع من الخدم والحراس بأنهم بريئون من عمل ذلك انصرفوا إلى أعمالهم يحللون مندهشين وشامتين بصمت كيف تجرأ أولئك اللصوص على التسلل إلى القصر وسرقته؟

يصل مهيوب.. ويدخل مسرعًا إلى مكان تواجد العراف ورئيس الحرس الذي نال من الشتيمة ما عجز عن شتمه السياسيون بعضهم لبعض في الحوارات المفتوحة.

يصرخ كالمجنون:

- من تجرأ على دخول قلعتي المحصنة بأحدث آلات التكنولوجيا العصرية؟ وكيف تجاوزوا الكلاب البوليسية المدربة على أعلى مستوى في الغرب؟ كيف استطاع أولئك الاقتراب من أسوار الحدائق المتشابك مع عروق أغصانها الخضر الأسلاك الكهربائية من غير أن تصعقهم؟

يصرخ وهو يدور في غرفته حول نفسه غير مصدق:

- كيف.. كيف.. كيف استطاعوا الدخول إلى غرفة نومي!!!! والعبث بها دون.. دون أن يشعر بهم أحد؟

- مئات الحراس والخدم وعشرات الكلاب البوليسية وكاميرات المراقبة أصابها العمى والخرس؟ هكذا فجأة؟

صرخ صراخاً عنيفا سال معه لعابه:

- جميعكم متآمرون ضدي، جميعكم تريدون قتلي.. لن أرحم أحدًا منكم، ستنالون عقابكم جميعًا.. وسأفتح هنا في باحة هذا القصر مقبرة جماعية أدفنكم فيها أحياء.

اقترب العراف وهزه من كتفيه هزة عنيفة وأخذ يهمهم:

- ياشياطين البر والبحر.. والعفاريت الموكلة بحروف الجر.. يا شترموت وعنخموت.. ياأطاليس.. يا أبالسة الارض.. وجن الفضاء.. يا فرسان الكر والفر.. ودهاة الأرض من معلومين ومجهولين.. انفذوا الآن في كل مكانٍ واحضروا حالاً.. الساعة الساعة.. الوحا الوحا.. العجل العجل.

مهيوب مُلقى على كرسيه لا يتكلم.. والعراف أخذ ورقة بعد أن مررها فوق البخور ورسم عليها بماء الزعفران جداول منتظمة جعل يكتب داخل كل مربع فيها أحرفاً.. وهو يتمتم:

- بحق الكاف والخاء.. والعين والياء.. والتاء والفاء.. هدؤوه ولا تتصرفوا قبل أن تنفذوا ما وعدتم به.

يبلل الورقة بماء الورد.. ويناول مهيوب الكأس الذي تجرعه جرعة واحدة ثم ألقى برأسه على المقعد وأغمض عينيه منصتًا إلى العراف الذي بادر بسؤالٍ لرئيس الخدم عما سرقه اللصوص.

أجابه:

لقد سرقوا يا مولانا كل ساعات مهيوب بيك الثمينة.. والبدلات الرسمية وغير الرسمية.

قطب العراف حاجبيه، وماذا سرقوا أيضاً؟

لا شيء سواهم يا سيدنا.

فتح مهيوب عينيه ينظر إلى العراف مستفسرًا: لكن الأخير نهض واستأذن بالذهاب دون أن ينبت ببنت شفة.

مضى شهران على حادثة السرقة.. دون أن يعرف أحد هوية اللصوص وموعد تدشين البرج قد اقترب، ولا بد من إلقاءِ نظرة أخيرة عليه قبل الاحتفال.

العراف ومدراء أعمال مهيوب والمهندسون توجهوا إلى الموقع.

بدأ البرج يكبر ويكبر.. وتتجدد مع كبر حجمه، عناصر دم مهيوب وعافيته التي أفسدتها عملية السرقة التي هزمته من داخله دون أن يشعر أحد بذلك، البرج.. يعني هدم تاريخ من الهزائم لا عملية السطو وحدها، هناك في ذلك البرج الذي سيصل إليه بعد قليل يوجد ما يشبه البحر الكبير الذي سيهزم بأمواجه المرتفعة كل سفينة تحاول اختراق شاطئ أحلامه أمواج.. وإن تراجعت فمن أجل أن تعود بقوة أكبر.

أخذ يفكر..

سأجهض أحلام كل من يحاول مجاراتي ببناء برج كبرجي هذا.. وسأجعل أبنيتهم أرامل.. ومشاريعهم عوانس يحلمن بالزواج.

وصلوا البرج، وقف الجميع أمامه.. العراف ومهيوب والمهندسون والمستشارون ومصور واحد، بدوا جميعا عقلة الإصبع وهم ينظرون إليه من الأسفل، يمشي مهيوب إلى الداخل ويلتفت إليهم حين لحقوا به طالبا منهم البقاء في مكانه.. فهو يريد الدخول وحده، محذراً إياهم من اللحاق به ما لم يتصل بهم يستدعيهم.

**يسمع صوت أقدامه على الأرض.. وكأنها تسقط من السقف والجدران كما سقطت نفسه أول مرةٍ حين شاهد أمه والباشا معاً فوق التبن في الإسطبل، يبطىءُ في سيره قبل أن يصل الطابق الأول الذي أعاد إلى ذاكرته ذكرى أول صعود بعد قتله للسيد جميل، يواصل صعوده ومع كل طابق تتزاحم الذكريات القريبة والبعيدة حين كان يتسلق الأشجار في قريته قبل أن يُباع لمسكين تعاطف مع نفسه وسمح لها بشراء حتى البشر.. رجل مسكين أناني استأصل طفلاً من بيئتهِ وجذورهِ.. كي يزرعه في تربةٍ أخرى غريبة عن تربته الأصلية.. وعلى الرغم من اندماجها وتأقلمها فيما بعد مع المناخ الجديد.. إلا أنها بقيت وحيدة وغريبة ومنعزلة.. تنظر لبقية الزرع بحقدٍ ينتقد من خلاله أقل الهفوات التي تثير في نفسه طموحاً مستتراً بالخوف وعقد النقص التي تتشربها تربته كلما اعتنى بها أكثر، التي نضجت ثمارها تحت الشمس الجديدة.**

**لقد جعلوني بين بيئتين مختلفتين تماما.. فلا أنا نسيت نفسي كماضٍ بغيضٍ.. ولا استطعتُ التعامل مع العالم الجديد إلا من خلال الأقنعة.**

**يواصـل الصعـود مُحاصـراً بجيـوش مـن الهزائـم، هزائـم اجتماعيـة.. وهزائـم سياسـية.. وهزائـم عاطفيـة.. وهزائـم فحولـة كاذبـة.. كانـت سـببًا فـي جعلـه يعيـش فـي ماخـور إباحـي يسـيطر عليـه بالبطـش والقـوة كتعويـض عـن عجـزه بالدخـول إلـى عالـم مـن اللـذة المتخيلـة.. لـم يحمـل معـه إلا مزيـدًا مـن الحسـرة والقهـر.**

تتشابك خطوط الأزمنة والأمكنة داخل عقله محدثة ضجيجًا رغم الهدوء المفزع فـي المـكان المنتشـرة فـي فضائـه خارطـة مملكـة صغيـرة مرسـومٌ بداخلهـا حسـاباتٌ بنكية.. ومناطـق نفـوذ.. وأماكـن سيطرة.. ومشـروع بناء قلعـة نصـب فوقهـا سـارية لعلـم مؤطـر فـارغ المضمـون هلامـي وكأنـه بصدد اختيار تصميم لـه.

**يواصـل الصعـود ويلعـن مخترعـي واقـي الرصـاص كيـف عجـزوا عـن صنـع واقٍ للخـوف.**

يردد بينه وبين نفسه:

هلـعٌ رهيـب يحيـط كل جـزء مـن أعضـاء جسـدي، خائـفٌ مـن أنفاسـي المتلاحقة، خائفٌ من عجزها على عدم إسعافي بالوصول إلى قمة البرج.

يتبرم..

لماذا يصر نعل حذائي المصنوع من أفخر أنواع النعول على مشاكستي بضجيجـه؟ لماذا لا أخلعه وقد بقيت وحـدي؟

يخلـع حذائه مستمرًا في الصعـود.. رغـم أنفاسـه التي بدأت تتقطـع ورغم التعـب الـذي بـدأ يأخـذ منـه.. إلا أن عنـاده يمنعـه مـن الاعتـراف.. ومكابرتـه ترفـض الاعتراف هـي أيضـا بالخدر الـذي بـدأ يتسـلل إلـى أصابـع قدميـه وقـد بـدأت علـى وشـك التجمـد كمـا لـو كانتـا تسـيران فـي وسـط حقـول مـن الثلـج.

يواصل الصعود.. وخوفه يتحدث بلهاثٍ يشبه صرير بابٍ صدئ.

إنها المرة الأولى التي أشتهي بها رؤية زحام الشارع الذي كان يصيبني بالحنق حين يصادف مروري أمام أزمة مرور السيارات.. وبما أني لا أحب المشاجرات فقد كنت أختصرها بإطلاق الرصاص على الإشارة.. وعلى الشرطي العاجز عن تنظيم السير.. وعلى المارة الذين يسمحون للسيارات بالبطء ريثما يقطعون الشارع.. أطلق عليهم الرصاص جميعاً لأمر بسلام.. فالوقت والمواعيد عندي أمرٌ مقدس يجب عدم الاستخفاف بهم!!!

يواصل الصعود.

الأمر هنا الآن مختلف.. فالمكان متسعٌ جدًا.. ولا وجود للزحام وللأزمة المرورية الخانقة سوى داخل أعصابي.. سأستريح قليلاً، لا.. لا أريد أن أستريح.. فالاسترخاء في هذه اللحظة ربما يعني الموت.. كالاسترخاء في بيدر ضخم من الثلوج يستجرني لأنام ثم يطمرني تحته ساخرًا من غبائي.

يواصل الصعود.. وقد بدأ يشعر بالتجمد يصل فوق قدميه.. والخدر آخذٌ بالتمدد.. وذهنه يعمل أكثر من بصره.. وهذا فأل سيء لطالما حذره العراف منه.

مكابرًا يواصل صعوده.. وهو يفكر.

هل ورطت نفسي حين لم أسمح للبقية باللحاق بي أو المجيء معي؟ هل ورطتُ نفسي حين اخترتُ العناد الذي يجرني دون أن أقوى على إطلاق الرصاص على ثرثرته؟

لا.. لاحل آخر أمامي سوى الاستمرار في الصعود.. فالعودة دون رؤية قمة البرج ستفسح المجال للسخرية مني والنيل من شجاعتي أمام من يدعون محبتي، لا.. لا حل آخر سوى الصعود.. دون شك.

سأسرع.. إنه مجرد وقتٍ لا أكثر، يتبرم.

ليتني لم أستمع لكلام ذلك العناد الأحمق.. فلأهدأ قليلاً ولأعتبر الأمر مجرد تسلية في مدينة الألعاب.

يرعد المكان ويبرق، يتلفت مهيوب مذعورًا وعيناه تجوسان المكان، تنشق الأرض ليخرجَ منها جلادان يمسكان مهيوب ويضعانه في قفص الاتهام.. يصرخ:

أخرجوني من هنا.. أنا لم أفعل شيئًا.

صوت مطرقة قاضي المحكمة تطرق.. والقاضي يأمره بالهدوء.

فليتحدث كلٌ بدوره، يقولها القاضي بصوت هادئ ورزين.

هدوء، الآن ستبدأ المحاكمة.. ها أنتم هنا.. وهاهو المتهم أمامكم فليدلي كلٌ بدلوه.

بدأت الجلسة......

أحد الجدران يتشقق وتخرج من شقوقه مخالب.. يخمش صاحبها الجدار فتسيل منه دماء على شكل كلماتٍ تسأل.. إنه يقول ياسيدي بأنها مدينة ألعاب.

مدينة ألعاب؟ ولكنه زرع في تلك المدينة من الرعب أكثر مما فيها من التسلية، فيها المقص الذي يفتح ويغلق كلما علت بداخله أصوات فزع المغامرين الخائفين من خوفهم الساكن في طياته.. لذة ألمٍ تقطع حدة أصواتهم صراخًا.. يحاولون من خلاله قتل الخوف بالخوف.

جدارٌ آخر يتشقق ويخرج منه صوتٌ مخنوق.

في المدينة ذاتها ياسيدي زرع هذا الماثلُ أمامكم قطار رعبٍ يشبه

محطات أعمارنا نحن البؤساء المساكين.. الراكضين خلف لقمة العيش، لقمة تُهان كرامتنا من أجلها.. ونُذلُّ أمام نسائنا وأطفالنا حين يمدون أيديهم لنناولهم الإنكسار والخيبة بدل النقود.. وتتراجع أسهم رجولتنا وننهزم أمام أنفسنا.. حين نصبح عاجزين عن رسم ابتسامةٍ على وجوه أطفالنا الذين يكبرون ويلعنون كلمة صبر ويلعوننا معها.. وذلك كله بسببه.. ولكننا ورغم ذلك فقد كنا نواسي أنفسنا ببساطتنا حين نمد أيدينا من محطات القطار العابرة لنسلم على أناسٍ لا نعرفهم ولا يعرفوننا كي ننفض التعب عن أنفسنا.. وكي نحصل على ابتسامة وصدق مجاني مع عابري طريق يحملون هم أيضاً الألم ذاته.. وتزفر روحنا بأغانٍ حزينة بدلاً من التأفف اللا مجدي، وبقينا كذلك نغني وننشد رغم كل الوجع ونمضي في رحلات عذاباتٍ يومية نحلم.. ويفشل الحلم.. ونكبر في السن وتتقلص أحلامنا.. وتضيع طموحاتنا على الطريق ونحن راكضون وراء رغيف خبزٍ ننهشه جوعاً ونبتلعه دماً متخثراً حتى محطتنا الأخيرة.

يجاوبه مهيوب:

ولماذا خرستم؟ لماذا احتويتم كل ذلك الضعف؟

لم نكن ضعفاء.. بل كنا معتدين بأنفسنا نحبها ونحترمها.. ولم يكن خطأً حين تجاهلنا رجلاً أشعث أغبرَ طفيلي.. يعربد في مدينتنا المتأصلة الجذور.

يحاوره مهيوب ساخرًا.

لكن الخطأ هو غرورٌ لازمكم.. محذرًا إياكم من الاقتراب ممن هم أخفض منكم منزلة.. فركبتم رؤوسكم بدلاً من ركوبكم سفن معركة تحمل فكرًا عوضًا من حماقة ذلك الغرور، لقد كان غروركم على شكل كرم الضيافة.. يشبه لبس ثوباً واسعاً عليكم.

يخرج من جدارٍ آخرٍ رجالٌ.. يُسمع صليل جنازير يجرها التعب.. تسيل من أقدامهم خيوطُ دماء أنهكتهم بالمسير فوق حقول صبارٍ تحت شمسٍ حامية.

**نحن الذين دخلنا مدينة الرعب.. ورأى صبيانك الأقلام بأيدينا فقمت بسفك دم محابرنا.. وكسرت ريش أقلامنا.. ولم تكن تدري بأنك كسرت النصال على النصال.. وحين لم تتشفَ قمت بتشريح عقولنا بمشرطٍ يحمله مبضع جراحٍ مأجور حاول استبدالهم بآلةٍ أسميتموها الطاعة ممهورة بتوقيعك على بياضٍ بدفتر شيكاتك.. وحين لم تستجب أدمغتنا قمت باعتقالنا ونفينا إلى زوايا مظلمة لا ترى النور.. بعدما أعياك كسر عظامِ آرائنا وأفكارنا.. وذنبنا لأننا انسلخنا عن عجزنا ورفضنا لضعفنا كما رفضنا أن نكونَ قلماً يمجد الحاكم المتواكل على غيره.. وأودعتنا في غياهب السجون حين قلنا.. لا لفرض وصايةٍ علينا وعلى حروفنا.. ولا اعتراف بدولةٍ تفكر عنا وتكتب عنا، لا للأفكار المعلبة الجاهزة بدون تاريخ صلاحية منته.. وحين سئمتَ منا.. سحبَتنا أفرادُ ميليشياتك وعدت بكل هدوء لتكمل أخذ حمامكَ الشمسي!!**

تدخل القاعة صبية جميلة تحمل بين يديها طفلاً حديث الولادة:

**لا أعرف كم عمري بالضبط.. لكن ما أعرفه هو أني مت حين فكوا ضفائري.. وغرس صبيتك العابثون مناجل الحرام في رحمي وتناوبوا على اغتصابي.. وحصدتُ بعد تسعة أشهرٍ طفل الخطيئة والشر، لا أعرف كم عمري بالضبط.. لكني أسمعهم يرددون دائماً على مسامعي قائلين..بحزن.. طفلة تحمل طفلاً.. فلا قلبي يطاوعني على قتله.. وما أنا بجانيةٍ حتى أقول أني تجنيت عليه.**

**قتلت جميع أحلامي.. جعلتني مبذولة للناس وأنا القديسة،**

**أصبحت عاقرة القلب، لن يجدي معي أي علاجٍ لحمل حب جديد أحتضنه في عتمة أيامي بعدما أصبح الرصيف ملجئي وذئاب الليل أصحاباً احتمي بهم منهم، لقاء زجاجة حليب وعلبة دواء.**

يجيبها مهيوب:

ولماذا لم تدافعي عن شرفكِ؟

تجيبه مندهشة بحقد:

من هي التي تملك القوة أيها الأبله أمام ثيرانٍ أطلقتهم حظيرتك على جسدها الصغير؟.

ولماذا لم تطلب ممن كنت تحضرهن تحت التهديد.. الدفاع عن شرفهن حين كن في مخدعك؟

ما لك صامت؟ وهل تظن بأننا لا نعلم أن أخريات جئن بمحض ارادتهن ولم يكن يعلمن بأن صبيتك هم من ينوب عنك؟ لأنك عاجزٌ ولأنهن لسن مضطرات للدفاع عن أنفسهن.. فهن قد أتينك طائعات.. يرقصن لك طمعًا بالوجاهة.. لا طمعًا برغيف خبز.. فالفرق شاسعٌ بين من يغني للقمر.. وبين من يبكي للقمة عيش.

قبل أن تمضي قالت له:

قبل أن تبرر شنيع أفعالك، كن إنساناً أولاً أو اصمت.. فكلامك وتبريرك ليسا سوى كلامٍ ينطق به حيوان بهيئة بشر.

خطوات امرأةٍ قادمةٍ من بعيد.. لا ملامح.. لا تعابير.. لا شيء فيها مفهوم.

**أنا... أم شهيد قتلته في مدينة ألعابك لتتسلى.. أنا أم شهيد أخذه**

**صبيتك من بيتي حين كنت أجهز له ثياب العرس.. ثم أعادوه لي مغسولاً بدمه لتحيا أنت، أنا.. المكلومة التي نذرت حياتها من أجله وأتيت هكذا بكل بساطة ورميته على خطوط النار بمواجهة أبناء جلدته الذين تربى معهم.. حين أوهمته بأن صديقه سيبادر بقتله حين لا يسبقه ابني بالقتل لقد استطعت زرع الحدود بين الحارة الواحدة.. وأقمت حواجز الكره والحقد.. ووزعت عليهم أسلحةً طائفية فتاكة وجلست على نافذة قصرك تسخر منهم بينما تستمع لموسيقاك المفضلة، أنا الأم التي غررتَ بولدها.. وصدقكَ لأني ربيته أنا على حب الوطن وكنتُ مخطئة حين عرفتُ متأخرة بأن هذا الزمن هو زمن كلاب الوطن، زمن الممنوع من الصرف في مكان مرفوعٌ فيه العتب.**

يجيبها مهيوب بحنق:

أولستم أنتم من دخلتم مدينةً مأجورة واشتريتم الخوف بأنفسكم ودفعتم ثمن التذاكر سلفا؟

تجيبه ساخرة:

ما الفائدة من عينين سليمتين والقلب أجوف والعقل أعور؟ وأنت تملك الثلاثة.. ومن يملك ذلك لا يمكنه التحكم حتى بنفسه، نحن لم نشترِ الخوف.. كيف نشتري أشياءَ لسنا بحاجةٍ لها؟ كيف نشتري أشياءَ رماها زمننا كرداء فقير بالٍ..؟.وهل صدقت أيها الأحمق.. بأن المدينة ملكٌ لك؟ هذه نكتة، كمثل الذي رأى النجم في رحلة صحراوية ثم أعلن للملأ بأنه اشترى السماء وقيدها بحبلٍ كي لا تهرب النجوم منه.

ترفع رأسها وتقترب منه، ممسكةً بقضبان القفص:

**كيف نخاف.. وما زالت فينا ألفُ خولةٍ.. وألف سبأ.. وألف ألف**

**زنوبيا، ممن نخاف.. وقد هزمنا جيوشا من الرجال فيما مضى؟ كيف نخاف ومن أرحامنا وُلِدَ الأنبياء والأبطال والفلاسفة والشعراء؟ لن نُهزَم ما دامت فينا ألف ولّادة.**

**سقوطنا في المدينة لا يعني أننا مهزومون، نحن سقطنا في وحل قوانين صدقناها، قوانين سُنَّت لتعاقبنا على كرم أخلاقنا حين تعاملنا مع الغريب بلطفٍ لا بفظاظة، غريبٌ اعتبر كرم ضيافتنا له جريمة زنا فضت بكارة أمنه وطهارته.. بعدما أيقظناه لشرب القهوة وقد أعجبه الدلال والمكان!!. وكأن ذلك القانون المشرّع قد نسيَ بأن من أبسط حقوقنا عليه هو شكرنا لا التشهير بنا وإعدامنا وأخذ مكاننا وارتداء ألبستنا بكل وقاحة.**

هل أحكي لك سرًا؟؟ قالتها وأسنانها تصطك ببعضهم البعض.. حنقًا وغيظًا

**لقد جلبتْكَ الصدفةُ وستنتهي كما جئت بالصدفة.**

مضت تمشي كالطاووس.. مخلفة وراءها دهشة رُسمت على وجه مهيوب، دهشة عاجز هو ذاته عن تفسيرها.. تمضي المرأة بابتسامة ساخرة غير آبهةٍ بما قاله حين صرخ:

أنتم لصوص.. لقد عرفتكم الآن.. أنتم المتآمرون علي والذين دخلوا إلى قصري وسطوا عليه. لن يبقى منكم أحد، سأنتقم منكم ولن تفلحوا بالهرب مني.. أنا مهيوووب.. أنا.. أنا.. ولا أحد غيري.

يتلفت مذعورًا كفأر يبحث عن ركن يأوي إليه، يصم أذنيه:

**لن تفلحوا بلصق أجنحة الملائكة بكلام لم تمارسوا أفعاله، عالم الأخلاق لا يأتي بتزوير الحقائق.. بل بنية العمل الإنساني الخالص.. وأنتم وافقتم على كل أعمال التزوير حتى باتت ماركة مسجلة**

**باسمكم.. أنا من صناعتكم أنتم.. لا من صناعة الشيطان، أنتم المسؤولون عن كل الفوضى الحاصلة الآن.. حين لم تعرفوا كيفية تنظيم فوضى قلوبكم.**

أنا؟؟ كنت ماهرًا في تنظيم ما خططت له، ماذا فعلتم أنتم؟

أنا؟؟ صنعت لكم جهنم، أين صناعتكم لجنتكم؟

أنا؟؟ أحببت نفسي وأنتم ماذا أحببتم؟

أنا؟؟ بعت كل شيءٍ.. لأبني هذا البرج وأنتم ماذا اشتريتم لأنفسكم؟؟

أنا؟؟ تعاونت مع أعدائكم عليكم وأنتم تعاونتم مع أنفسكم على أنفسكم.

**من يريد الانتصار على عدوه عليه الانتصار أولاً على عداوته لنفسه، ومن يردْ لأن يكون مصلحًا يجب عليه نصح نفسه قبل التدبير لعملية اغتيال الشيطان، أنا لست وعاظاً ولكني سكنتكم حين تجاهلتم التفاصيل.**

تهبط من الثريا الكريستالية المنقوشة بالذهب المتدلية منها أحجار كريمة.. امرأة غاية في الحسن.. ترتدي ثوبًا من الماء يترقرق فوق جسدها دون أن تلتقط منه الأرض نقطة واحدة، جسدها رخام وأبلقٌ شعرُها أخضر كعشب الغوطة المتماوج حين تهب عليه نسمات بردى.. شعرها الطويل.. يزينه مشط ماسي يتوزع منه ياسمين أبيض مخضب بحناء الجدات.. وفي أسفل خصلاته نبتت سبع سنابل قمح.. في كل سنبلة مائة حبة من وجع وحزن وصبر، يتدفق من فمها نبع كلمات يترقرق بحروفه حين قالت:

**أنت؟؟ لم تكن ماهرًا في تنظيم ما خططت له.. ولكنك كنت**

**تخلع أخلاقك صباح كل يوم كما تخلع ألبستك وترميها حتى فرغت خزائن ثيابك وأصبحت عارياً من كل فضيلة،** تذكر ثيابك التي سرقت في القصر

أنت؟؟ صنعت جهنم؟.. نعم.. ولكنك صنعتها لنفسك حين توهمت صمتهم عجزًا.. وسكوتهم ضعفاً.. ولم تكن تدري بأنك مخدوع بغرور أفكارك، هم صنعوا جنتهم بصبر حين أخرجوك من حساباتهم ليفوضوا أمرهم لله بك.. ومن يفوض الله ويتقه يجعل له من كل ضيق مخرجا وخرجوا.. لكن مازال هنالك وقت قصير كي تعود الآيات إلى تراتيل بعدما حولتها لقرع طبول مخيفة في غابات مجهولة.

أنت؟؟ مخطئ حين تقول بأنك أحببت نفسك.. فمن يحب نفسه هو شخص قادر على حب كل ما هو مبدع وجميل.. من يحب نفسه هو شخص قادر على زرع محبته في نفوس الناس، كان يمكنك أن تقول بأنك آذيت نفسك حين لم تعرف كيف تحبها.. فاختلطت عليك الأمور كرجل شره لا يميز بين وجبة صحية وأخرى مشبعة، لذلك لن تجد لعافيتك المريضة حلاً إلا بالنفي.. بعدما أكلك جذام الجشع والطمع والحقد.

**أنت؟؟ بعت نفسك في مزاد علني في صالة كان جميع أعضائها أنت.. لذلك آثرت إلا أن تكون أنت المستشار.. وأنت البائع.. وأنت السمسار وأنت البضاعة.. وصدقت بأن لا وجود على هذه الكرة الأرضية سواك وكأن ساعة زمنك قد توقفت حين عرضتها في ذلك المزاد، تذكر الساعات التي سرقت منك في القصر.. أما هم فقد اشتروا أنفسهم بالرضا حين عرفوا بأنه كان لزاماً عليهم أن يتواضعوا.. ومن تواضع لله رفعه.**

**أنت؟؟ تعاونت مع نفسك على نفسك.. فكنت أكبر عدو لها، نفسك مشتتة.. وحدودها مشاع لكل من هبَّ ودبّ.. أي نفس**

**تلك هي العاجزة عن الوصل بين القلب والعقل؟ أنت تهيأ لك بأنك انتصرت.. وكيف ينتصر من تزينه نياشين صنعت باحتقار الآخرين له.**

أنت؟؟ لم تسكنهم يوما فقد كنت مطرودًا من داخلهم كما يطرد المؤمن الشيطان.. لكن تفاصيلك كانت تحاك في صومعة امرأة ماهرة آلفت حياة القهر دون التخلي عن مجدها، إمرأة قالت للصبر كن فكان خيمة بنفسج تجلس بداخلها منتظرة فارسها العائد من الحرب رافعا شارة النصر.

إمرأة تحلت بالصبر على مدى قرون وكيف لا يجازى الصابرون؟

إمرأة تغزل بها الشعراء.. وركع أمامها أعتى الجبابرة، إمرأة هزمت جيوشًا من الرجال.. في الجبال وفي البحار وفي القفار، إمرأة خرج من رحمها الشجعان والأبطال والأنبياء والصالحون والعلماء والفقهاء، امرأة أنجب رحمها أيضاً الجبناء والعاقين.. والعاقون.. عقابهم في الدنيا قبل الآخرة.. لكن بستانها ما زال يطرح.. وما زال رحمها يحمل.. فلا بأس من أعشاب طفيلية تنبت أمام الزهر، فما ضر الجذور عشب يطفو ويسهل اقتلاعه ونهضت كطائر الفينيق ونفضت عن جناحيها كل هذا اللؤم والحقد وفي كل مرة كانت تبدأ من جديد.

أنا الأسطورة.. أنا دمشق في وجعها، أنا المنفية في أرضي منذ عشرة آلاف عام.. قتلني المغول.. واغتصبني التتار.. ونهب مذهبي الحشاشون، أنا دمشق.. الأسطورة في آلامها التي ما زلت أعاني ألم المخاض وما زال الحبل السري يغذي جنيني بالشيفرات بعيدًا عن أجهزة المخابرات.. وما زال الجنين يجاهد بالخروج من جدران رحمي.. وما زال يؤنبني ضميري كلما صرخت يائسة في لحظة قهر... في داخلي يسير نعشي.. نعش دمشق.

أنا؟؟ الأرض التي اختارتها الصحابة ليقيموا فيها ويدفنوا فيها.

أنا؟؟ جدة معاوية وخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح الذين فتحوا أبواب بيتي بالصلح

أنا؟؟ الصالحية التي فرَّ إليها المقدسيون هرباً من الجور والقتل.

أنا؟؟ ميدان القتال الذي كان يتبارز فيه الأبطال بالسيف.. وأنا ميدان الشعر الذي كان يتنافس فيه طلاب العلم والفقه.

أنا؟؟ التاريخ.. وأنا وسائدُ وبيوت العلم.. أنا؟ دمر ببساتينها.. وأنا كهف برزة الملاذ الذي آوى النبي إبراهيم واحتضنه.حين هرب من النمرود الكهف الذي وضعت فيه هاجر إبنها اسماعيل هناك.

أنا؟؟ القلعة التي بناها صلاح الدين.. وأنا القباقبية التي بنى خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز قصره ومجلسه فيها.

أنا؟؟ الحائط الذي بناه النبي هود.. أقدم حائط في التاريخ.

أنا؟؟ ساروجة التي بنى الأغنياء قصورهم فيها، أنا القنوات التي اكتشفها الروم وسكنها علية القوم.. أنا الشريبيشات الهادئة الوديعة التي تحكي بيوتها الجميلة أحلى القصص عن أبطال الغوطة التي كانت ترويها الأمهات لأبنائهن على أنغام صوت المطر قبل النوم أمام مدفأة الحطب.

أنا؟؟ دمشق عشيقة بردى وأم أبنائه السبعة الذين رُويت بساتيني وبيوتي بمائهم.

أنا؟؟ جدة بولس الذي ذهب إلى روما مشيًا على الأقدام.

أنا؟؟ جدة الوليد بن عبد الملك الذي بنى الأموي الذي سقط فيه

رئيس الوفد البيزنطي مغشيًا عليه وهو يتأمل روعة فنه وذوقه.. ومن يدري ! فلربما كان سقوطه غيرة وحسدًا حين أيقن بأن العرب باقون هناك ولن يبرحوا مكانهم وهذا ما آلمه.. !!

أنا؟؟ الغار الذي اختبأ به النبي إلياس.. والذي جعله جدنا ابراهيم مزارًا لأبنائي من اليهود فيما بعد حين دارت فيه معارك حامية بينه وبين خاطفي إبن اخيه لوط ومواشيه وقد تحول إلى أقدم كنيس في التاريخ وأجملهم، كنيس جب بر أو جوبر.

أنا؟؟ مغارة الجوع التي أسموها الجوعية، المغارة التي آثر ابطالها الأربعون.. رغيف الخبز على أنفسهم وكان كل بطل يلقي بالرغيف لصديقه إلى ان ماتوا جميعاً من الجوع.

أنا؟؟ مغارة الدم التي حصلت فيها أول جريمة في التاريخ.. حيث قتل قابيل أخاه هابيل.. وكي يعاقب نفسه حمل أخاه حتى وصل إلى قرية قرب وادي بردى ودفنه هناك وبقيت المغارة تبكي إلى اليوم سوءة فعله.

**أنا... حكاية حب ممزوجة بالألم، وأنت حكاية خبث مجبولة بالشر موعودة بالعدم.. أنا إن حزنت فاض القلم وأنت إن ضحكت عبس القدر وارتدى المدينة ثوب السقم.**

تتلعثم في بكائها وتكمل بقهر وغضب:

أي شر سكن المدينة!! أي عين أصابتها!! أي أذى هذا الذي لحق بها.. أية لعنة حلت بنا؟

مع كل حرف تقوله تهطل دمعة على خدها وكلما حاولت ابتلاعها للقلب تهطل أخريات.

ما بها المدينة تحولت من جنات إلى مساكن للشياطين؟ كيف غادرتها الملائكة وقد كانت تسرح وتمرح في كل ركن وفي كل حارة وزاوية؟ كيف تحول الصالح إلى فاجر.. والتقي إلى ماجن؟ كيف تحول المقاتل إلى لص؟ والقائد إلى سمسار.. والعاهرة باتت تحكم باسم الشرائع؟ كيف تبدلت معالم المدينة ومن سرق فرحها؟ كيف رضيتم بإدخال انفسكم بالتوحش.

ماذا أقول؟ ماذا أعلن الآن؟

فسكوتي فضيحة وتكلمي فضيحتان.

**ماذا أقول.. وقد كنتم تنبشون الأرض لاستخراج كنوزي واليوم تنبشونها للبحث عن أكوام الضحايا؟**

**فيما مضى كنتم تنثرون الورد على الأبطال واليوم تقتلونهم باسم القضية.**

**كانت البساتين تنشر عبق رياحينها مع الماء مرسلة سلاماً لكل بيت وكل أص زرع.. وكل مزهرية.. واليوم أصبحتم شظايا معلقة جلودهم على الجدران وأصبح العاقل فيكم يحارب طواحين الهواء.**

كانت الناس تزور القبور لإلقاء السلام.. واليوم أصبحتم تتنكرون لأصحابكم.. والجار أصبح عدو الجار، إن قال الجار صباح الخير قام الآخر بالهروب دون أية أعذار.

**كانت مدينة الياسمين أيادي فقرائها تلضم الأساور والأطواق بإبر الصبر لتبيعها للعاشقين.. واليوم تعج بالسماسرة والمفوضون.. والقتلة والمخبرون ومأجورون مختصون بذبح الأنبياء والشعراء والمرسلين.**

**كانت مدينة العفاف واليوم صارت مدينة العهر، كانت مدينة الأقوياء واليوم يسكنها المضطهدون والمستضعفون.**

**كانت البيوت ترفض الغريب.. لذا اختارت لنفسها بيوت رحم يكاد لا يخرج عن مشيمة الشبابيك، أحاديث النسوة خلف الأبواب يكمن وراءها السر.. وأمشاط الشعر الذهبية.. تحكي ألف قصيدة شعر.. وملاءات السرير المعطرة بالغار.. تحكي قصص عفاف وطهر.**

**واليوم أصبحتم ممزقين في المطارات وحبرًا على تذاكر السفر موزعين بين ألف خيمة وخيمة، لا أمتعة لا ألعاب لا قلمًا لا دفتر.**

**كان للشيوخ جوامع. واليوم تهدمت المآذن حين تحول المنصتون إلى ضفادع، كان الشيخ يعلم الأطفال ألفية ابن مالك واليوم أصبح الوعظ ترهيباً يودي إلى المهالك.**

**كانت الأحلام ترسم في مخيلتها إلغاء الحدود بين الوطن الواحد. واليوم بتم تحلمون بتأشيرة مرور من حي إلى آخر.**

**لقد تسرب كل هذا من تسوس أخشاب كراسيكم الذي أكل تاريخكم بينما كنتم تلعبون النرد والشطرنج، منصتين إلى آهات المغنيات دون أن تعيروا يوما انتباها لفتح كتاب، كنتم تغسلون أجسادكم بالماء والصابون وتتعطرون وثيابكم النظيفة ترتدون وتذهبون متكلين على الله لصلاة الجمعة والخطيب يدعو للحاكم وأنتم وراءه ترددون ويصرخ فتصرخون ويهدأ فتهدأون ويبكي فتبكون، يا للخيبة حين يبكي الساذجون.**

لقد تسرب سوس الخشب إلى غرف نومكم.. حين عملقتم القزم ورفعتم النذل.. وتناسلتم قططًا انجبتموها فأكلت ألسنتكم.

لقد تسرب سوس الخشب إلى عقولكم.. حين عجزتم عن غسل

أفكاركم.. وبدلاً من العمل.. وزّعتم مناديلكم على أبواب الأضرحة علّها تشفيكم من أمراضكم واتكاليتكم وفقركم.. متجاهلين فتح كتاب.

تخفي وجهها بيديها وتنتحب باكية تقول:

يا خجلي من الفاتحين.. يا خجلي من معاوية.. يا خجلي من كل الخلفاء الراشدين.. يا خجلي من كل قبر أزوره لصحابي.. ماذا أقول له وبماذا أفتخر؟ يا لوجعي حين بحثت فيكم عن مروان بن الحكم.. ولم أجد له ذكراً مرة في أحاديثكم.

وأنت؟ من أنت؟

لقد ضربت الحياة حظها معك.. وكنت بطلاً رائعاً لمسرحية آن الأوان لإسدال ستارتها.. إن كنت تحب نفسك فاطلب لها الموت، فالموت مرة واحدة أرحم من كوابيس ألف ليلة وليلة التي تعيشها مع شهرزاد داهية تتسلى بك مستحمقاً نفسك بأنها خائفة منك.

نحن الموريسكيون الجدد.. الذين طردوا من أرضهم ووطنهم وبيوتهم، منا من حوكِم بغير ذنب دون أية أدلة.. ومنا من قتل بأبشع أنواع التعذيب داخل محاكم تفتيش القرن الواحد والعشرون بكل همجية.

قتلنا على يد الصديق والعدو، قتلوا خيرة أبنائنا في المعتقلات أو على جبهات قتال دون أن يعرفوا من أجل ماذا.. ومن أجل من؟

تحول أكثر ثوارنا إلى قطاع طرق بعدما شاهدوا أغلب قادتهم وقد عقدوا الصلح مع سفاح أطفالهم بمفاوضات سرية لينأوا بأنفسهم ويأخذوا الغالي والنفيس ويهرعوا لإقامة مشاريعهم بعدما باعوا الوطن.

استشهد من كان مؤمنًا بقضيته.. وتشرَّد من كان يدافع بصدق واعتُقل كل من حاول فك شيفرات الصندوق الاسود لهذا العالم المجنون.

لقد تسترنا على الموت بألف حجة.. وابتلعنا القهر شوكًا نبت في حناجرنا.. كلما حاولنا الصراخ أخرسنتنا أوجاعنا المليئة بآلام العجز والحاجة ومضينا ننسخ ابتسامات ونلصقها فوق شفاهنا كلما ارتفع في داخلنا منسوب الخوف والجوع.

اللعبة لن تنتهي في هذه المدينة فالمفاتيح ضاعت من الجميع وحدها دمشق ستواصل رقصها الأفعواني خارجة من خابية نبيذ معتق عمره عشرة آلاف عام.

صراخ أطفال عويل نساء بكاء شيوخ تمتمات قهر أنين مكبوت لأمكنة دمرتها صفقات أسلحة هدير أمواج بحرٍ تتكسر على الصخور غاضبة يخرج منها مصطفى ومعه مجموعة من الأطفال يبحثون عن ألعابهم وأمهاتهم ودفاتر رسمهم ومقاعد مدارسهم وأولاد الجيران.

مهيوب يتكور في زاوية قفص الاتهام والتعب أخذ منه كل مأخذ ولم يتبقَ عنده أي كلام.

الأصوات تنخفض متحولة لفحيح أفاع في غابة مهجورة بعد قرار القاضي الذي أجل جلسة النطق بالحكم للجلسة القادمة.

**ما زال يواصل الصعود ولكن إلى الهاوية....**

بدأت كتابة الرواية في الشهر الرابع م عام ٢٠١٣ وانتهيت منها في
الشهر الثامن ٢٠١٧

أقدامي يرتسم عليها الذعر.. تركض هاربة من نصل سكاكين مرصوفة على ظهري وقد ابدع من طعنني بتصويب الهدف..

أركض هاربة دون أن ألتفت خلفي لشمس تلمع نصال خناجرهم تحت أشعتها..

الطريق مليئ بالحفر.. وأنا أتعثر وأنهض..

ألوح لقادم من بعيد.. وأصرخ بصوت مرتجف: أنقذني!

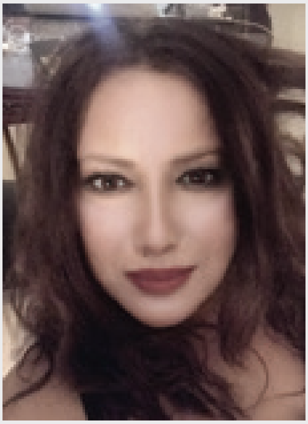
أنا غربة ينتحب على كتفها الغريب..

أنا أنشودة فرح ضاعت في ملاجئ الأيتام..

أنا بريئة من كل أنواع الحقد والكراهية.. فمنذ أن سقط أول حرف من أبجديتي على رصيف الحاجة وأنا أتسول لمسة حانية وحب..

أنا بريئة من الخيانة لكني ساهمت في قضم النفاحة.. وأغويت جميع رجال الأرض وجعلتهم يمزقون جوازات سفرهم فوق أرضي.. ثم أعلنت توبتي.. وهددتهم بالطرد من جنتي في لحظة مزاج تاريخية..

أنا أسطورة دمشق في وجعها.. أنا المنفية في بلدي منذ عشرة آلاف عام.. قتلني المغول.. واغتصبني التتار.. أنا أسطورة دمشق في آلامها.. مازلت أعاني ألم المخاض.. وما زال الحبل السري يغذي جنيني بالشيفرات بعيداً عن أجهزة المخابرات.. وما زال الجنين يجاهد بالخروج من جدران رحمي منادياً للحرية.. وما زال يؤنبني ضميري كلما صرخت.... في داخلي يسير **نعش دمشق..**



9 781999 375812

**دار حنين بوظو للنشر**
**لندن، المملكة المتحدة**

**HANEEN BOUZO PUBLISHING LLP**
London, United Kingdom, Partnership No. OC419541